ليو تولستوي

الحرب والسلام

رواية

ترجمة إدوار الخراط

الكتاب الأول







الحرب والسلام

رئيس مجلس الادارة :
ا . د . سمير سرحان

رئيس التحرير :
جمال الغيطانى

سكرتير التحرير :
مختار سيد احمد

الغلاف
التصميم الجرافيكى
للفنان : محمود الهندى

ليو تولستوي

الحرب والسلام

رواية ترجمة إدوار الخراط

الكتاب الأول





الطبعة الثانية

١٩٩١



الفصل الأول

— إذن أيها الأمير فقد أصبحت جنوا ، ولوكا ، مجرد ضياع العائلة يملكها آل بونابرت . ولـكني أحذرك ، إذا لم تقل لي أن هذا معناه الحرب ، إذا بقيت على دفاعك عن البشاعات والفظائع التي يقترفها هذا المسيح الدجال — إنني موقنة حقاً أنه المسيح الدجال — فلن يكون لي بعد اليوم شأن معك ، ولن تعود بعد اليوم صديقي الوفي ، ولا « عبدي المخلص » كما تدعو نفسـك . . ! ولـكن كيف أنت ؟ . . هأنذا أرى أنني قد أفزعتك . . اجلس ، وقل لي ما أخبارك .

كان ذلك في يوليو ١٩٠٥ ، وكانت آنا بافلوفنا شيرر صاحبة هذا الكلام . وهي سيدة معروفة حق المعرفة ، ووصيفة الأمبراطورة ماريا فيدورفنا ، وصفيّتها . وبهذه الـكلمات استقبلت الأمير فاسيلي مرحبة ، وكان رجلا عالي المقـام ، له وزنه ، وأول وافد إلى حفلتها الساهرة . . كانت آنا بافلوفنا تكح منذ بضعة أيام ، فقد كانت ، كما تقول ، أصابتها « الجريب » ، و « الجريب » عندئذ كلمة مستحدثة في سان بطرسبرج ، لا يفيد منها إلا علية الناس .

وكانت كل بطاقات الدعوة التي وجهتها ، مكتوبة بالفرنسية ، وقد وزعها خادم يرتدي حلة قرمزية في ذلك الصباح ، وتجري على النحو التالي :

« يسعدنى أن أراك الليلة ، يا كونت (أو أيها الأمير) . بين السابعة والعاشرة ، إن لم يكن لديك خيراً من ذلك ، ولم يكن يروّعك أن تقضى المساء مع مريضه بائسة — آنيت شيرر . »

فأجاب الأمير ، دون أن يكربه هذا الاستقبال بأدنى قدر :

— يالسماء ..! يالها من هجمة ضارية ..!

كان قد دخل على التو ، يرتدى حلة موشاة من حلل البلاط ، بالبنطلون والحذاء الخاص بها ، وعلى صدره نجوم ، وعلى وجهه المسطح تعبير صفاء وسلام . وكان يتكلم بتلك الفرنسية الراقية التى لم يكن أجدادنا يتكلمون بها فحسب ، بل يفكرون بها ، وبتلك اللهجة الرقيقة المتعالية التى تأتى طبيعية من رجل له وزنه ، عاش ، وشاخ ، فى عالم المجتمع ، والبلاط . أقبل على آنا بافلوفنا ، وقبل يدها ، وقد انحنى فقدم لها رأسه الأصلع اللامع المعطر ، واتخذ مجلسه على الأريكة فى رضا .

— خبرينى ، قبل كل شىء ، كيف أنت ياصديقتى العزيزة ؟ وهدئى من روعى .

كان يتكلم دون أن تتغير فى صوته نبرة ، وكان بالوسع أن تستشف اللامبالاة ، بل السخرية ، من وراء لهجته المهذبة ، ووده المصنوع .

فأجابت آنا بافلوفنا :

— أيمكن أن يكون المرء فى حال حسنة وهو يعانى من الناحية المعنوية ؟ أيمكن أن يكون المرء هادىء الروع فى مثل هذا الزمن ، إن كان لديه ثم إحساس وقلب ؟ ستبقى إلى آخر الحفلة ، فيما آمل ؟

فقال الأمير :

— وحفلة السفير الانجليزى ؟ اليوم الأربعاء ، وعلى أن أثبت حضورى هناك . ستأتى ابنتى لتأخذنى هناك .

— ظننت أن حفلة اليوم قد ألغيت . وأعترف لك أن كل هذه

الاحتفالات والصوارخ قد أصبحت شيئاً مرهقاً .

فقال الأمير :

— لو أنهم عرفوا أن تلك رغبتك لأجّلوا الحفلة .

كان كالساعة المضبوطة المُحكمة ، يقول بقوة العادة أشياء لم يكن ليرغب حتى أن يصدقها أحد .

— لا تعذبنى . . ! طيّب قل لى ماذا تقرر بشأن برقية نوفوسيتسيف ؟ أتعرف كل شىء ؟

فأجاب الأمير بنبرة باردة لا حياة فيها :

— ماذا يمكن أن يقال ؟ ماذا تقرر ؟ قرروا أن بونابرت قد أحرق سفنه ، وأعتقد أننا على وشك أن نحرق سفننا .

كان الأمير ڤاسيلى يتكلم بتراخ ، كممثل يلقى دوراً مكروراً لا طعم له . أما آنا باڤلوڤنا فكانت على النقيض ، بالرغم من سنيها الأربعين ، تفيض بالحيوية والاندفاع . فقد أصبحت رسالتها الاجتماعية أن تكون دائماً مشبوبة الحماس ، وحتى إن لم تكن تحس شيئاً من ذلك أحياناً ، كان عليها أن تكون مشبوبة الحماس حتى لا تحبط آمال من يعرفون ذلك فيها ، وكانت الابتسامة المتحفظة التي تحوم دائما حول شفتيها ، وإن لم تكن مما يحسن مع ملامح وجهها الذاوية ؛ تفصح عن شعورها الدائم بهذا العيب الساحر فيها ، كأنها طفل مدلل ، وهو عيب لم تكن ترغب ، ولا تستطيع ، أن تصححه ، ولا ترى فى ذلك ضرورة ما .

وانفجرت آنا باڤلوڤنا ، فى وسط حديث عن السياسة :

— أوه لا تكلمنى عن النمسا ، لعلنى لا أفهم الأشياء ، لكن النمسا لم تكن ترغب الحرب أبداً ، ولا ترغبها الآن ، إن النمسا تخوننا . . ! وعلى روسيا وحدها أن تنقذ أوروبا . . ! إن عاهلنا المعظم يعرف رسالته ، وسوف يكون وفيا بها . هذا هو الشىء الوحيد الذى أومن به . . ! إن على عاهلنا

الصالح الرائع أن يقوم بأنبل دور على الأرض ، وهو من النبل والفضيلة فلن يتخلى عنه الله . سوف يفي برسالته ويسحق أفعى الثورة وقد استشرت ضراوتها في شخص ذلك الوغد السفاح ..! لزام علينا وحدنا أن نثأر لدم الصديق .. إنني أسألك . على من يوسعنا أن نعتمد ..؟ إن إنجلترا ، بروحها التجارية ، لن تفهم ، ولن تستطيع أن تفهم ما في روح الأمبراطور ألكسندر من تسام وسموق . فقد رفضت أن تجلو عن مالطة . كانت تحاول أن تعثر على حافز خفي وراء أعمالنا ، وما زالت تبحث عنه . وماذا تلقى نوفوسيتسيف من إجابة ؟ لاشيء . إن الانجليز لم يفهموا ولن يستطيعوا أن يفهموا تضحية إمبراطورنا وإيثاره ، فهو لا يريد شيئاً لنفسه ، بل يسعى إلى خير الإنسانية . وبم وعدوا ؟ لاشيء ..! والنذر اليسير الذي قطعوه على أنفسهم لن يفوا به ..! إن بروسيا كانت دائماً تعلن أن بونابرت لا يقهر ، وأن أوربا كلها لاحول لها أمامه . ولست أومن بكلمة مما يقول هاردنبرج ، ولا هوجفيتز . إن هذا الحياد البروسي الشهير ليس إلا خدعة . لست أومن إلا بالله ، وبالمصير السامي المقدور لمليكنا المعبود . إنه سوف ينقذ أوربا ..!

وكفت فجأة ، وهي تبتسم من جموح مشاعرها بها .

قال الأمير بابتسامة :

— أعتقد لو أنك أرسلت عوضاً من صديقنا العزيز وينتزينجرود ، لاستأثرت بقبول ملك بروسيا ، بالقوة . كم أنت فصيحة . أتسمحين لي بفنجان من الشاي ؟

— حالا ...

وأضافت ، وقد ثابت إلى الهدوء ثانية :

— على فكرة ، إنني انتظر الليلة ضيفين على قدر كبير من الأهمية . الفيكونت دي مورتمار ، وله قربى بآل مونتمورينسي ، عن طريق آل روهان ، وهم من أطيب العائلات الفرنسية . إنه أحد المهاجرين الحقيقيين ،

الذين لاغش فيهم . والأب موريو أيضاً . أتعرف ذلك المفكر العميق ؟ لقد استقبله الأمبراطور . أسمعت ؟

قال الأمير :

— يسرني أن ألقاها .

وأضاف ، بإهمال متدبر ، كما لو كانت الفكرة ، قد عبرت بذهنه في التو ، وإن كان السؤال الذى يوشك أن يلقيه هو الحافز الرئيسى وراء زيارته :

— ولكن قولي لي ، أصحيح أن الأمبراطورة الوالدة تريد أن يعين البارون فونكه سكرتيراً أول في ڤيينا ؟ يلوح أن هذا البارون مخلوق تعس .

كان الأمير ڤاسيلي يريد أن يحصل على هذا المنصب لابنه ، ولكن هناك آخرين يحاولون أن يظفر به البارون ، عن طريق الأمبراطورة الوالدة ماريا فيدورڤنا .

أسبلت آنا باڤلوڤنا عينيها حتى أوشكت أن تغمضهما ، لتومىء أنها لاهى ولا أى شخص آخر يحق له أن ينتقد ماترغب فيه الأمبراطورة ، أو مايروق لها .

وكان كل ماقالته ، بلهجة جافة ، كئيبة :

— أوصى بالبارون فونكه للأمبراطورة ، من أختها .

وعندما ذكرت آنا باڤلوڤنا اسم الأمبراطورة ، اتخذ وجهها فجأة تعبيراً عن الولاء والاحترام الوفي ، يخالطه الحزن ، وكان ذلك يقع لها كلما ذكرت مولاتها العظيمة . وأضافت أن جلالتها تنازلت فأولت البارون فونكه « كبير اعتبار » وخيم الحزن مرة أخرى على وجهها .

صمت الأمير وبدا عليه قلة الاهتمام . ولكن آنا باڤلوڤنا — بتلك الكياسة والبداهة النسوية المعهودة عنها ، والمألوفة في البلاط — كانت تريد

أن تعتب عليه (فقد جرؤ أن يقول ماقال عن رجل أوصى به للأمبراطورة) وأن تطيب من خاطره فى نفس الوقت ، فقالت :

— فلنتكلم الآن عن عائلتك. أتعرف أنه منذ خرجت ابنتك الى المجتمع ، أسرت قلوب الجميع . فهم يقولون أنها رائعة الجمال .

وانحنى الأمير ليعبر عن احترامه وامتنانه .

واستطردت بعد وقفة قصيرة ، وهى تقترب من الأمير وتبتسم له ملاطفة كأنما لتوعز أن النقاش فى المواضيع السياسية والاجتماعية قد انتهى، وجاءت لحظة الحديث الودى الحميم .

— كثيراً ما يخطر لى كم فى توزيع مسرات الحياة من حيد عن العدالة . لماذا أعطاك القدر مثل هذين الولدين الرائعين ؟ فلست أتكلم عن أناتول أصغر أولادك . إنه لايروق لى .

وأضافت بلهجة لايقبل معها أى تعقيب ، وهى ترفع حاجبيها :

— مثل هذين الولدين الساحرين! وأنت فى الحقيقة أقل الناس تقديراً لهما ، ولذلك فلست تستحقهما .

وابتسمت ابتسامتها النشوى .

فقال الأمير :

— لا حيلة لى فى ذلك . ولعل لا فاتر كان ليقول أننى أفتقر إلى غدة الأبوة .

— لا تمزح . فإن فى نيتى أن يكون لى معك حديث جدى . أتعرف أننى غير راضية عن ابنك الأصغر ؟ بينى وبينك (واتخذ وجهها تعبيره الأسيان) ذكر اسمه فى محضر صاحبة الجلالة ، فكنت أنت موضع الإشفاق .

لم يجب الأمير ، لكنها نظرت إليه نظرة لها دلالتها ، تنتظر منه الرد .

فعبس . وقال في النهاية :

— وماذا تريدينني أن أفعل ؟ أنت تعرفين أنني قمت بكل ما يوسع الآباء أن يقوموا به ، في سبيل تربيتهم . وها هما الآن غبيان . هيوليت ، على الأقل ، أحمق ، هادىء ، في حاله . أما أناتول فأحمق نشط فعال . هذا هو الفرق الوحيد بينهما .

قال ذلك بابتسامة طبيعية فيها من الحيوية أكثر من المعهود عنه . فكشفت الغضون حول فمه ، في وضوح ، شيئاً جافياً خشناً منفراً على غير انتظار .

وقالت آنا بافلوفنا وهي ترفع بصرها في تأمل :

— ولماذا يولد لمثلك من الرجال أولاد ؟ لو لم تكن أباً ما وجدت شيئاً أعتبه عليك .

— إنني عبدك المخلص ، ولك وحدك أعترف أن أولادي هم نكبة حياتي . إنه الصليب الذي عليّ أن أحمله . هذا ما أفسر به الأمر لنفسي . ولا حيلة في ذلك ..!

ولم يزد ، بل أومأ بإشارة من يديه إلى نزوله على حكم القدر القاسي .

وفكرت آنا بافلوفنا بتمعن وسألته :

— ألم تفكر أبداً في أن تزوج ابنك العاق أناتول ؟ يقولون أن للعوانس هوساً بتدبير الخطوبات . وعلى أنني لا أحس هذا الضعف عندي بعد ، فإنني أعرف فتاة صغيرة تعسة جداً مع أبيها . وهي إحدى ذوي قرباك ، الأميرة ماري بولكونسكايا .

لم يجب الأمير فاسيلي ، ولكنه أومأ بحركة من رأسه أنه يضع إلى هذا الخبر موضع الاعتبار ، بحضور بديهة وحسن إدراك يليقان برجل خبر الحياة .

وقال فى النهاية ، ومن الواضح أنه لا يستطيع أن يطامن من اندفاع أفكاره المؤلمة :

— أتعرفين أن أناتول يكلفنى أربعين ألف روبل فى العام ؟

واستطرد بعد وقفة قصيرة :

— وماذا يصبح هـذا المبلغ بعـد خمس سنوات ، إذا واصل ما هو بسبيله ؟

ثم قال على الفور :

— هذا ما يسود علينا ، نحن الآباء ... أغنية هى ، أميرتك هذه ؟

— أبوها غنى جداً وشحيح . يقيم فى الريف . هو الأمير بولكونسكى المعروف الذى اضطر للاستقالة من الجيش فى أيام الإمبراطور السابق ، وكان يلقب بملك بروسيا . وهو ذكى جداً لـكنه غريب ، وممل . والفتاة المسكينة شقية جداً ، ولهـا أخ أظنك تعرفه ، فقد تزوج ليزا ماينن أخيراً . أنه ياور من ياوران كوتوزوف . وسيأتى الليلة .

قال الأمير ، وهو يأخذ يدها فجأة ، ويجذبها إلى أسفل لسبب ما :

— اسمعى ياعزيزتى آنيت ، دبرى لى هذه المسألة ، وسأكون دوماً عبدك الوفىّ — عبدك الوفى ، بالتاء كما يكتب أحد شيوخ القرى عندى ، فى تقاريره . غنية ومن عائلة طيبة ، هذا كل ما أريد .

وبرشاقة سهلة ، وألفة يتميز بهما ، رفع يد وصيفة الشرف إلى شفتيه ، وقبلها ، وهزّها جيئة وذهوباً ، وقد استند إلى ظهر مقعده ينظر فى اتجاه آخر .

وقالت آنا بافلوفنا بتأمل :

— إنتظر . سأكلم ليزا ، زوجة بولـكونسكى الصغير ، هذه الليلة بالذات ، ولعل المسألة يمكن أن تسوى . فبالنيابة عن عائلتك إذن سوف أبدأ مرانى على حرفة العوانس .

الفصل الثانى

كانت قاعة استقبال آنا بافلوفنا تمتلىء بالتدريج . واجتمع هناك أرقى افراد المجتمع في بطرسبرج، ناس يتباينون في خلقهم وأعمارهم أشد التباين ، لكنهم يتشابهون في الدائرة الاجتماعية التي ينتمون إليها . وجاءت بنت الأمير فاسيلي ، هيلين ، رائعة الجمال ، لتصحب أباها إلى حفلة السفير . كانت ترتدي رداء للرقص ، وشارة وصيفة الشرف . وكانت هناك أيضاً الأميرة بولكونسكايا الصغيرة الشابة ، وقد عرفت بأنها أشد نساء بطرسبرج إغراء . كانت قد تزوجت في الشتاء السابق ، ولم تكن تذهب إلى الحفلات الكبيرة ، فقد كانت حاملا ، بل تظهر في السهرات الصغيرة فحسب . وجاء ابن الأمير فاسيلي ، هيبوليت ، مع مورتمار ، وتولى تقديمه . وجاء الأب موريو أيضاً ، وكثيرون غيره .

وكانت آنا بافلوفنا تقول لكل قادم جديد « ألم تر عمتي ؟ » أو « ألا تعرف عمتي ؟ » ثم تمضي به ، أو بها ، بكثير جداً من الرصانة والوقار ، إلى سيدة عجوز صغيرة القد ، تضع أقواساً عريضة من الشرائط في قبعتها . وكانت تأتي وهي تنساب في مشيتها من غرفة أخرى ، بمجرد أن يصل الضيوف ، ثم تدير آنا بافلوفنا عينها ببطء من الضيف إلى عمتها ، وتذكر اسمي كل منهما ، وتتركهما .

وكان كل ضيف يؤدي مراسم التحية لهذه العمة العجوز التي لم يكن أحد يعرفها ، ولا أحد يهتم بها . وكانت آنا بافلوفنا ترقب هذه التحيات باهتمام رصين حزين ، ورضاً صامت . وكانت العمة تحدث كلا من الضيوف بنفس الكلمات ، صحته وصحتها ، وصحة صاحبة الجلالة « وهي اليوم أحسن والحمد لله » .

وكان كل ضيف يترك العمة وقد خامره إحساس بالراحة — وإن كان أدبه يحول دون أن يبدى من ذلك شيئاً — لأنه قد أدى واجباً ثقيلا على النفس ، ثم لايعود إليها بقية الليلة بطولها .

كانت الأميرة بولكونسكايا الصغيرة قد أتت معها بشغل للإبرة فى حقيبة من المخمل موشاة بالذهب . وكانت شفتها العليا الحلوة الصغيرة ، وعليها زغب أسود رقيق لايكاد يلحظ ، أقصر من أسنانها ، لكنها كانت تفتر ، لذلك ، بعذوبة أكثر ، وكانت أشد فتنة عندما تضمها أحيانا إلى شفتها السفلى . وشأن النساء الآسرات الفتنة دائماً ، كان عيبها ، قصر شفتها العليا ، وفمها المفتر ، يبدو كأنه سحرها الخاص وسر جمالها الفريد . وكانت الوجوه جميعاً تتهلل وتضيء لمرأى هذه المرأة الحلوة الغضة السن ، وقد أوشكت أن تصبح أماً فى القريب العاجل ، زاكية بالحياة والصحة ، تحمل عبئها بهذه الخفة واليسر . وكان الشيوخ والشبان الذين ترين عليهم العتمة ولا روح فيهم ، بعد أن ينظروا إليها ، ويبقوا فى صحبتها قليلا ، ويتكلموا معها ، يشعرون أنهم يصبحون مثلها ، تزكو بهم الحياة والصحة . وكل من تكلم معها ، ورأى ، عند كل كلمة ، ابتسامتها المشرقة ، وومض أسنانها البيضاء الدائم ، يظن نفسه ذلك اليوم فى حال لطيفة من الود ، على نحو خاص .

ودارت الأميرة الصغيرة حول المائدة بخطوات سريعة قصيرة مهتزة ، وفى ذراعها حقيبة شغلها ، وبسطت رداءها حولها بمرح ، وجلست على أريكة على مقربة من الساموفار الفضى ، كما لو كان كل ماتفعل مدعاة بهجة لها ولكل من يحيط بها . وقالت بالفرنسية للحضور جميعا وهى تبدى حقيبتها :

— لقد أتيت بشغلى .

ثم أضافت وهى تلتفت إلى مضيفتها :

— خلّى بالك يا عمتى آنيت ، أرجو الا تكونى عملتها فىّ ، فقد كتبت أنها ستكون حفلة صغيرة جداً . وهأنت ترين أنى لبست أسوأ ماعندى .

ومدت ذراعيها مشيرة إلى ردائها الرمادى الأنيق الموشى بالدانتلا ، بخصره القصير المرتفع ، وقد دار به حزام عريض تحت الصدر مباشرة .

فأجابت آنا بافلوفنا :

— هدئى من روعك ياليز ، فأنت دائماً أجمل من الكلّ .

فقالت الأميرة ، بنفس النبرة ، بالفرنسية دائماً ، وهى تلتفت إلى جنرال بجانبها :

— أتعرف أن زوجى قد هجرنى ؟ وسيذهب ليموّت نفسه . ثم أضافت قائلة للأمير فاسيلى :

— قل لى ما سبب هذه الحرب الفظيعة ؟

ولم تنتظر رداً ، بل استدارت تكلم بنته ، هيلين الجميلة .

فقال الأمير فاسيلى لآنا بافلوفنا :

— يالها من امرأة مدهشة هذه الأميرة الصغيرة ..!

وكان أحد القادمين الجدد شاباً رَبْعة راسخ البنيان ، مجزوز الشعر ، بنظارات ، يرتدى البنطلون الفاتح اللون الذائع الزىّ فى تلك الأيام ، وجاكتة بنية ، وياقة مكشكشة عالية جداً . كان هذا الشاب الربعة ابناً غير شرعى للكونت بزوخوف ، أحد العلية المعروفين من أيام كاترين ، وهو الآن فى موسكو ، بسبيله إلى الموت . ولم يكن الشاب قد التحق بالخدمة العسكرية ولا بوظيفة مدنية ، فقد كان يعود للتو من الخارج حيث استكمل ثقافته ، وكانت تلك أول مرة يظهر فيها فى المجتمع . وحيّته آنا بافلوفنا بتلك الإيماءة من الرأس التى تبقيها لأدنى الدرجات الاجتماعية فى

قاعة استقبالها . وبالرغم من أدنى درجات التحية هذه ، فقد بدت في وجهها ، عندما رأت بيير يدخل ، نظرة قلق وخوف ، كما لو كانت رأت شيئاً أكبر وأشد تنافراً من أن يحتويه المكان . وعلى أنه كان بالتأكيد أضخم من غيره من الرجال في الغرفة ، إلا أن قلقها لم يكن ليعزى إلا إلى التعبير الذكي ، الطبيعي ، الفاحص ، على ما فيه من خجل ، ذلك التعبير الذي كان يميزه عن كل ما عداه في غرفة الاستقبال .

وقالت آنا بافلوفنا وهي وعمتها تترامقان بنظرة قلقة ، إذ تفضي به إليها :

— من كرمك حقاً يامسيو بيير أن أتيت تزور مريضة مسكينة مثلي .

فتمتم بيير بشيء لايستبين ، وظل ينظر حواليه كما لو كان يبحث عن شيء . وفي طريقه إلى العمة ، انحنى للأميرة الصغيرة وهو يبتسم ابتسامة سعيدة ، كما يبتسم المرء لأحد أصدقائه الحميمين .

وكان أن تحقق ما يبرر قلق آنا بافلوفنا . فقد استدار بيير عن العمة دون أن يسمع كلامها عن صحة صاحبة الجلالة ، وأوقفته آنا بافلوفنا ، في قنوط فزع ، وهي تقول :

— أتعرف الأب موريو ؟ إنه رجل مثير جداً للاهتمام .

— نعم . سمعت عن مشروعه للسلام الدائم ، وهو مثير جداً للاهتمام . ولكنه لا يمكن أن يتحقق .

فقالت آنا بافلوفنا ، لمجرد أن تقول شيئاً ، وتمضي تؤدي واجباتها كمضيفة :

— أتظن ذلك ؟

ولكن بيير اقترف الآن فعلة عكسية من سوء الأدب . فقد بارح أولاً سيدة قبل أن تكمل ماهي قائلة له ، ولكنه الآن واصل الحديث مع سيدة تريد أن تتركه . وبدأ يشرح مايدعوه للظن بأن مشروع الأب مشروع

وهمى ، وقد أحنى رأسه ، وبسط ما بين قدميه الضخمتين .

فقالت آنا بافلوفنا بابتسامة :

— سنتكلم فى ذلك فيما بعد .

وبعد أن خلصت من هذا الشاب الذى لا يعرف كيف يسلك السلوك الصحيح ، استأنفت واجباتها كمضيفة ، تصغى وترقب ، على أهبة الاستعداد للعون عند أية نقطة يبدو فيها أن الحديث قد أصابه الوهن . كرئيس عمال فى مصنع للغزل، عقد أمره وبدأ العمل . يدور دون أن يغفل شيئاً ، يراعى هنا مغزلا قد توقف ، وهناك مغزلا يقرقع أو تنبعث منه أصوات أعلى مما ينبغى ، ويسرع فيفحص الآلة أو يضبط حركتها ، كذلك كانت آنا بافلوفنا تدور فى قاعة استقبالها ، تقترب الآن من جماعة ران عليها الصمت ، ثم من جماعة ارتفع منها الصخب ، فتبقى على آلة الأحاديث ، بكلمة أو تسوية طفيفة ، فإذا هى بحركتها متزنة ، مضبوطة ، منتظمة . ولكن قلقها بشأن بيير كان واضحاً ، فى وسط مشاغلها هذه . وظلت ترقبه بقلق ، وهو يقترب من الجماعة المحيطة بمورتمار ، ليصغى إلى مايقال هناك ، وعندما انتقل إلى جماعة أخرى مركزها الأب موريو .

كان بيير قد تلقى تعليمه بالخارج ، وكانت هذه الحفلة عند آنا بافلوفنا أول حفلة يشهدها فى روسيا . وكان يعرف أن كل لوامع المثقفين فى بطرسبرج قد اجتمعت هنا ، ولم يكن ليدرى أنى يتجه ، كطفل فى حانوت اللعب ، وقد خشى أن يفوته شىء من الحديث الشائق الذى يدور . وكان عند ما يرى التعبير الراقى المعتد بنفسه، على وجوه الحضور ، ينتظر دائماً أن يسمع شيئاً عميقاً جداً . وأخيراً وصل إلى الأب موريو . كان الحديث فيما يبدو عائقاً ، فوقف ينتظر فرصة يتاح له فيها أن يبدى آراءه ، فذلك ما يهواه الشبان .

الفصل الثالث

كانت حفلة آنا بافلوفنا في عنفوانها ، وكانت المغازل تدوى في طنين ثابت مطرد لا يكف ، من كل ناحية . وكان الحضور جميعا قد توزعوا الآن ثلاث جماعات ، باستثناء العمة التي جلست بصحبتها سيدة واحدة ، تجنح إلى الشيخوخة ، كان وجهها المنحوف الذي أبلته الهموم يوشك أن يكون في غير موضعه ، في هذه الجماعة الوضاءة المتألقة ، وقد تكونت إحدى الجماعات ، وجلها من الرجال ، حول الأب ، وتجمعت الثانية وتتكون من الشبان ، حول الأميرة الجميلة هيلين بنت الأمير فاسيلي ، والأميرة بولكونسكايا ، وهي حلوة جداً موردة ، وإن كانت أميل إلى البضوضة والامتلاء في سنها . أما الجماعة الثالثة فقد تحلقت حول مورتمار وآنا بافلوفنا .

كان الفيكونت شاباً حسن المظهر ، ناعم القسمات ، مصقول السلوك ، ومن الواضح أنه يرى نفسه شخصاً شهيراً ولكنه ، من تواضعه ، يضع نفسه تحت تصرف الدائرة التي وجد نفسه فيها . وكان من الواضح أن آنا بافلوفنا تقدمه لضيوفها ، كما لو كان شيئاً خاصاً ممتازاً . وكما يقدم « الميتردوتيل » قطعة من اللحم إذا رآها شخص في المطبخ فلن يعني بها ، لكنه يقدمها كما لو كانت صنفاً مترفاً ممتازاً ، كذلك كانت تقدم آنا بافلوفنا الفيكونت أولا ثم الأب ، كما لو كانا قطعتين منتقاتين من اللحم . وبدأت الجماعة التي تحيط بمورتمار ، على الفور ، تتحدث في مصرع الدوق دنجين . وقال الفيكونت أن الدوق لقي حتفه نتيجة لكرم نفسه وأن هناك أسباباً خاصة لحقد بونابرت عليه .

فقالت آنا بافلوفنا ، وهي تستشعر إحساساً بهيجاً بأن هناك شيئاً على أسلوب عصر لويس الخامس عشر في تلك الجملة :

— نعم ، نعم . قل لنا كل شيء عن ذلك يافيكونت .

فانحنى الفيكونت ، وابتسم ابتسامة مجاملة ، تعبيراً عن استعداده لتلبية الرجاء ، وقامت آنا بافلوفنا بتنظيم جماعة من ضيوفها حوله ، وهي تدعو الجميع إلى سماع حكايته .

وهمست آنا بافلوفنا إلى أحد ضيوفها :

— الفيكونت يعرف الدوق شخصياً .

وقالت لآخر :

— الفيكونت قصاص مدهش .

وقالت لثالث :

— كم من الواضح أنه ينتمي الى أرقى مجتمع .

وقُدِّم الفيكونت للحاضرين على أفضل الأساليب وأكثرها امتيازاً ، كشريحة من الشواء ، مطيبة أحسن تطييب ، في طبق ساخن .

وهم الفيكونت بأن يبدأ حكايته ، وابتسم ابتسامة لطيفه مرهفة .

وقالت آنا بافلوفنا للأميرة الجميلة الصغيرة التي كانت تجلس على مبعدة شيئاً ما ، في مركز جماعة أخرى :

— تعالى هنا ياعزيزتي هيلين .

وابتسمت الأميرة . ونهضت ، بنفس الابتسامة التي دخلت بها في الغرفة أولا ، دون تغير ، ابتسامة امرأة كاملة الجمال . ومرت ، في حفيف هين من ردائها الأبيض المذيل بوشي على شكل العليق والطحلب ، تومض كتفاها البيضاوان ، وشعرها الصقيل الفاحم ، وجواهرها المتلألئة ، بين الرجال الذين افسحوا لها السبيل ، لا تنظر إلى أيهم ، ولكنها تبتسم للجميع ، كما لو كانت قد تكرمت فأتاحت لكل منهم حظ الاعجاب بقوامها الرائع وقسامة كتفيها ، وظهرها ، وصدرها ، وقد كان مكشوفاً جداً على زي تلك الأيام . ولاح كأنها تأتي معها بروعة قاعة الرقص . إذ تتحرك

صوب آنا بافلوفنا . كانت هيلين من روعة الجمال حتى لم تكن تبدى أثراً للدلال ، بل كانت على العكس تبدو خجلة من جمالها الذى لا ينكر . ولا يقهر . حتى كأنها تريد ، وإن لم تستطع ، أن تقلل من أثره .

قال كل من رآها :

— ما أجملها . . . !

ورفع الفيكونت كتفيه وأسبل عينيه كما لو كان قد روعه شيء خارق ، عندما اتخذت مجلسها فى مواجهته ، وسطعت عليه . أيضاً ، ابتسامتها التى لا تتغير .

وقال وهو يحنى رأسه :

— سيدتى ، لاثقة لى بمقدرتى ، أمام مثل هؤلاء المستمعين .

أراحت الأميرة ذراعها الصغيرة المدملجة على مائدة صغيرة . ولم تر ضرورة للرد . وانتظرت بابتسامة . وجلست ، طيلة الفترة التى كانت تقال أثناءها الحكاية ، قائمة العود ، ترمق الآن ذراعها الصغيرة المدورة ، وقد تغير شكلها من ضغطها على المائدة ، ثم ترمق صدرها الأروع جمالا ، وهى تسوى فوقه عقداً من الماس ، وتسوى بين الحين والحين طيات ردائها . وكلما أتت الحكاية بأثر فعال ، رمقت آنا بافلوفنا ، واتخذت على الفور ماتراه من تعبير على وجه وصيفة الشرف ، ثم ثابت إلى ابتسامتها .

وكانت الأميرة الصغيرة قد بارحت مائدة الشاى أيضاً ، وتبعت هيلين

— انتظروا لحظة . . سآتى بشغلى .

واستطردت تقول للأمير هيپوليت :

— هيه ... فيم تفكر ؟ إيت لى بحقيبة شغلى .

وقامت حركة عامة عند ما جلست الأميرة ، تبتسم وتتحدث فى مرح إلى الجميع دفعة واحدة ، ثم سوت نفسها ، فى مقعدها .

وأتى الأمير هيپوليت بالحقيبة ، ولحق بالجماعة . لحرك كرسياً بالقرب

منها وجلس بجانبها .

كان « هيوليت الجذاب » مدهشاً في شبهه الغريب بأخته الجميلة ، وإن كان المدهش حقاً إنه على الرغم من هذا الشبه كان شديد القبح . كانت قسماته كقسمات أخته ، أما هي فكانت كل قسماتها تضيء بابتسامة دائمة تفيض بالحياة ، والشباب ، والبهجة ، والرضا عن النفس ، وبجمال قوامها الكلاسيكي ، لكن وجهه على العكس يخيم عليه اربداد الغباء ، وتعبير دائم عن جهامة الثقة بالنفس ، وكان جسمه هزيلا ضعيفاً . وتبدو عيناه وأنفه وفمه جميعاً مزمومة في قطوب مرهق خاو ، وتتخذ ذراعاه وساقاه ، دائماً ، أوضاعاً غير طبيعية .

قال وهو يجلس بجانب الأمير ويسوى عوينته في هرولة ، كما لو لم يكن يستطيع الكلام دون الاستعانة بهذه الأداة :

— هذه ليست حكاية أشباح ؟

فقال القصاص ، بدهشة ، وهو يهز كتفيه :

— لا أبداً يا عزيزي .

فقال الأمير هيبوليت :

— لأنني أمقت حكايات الأشباح .

بلهجة تنم عن أنه وحده يفهم معنى كلماته ، بعد أن يقولها .

كان يتكلم باعتداد يبلغ أن لا يعرف معه مستمعوه ما إذا كان قد قال شيئاً بارع الذكاء ، أو بالغ السفاهة . وكان يرتدي جاكتة داكنة الخضرة ، وبنطلوناً في لون «فخذ حورية مفزعة» كما يقول ، وحذاء وجوارب من الحرير .

وقص الفيكونت حكايته بأناقة ودقة . وكانت حكاية طريفة ، شائقة في ذلك الحين ، عن أن الدون دنجين ذهب خفية إلى باريس يزور المدموازيل جورج ، فوقع في بيتها على بونابرت ، وقد كان يحظى أيضاً

بعطف الممثلة الذائعة الصيت ، وأن نابليون حدث له أن أصيب ، فى حضوره ، بإحدى نوبات الإغماء التى كان يتعرض لها ، ومن ثم ، وقع تحت رحمة الدوق . لكنه أبقى على حياته ، هذا الكرم الذى جازاه نابليون عنه ، بعد ذلك ، بالموت .

وكانت الحكاية شائقة جداً وحلوة ، وبخاصة فى النقطه التى يتعرف فيها الخصمان فجأة أحدهما على الآخر ، حيث بدا على السيدات عندئذ الاضطراب والانفعال .

قالت آنا بافلوفنا ، وهى ترمق الأميرة الصغيرة بنظرة متسائلة :

— رائع ... !

فهمست الأميرة الصغيرة ، وهى تعرز إبرتها فى الشغل ، كما لتشهد على أن اهتمامها وافتتانها بالقصة قد حال دونها ومواصلة الشغل :

— رائع ... !

وأبدى الفيكونت تقديره لهذا الثناء الصامت ، وأخذ أهبته ، بامتنان ، لمواصلة حكايته . ولكن آنا بافلوفنا ، وقد كانت تراعى الشاب الذى كان يبعث فيها أشد القلق ، لاحظت عندئذ أنه يتكلم بصوت أكثر ارتفاعاً وأشد صخباً مما ينبغى ، مع الأب . فأسرعت لنجدته . كان بيير قد وفق فى أن يبدأ حديثاً مع الأب عن ميزان القوى . وكان من الواضح أن الأب قد أثار اهتمامه حماس الشاب ، على سذاجته ، فأخذ يشرح نظريته الحبيبة . كانا يتناقشان ، كلاهما ، ويصغيان إلى أحدهما الآخر ، بشغف وبشكل طبيعى أكثر مما ينبغى ، وهو ما لم تكن لتقبله آنا بافلوفنا .

كان الأب يقول :

— أن الوسائل هى ... ميزان القوى فى أوربا ، وحقوق الشعب . فلا ضرورة لأكثر من أن تقوم أمة قوية مثل روسيا ، مهما قيل عن أنها بربرية ... ، فتضع نفسها ، دون غرض ، على رأس حلف يستهدف

الإبقاء على ميزان القوى فى أوربا — فتنقذ العالم ...!

فبدأ بيير يقول :

— ولكن كيف تستطيع أن تحصل على هذا الميزان ؟

فى تلك اللحظة أقبلت آنا بافلوفنا ، فنظرت إلى بيير بصرامة، وسألت ضيفها الإيطالى كيف كان يطيق جو روسيا. فتغير وجه الإيطالى على الفور واتخذ مظهراً محلى ، مصنوعاً ، عدوانياً ، واضح أنه مألوف إليه عند ما يتحدث مع النساء . وقال :

— لقد سحرنى التماع الذكاء والثقافة فى المجتمع النسائى الذى كان لى شرف أن ادعى إليه ، بصفة خاصة ، حتى لم يتح لى الوقت أن أفكر فى الجو .

فلم تدعهما آنا بافلوفنا يفلتان ، وأتت بهما إلى الدائرة الكبيرة ، حتى تبقيهما تحت المراقبة بشكل أنسب .

الفصل الرابع

في تلك اللحظة دخل إلى غرفة الاستقبال ، زائر آخر ، الأمير أندرو بولكونسكي ، زوج الأميرة الصغيرة . كان رجلا وسيما جداً ، متوسط القامة ، قسماته حاسمة ، محددة الخطوط . كان كل شيء فيه ، من التعبير المرهق الضجر على وجهه ، إلى خطواته الهادئة المحسوبة بحساب ، يناقض زوجته الصغيرة الزاخرة بالحيوية ، تناقضا يسترعي النظر . وكان واضحاً أنه لا يعرف فحسب كل من في غرفة الاستقبال ، بل أنه كان يجدهم مملين حتى ليضجره أن ينظر إليهم أو يسمع منهم . ومن بين كل هذه الوجوه التي يجدها مدعاة لكل هذا السأم ، لم يكن هناك أشد إملالاً من وجه زوجته الحلوة . فعزف عنها ، وعلى وجهه قطوب شوّه من قسمات وجهه الوسيم ، وقبل يد آنا بافلوفنا ، وأثار عينيه يتفحص الحضور جميعاً .

قالت آنا بافلوفنا :

— ذاهب أنت للحرب أيها الأمير ؟

فقال بولكونسكى :

— كان مما راق للجنرال كوتوزوف أن يأخذنى ياوراً عنده .

بالفرنسية ، وهو يضغط المقطع الأخير من اسم الجنرال كوتوزوف ، كما يفعل الفرنسيون .

— وليز ، زوجتك ؟

— ستذهب للريف .

— ألا يخجلك أن تحرمنا من زوجتك الساحرة ؟

فقالت له زوجته ، بنفس الطريقة الغزلة التى تكلم بها غيره من الرجال:

— أندريه ، كان الفيكونت يحكى لنا حكاية مدهشة عن المدموازيل جورج ، وبونابرت .

فزم الأمير أندرو عينيه ، والتفت عنها . أما بيير فقد كان منذ اللحظة التى دخل فيها الأمير أندرو الغرفة يرقبه بعينين زاخرتين بالحب والسرور ، فأقبل الآن عليه وأخذ ذراعه . وكان الأمير أندرو قد عبس ثانية ، قبل أن يلتفت ، مبدياً ضيقه بأى كان ذلك الذى مس ذراعه . لكنه لما رأى وجه بيير الوضىء ، ابتسم له ابتسامة لم يكن منتظراً منها أن تكون بهذا الود والسرور . وقال لبيير :

— هيه ..! فأنت إذن فى المجتمع الراقى ؟

وأجاب بيير :

— كنت أعرف أنك ستكون هنا . سآتى أتعشى معك . تسمح لى ؟

بصوت خفيض حتى لا يكرب الفيكونت الذى كان يستكمل قصته .

فقال الأمير أندرو :

— لا ، مستحيل ..!

وهو يضحك ويضغط ذراع پيير ، ليبدى له أن لم تكن حاجة للسؤال وكان على وشك أن يضيف شيئاً ، ولكن الأمير ڤاسيلى وبنته نهضا ، استعداداً للرحيل ، فى تلك اللحظة . ونهض الأمير أندرو وپيير ليفسحا لهما السبيل .

وقال الأمير ڤاسيلى :

— يجب أن أستميحك معذرة ، يا عزيزى الڤيكونت .

وهو يمسكه من كمه ، فى مودة ، ليحول دونه والنهوض .

— إن هذه الحفلة عند السفير تحرمنى لسوء الحظ من سرور كبير ، وترغمنى أن أقطع عليك حديثك .

واستدار إلى آنا باڤلوڤنا :

— يؤسفنى جداً أن ترك حفلتك الساحرة هذه .

ومرت بنته ، الأميرة هيلين ، بين الكراسى ، وهى تمسك طيات ردائها بخفة ، والابتسامة يزداد سطوعها على وجهها الجميل . وحدق إليها پيير ، وهى تمر به ، بعينين والهتين توشكان أن تكونا خائفتين .

قال الأمير أندرو :

— جميلة جداً .

قال پيير :

— جداً .

وأمسك الأمير ڤاسيلى عند مروره بيد پيير وقال لآنا باڤلوڤنا :

— علمى هذا الدب من أجلى ..! لقد بقى معى شهراً بطوله ، وهذه هى المرة الأولى التى أراه فيها فى المجتمع . لا شىء أكثر ضرورة للشاب من مجتمع النساء الذكيات .

فابتسمت آنا باڤلوڤنا ، ووعدت أن تأخذ پيير بين يديها . كانت تعرف أن أباه من أقرباء الأمير ڤاسيلى . ونهضت السيدة الكبيرة السن التى كانت

تجلس إلى العمة العجوز ، فى تعجل ، ولحقت بالأمير ڤاسيلى فى الردهة . وبارح وجهها العطوف ، الذى أبلته الدموع ، كل ما كانت قد اتخذته من مظهر الاهتمام ، فلم يعد ينم الآن إلا عن القلق والخوف . وقالت وهى تهرول خلفه فى الردهة :

— وماذا عن ابنى بوريس ، أيها الأمير ؟ لست أستطيع البقاء فى بطرسبرج بعد الآن . قل لى ماذا أحمل من أنباء إلى ابنى المسكين .

وعلى أن الأمير ڤاسيلى كان يصغى إليها ، فى غير رضا ، بل فى غير كبير أدب ، ويوشك أن يبدى شيئاً من نفاد الصبر ، فقد ابتسمت له ابتسامة ضارعة تستميح العطف ، وأخذت يده حتى لا يذهب ويتركها . وقالت :

— ماذا يكلفك أن تقول كلمة للامبراطور ، فينقل للحرس على الفور ؟

فأجاب الأمير ڤاسيلى :

— صدقينى أيتها الأميرة ، إنى على استعداد لأن أفعل كل مافى وسعى . ولكن من الصعب على أن أسأل الامبراطور ذلك . إنى أنصحك أن تقدمى التماساً الى رومیانتسيف ، بوساطة الأمير جوليتسين . هذه أفضل وسيلة .

كانت السيدة التى تجنح للشيخوخة شيئاً أميرة تدعى الأميرة دروبيتسكايا . تنتمى إلى واحدة من أعرق عائلات روسيا ، ولكنها كانت فقيرة ، وكانت قد غابت فترة طويلة عن المجتمعات ، ففقدت اتصالاتها السابقة الكبيرة النفوذ . وجاءت الآن إلى بطرسبرج ، لتحصل على وظيفة ، فى الحرس ، لابنها الوحيد . بل كانت قد حصلت على دعوة لحفلة آنا باڤلوڤنا ، وجلست تستمع لحكاية الڤيكونت ، لا لغرض فى الحقيقة إلا لتلتقى بالأمير ڤاسيلى . وأخافتها كلمات الأمير ڤاسيلى . وخيمت على وجهها الذى كان وسيماً فى يوم ما ، نظرة تشى بالمرارة ، وإن كان ذلك لحظة واحدة . ثم ابتسمت مرة أخرى ،

وازدادت قبضتها على ذراع الأمير فاسيلى شدة ، وقالت :

— اصغ إلىّ أيها الأمير ، إننى لم أسألك حتى الآن شيئاً أبداً ، ولن أسألك أبداً شيئاً بعد الآن ، ولا ذكرتك بصداقة أبى لك . ولكن الآن أضرع إليك ، وحياة ربنا ، أن تفعل ذلك من أجل ابنى — ولن أنسى لك أبداً هذا المعروف .

ثم أضافت متعجلة :

— لا ، لا تغضب ، بل عدنى أن تفعل ! فقد سألت جوليتسين ، ورفض .

وقالت وهى تحاول أن تبتسم ، والدموع فى عينيها :

— فلتكن الرجل الكريم القلب الذى كنته دائماً .

قالت الأميرة هيلين ، وهى تدير رأسها الجميل وتنظر من فوق كتفيها بقالبهما الكلاسيكى ، واقفة بالانتظار عند الباب :

— بابا ، سنتأخر .

إلا أن النفوذ فى المجتمع رأسمال ينبغى الإنفاق منه فى قصد وتدبر ، إذا أريد له البقاء . وكان الأمير فاسيلى يعرف ذلك ، وتحقق أنه لو تقدم بالرجاء يطلب الخدمات بالنيابة عن كل من يطلبون منه ، لما وسعه وشيكا أن يطلب لنفسه شيئاً ، فأصبح يتقى أن يفيد من نفوذه إلا فى حيطة . ولكنه كان يحس ، فى حالة الأميرة دروبيتسكايا ، وبعد أن ضرعت إليه للمرة الثانية ، شيئاً كوخز الضمير . فقد ذكرته بما كان ، بالفعل ، حقاً .. كان مديناً لأبيها بخطواته الأولى فى حياته العملية . فضلا عن أنه كان يرى ، من سلوكها ، أنها إحدى هاته النساء — ومعظمهن أمهات — اللاتى إذا قرّ قرارهن على شىء ، فلن يجدن راحة إلا إذا تحقق لهن غرضهن ، وهن على استعداد ، إذا اقتضى الأمر ، أن يمضين فى الإلحاح والملاحقة ، يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، بل أن يثرن فضيحة . فحركه هذا الاعتبار الأخير .

وقال بألفته المعهودة ، ونبرته المرهقة :

ـــ يا عزيزتي آناميخايلوفنا ، يكاد يكون من المستحيل عليّ أن أفعل ما تطلبين . ولكني لأبرهن على ولائي لك ، واحترامي لذكرى أبيك ، سأفعل المستحيل .. سينتقل إبنك إلى الحرس وهاهي يديّ عهداً بذلك . راضيةً أنتِ ؟

ـــ يا وليّ نعمتي العزيز ..! هذا ما كنت أنتظره منك.. إنني أعرف كرم خلقك ..!

فاستدار ليمضي .

ولكنها قالت ، وهي تتعثر في القول :

ـــ انتظر ، كلمة واحدة ..! عند ما ينقل إلى الحرس ... أنت حسن الصلة بميشيل إلاريونوفيتش كوتوزوف . وصّ على بوريس عنده ليصبح ملازماً .. عندئذ أستريح .. عندئذ ...

فابتسم الأمير فاسيلي :

ـــ لا ، لن أعد بذلك . أنت لا تعرفين كم يلقى كوتوزوف من مضايقات منذ أن عين قائداً عاماً . لقد قال لي بنفسه أن كل سيدات موسكو تآمرن عليه ليعطيه كل أبنائهن ملازمين عنده في القيادة .

ـــ لا .. بل عدني ..! لن أدعك تمضي ..! يا وليّ نعمتي العزيز ..

قالت ابنته الجميلة ، بنفس نبرة الصوت السابقة :

ـــ بابا ، سنتأخر .

ـــ أوريفوار إذن ..! إلى اللقاء ! أتسمعينها ؟

ـــ ستكلم الامبراطور إذن غداً ؟

ـــ بالتأكيد . أما عن كوتوزوف فلا أعد بشيء .

فصاحت آنا ميخايلوفنا ، وهو يمضي ، بابتسامة بنتٍ غزلة لعلها كانت تأتيها ، في يوم ما ، طبيعية موائمة ، لكنها الآن لا تحسن أبداً على وجهها

الذى أرهقته الهموم :

ـ عدنى بذلك ، عدنى يافاسيلى ..!

فيبدو أنها نسيت سنها . وكانت تفيد ، بحكم العادة ، من كل حيلها النسوية القديمة . ولكن ما أن مضى الأمير حتى ثاب وجهها إلى تعبيره السابق المتكلف المصنوع. وعادت إلى الجماعة التى كان الڤيكونت مازال يتكلم فيها ، وعادت تتظاهر بأنها تصغى للكلام ، حتى يحين وقت الذهاب . كانت قد أدت مهمتها .

الفصل الخامس

سألت آنا بافلوفنا :

— ومارأيك فى هذه المهزلة الأخيرة، هذا التتويج فى ميلانو؟ ومهزلة سكان جنوا ولوكا ، وهم يقدمون التماساتهم إلى المسيو بونابرت ، والمسيو بونابرت جالس على عرش ، ينظر فى التماسات الشعوب ؟ شيء ساحر ..! فيه مايكفى لأن تدور رأس المرء ..! كما لو كان العالم كله قد جن جنونه .

نظر الأمير أندور إلى آنا بافلوفنا ، مواجهة فى عينيها ، بابتسامة ساخرة .

وقال بالفرنسية :

— هذا ما أعطانيه الله . فحذار أن يمسه أحد .. ! يقولون أنه كان جليلا جداً عندما قالها .

ثم كرر العبارة بالإيطالية .

واستطردت آنا بافلوفنا :

— أرجو أن تكون تلك هى القطرة الأخيرة التى يفيض بها الكأس . لن يستطيع الملوك أن يطيقوا هذا الرجل الذى يهدد كل شيء .

فقال الفيكونت ، مؤدباً ، يائساً :

— الملوك ؟ لست أتكلم عن روسيا . ولكن الملوك ، ياسيدتي . . . ماذا فعلوا للويس السابع عشر ، للملكة ، أو لمدام إليزابيث ؟ لاشيء . . !

ثم زاد انفعاله :

— وصدقيني . إنهم يحصدون ثمرة خيانتهم لقضية آل بوربون . الملوك . . ! بل إنهم يبعثون بالسفراء لمجاملة الغاصب .

وتنهد في تعال وازدراء ، وغير موضعه مرة أخرى .

كان الأمير هيبوليت يحدق إلى الفيكونت ، منذ برهة ، خلال عوينته . واستدار فجأة ، بكل جسمه إلى الأميرة الصغيرة ، وطلب منها إبرة ، وأخذ يرسم شارة كونديه على المائدة . وشرح لها مايفعل ، برصانة وحد ، كما لو كانت قد سألته أن يفعل ، وقال بالفرنسية :

— عصا الأفواه ، موشاة بأفواه زرقاء . . . بيت كونديه[1] .

وأصغت إليه الأميرة باسمة .

واستطرد الفيكونت ، بمظهر من يعرف أمراً خيراً من أي شخص آخر ، فهو لايسمع إلى مايقوله الآخرون ، بل يتابع مجرى أفكاره وحده :

— لو أن بونابرت بقي على عرش فرنسا عاماً آخر ، لشطت الأمور جداً . ولقضى إلى الأبد على المجتمع الفرنسي ، أعني المجتمع الفرنسي الراقي ، بالمؤامرات ، والعنف ، والنفي ، وأحكام الإعدام . وعندئذ . . .

هز كتفيه وبسط يديه . وهم بيير أن يدلي بملاحظة ، فقد كان الحديث يهمه ويشوقه . ولكن آنا بافلوفنا كانت ترقبه ، فقاطعته .

وقالت ، بالكآبة التي تأتيها دائماً مع كل إشارة منها إلى العائلة

---

(١) هراء تصعب ترجمته جداً ، بهم ، كسائر مايقول هيبوليت ويفعل ، عن عائلة المطلق . أما شارة كونديه فهي : الذهب في شريط مرسوم به أفواه حيوانات . كما كان الشأن غالباً في شارات البيوت الأرستقراطية القديمة . (المترجم)

الأمبراطورية :

— أعلن الأمبراطور ألكسندر أنه سيترك للشعب الفرنسي نفسه أن يختار شكل حكومته . وأنا أعتقد أنه ما أن تتحرر الأمة الفرسية من الغاصب ، حتى تلقي بنفسها في ذراعي ملكها الشرعي .

وهي تحاول أن تجامل المهاجر نصير الملكية .

قال الأمير أندرو :

— هذا شيء قابل للشك . فالسيد الڤيكونت يفترض ، وهو محق تماما ، أن الأمور من الآن قد شطت جداً . وأظن أنه يصعب الرجوع إلى النظام القديم .

قال پيير يقتحم الحديث ، وقد تضرج وجهه :

— إن الأرستقراطية كلها تقريباً ، كما سمعت ، ذهبت إلى جانب بونابرت .

فأجاب الڤيكونت دون أن ينظر إلى پيير :

— هذا مايقوله أنصار بونابرت . ويصعب في الوقت الراهن أن نعرف الموقف الحقيقي للرأي العام الفرنسي .

فقال الأمير أندرو بابتسامة ساخرة :

— هذا ماقاله بونابرت .

كان من الواضح أنه لا يحب الڤيكونت ، وأنه كان يسدد إليه ملاحظاته ، وإن كان لاينظر إليه .

واستطرد الأمير أندرو ، بعد صمت وجيز ، يكرر كلمات نابليون :

— « أريتهم طريق المجد ، فلم يسلكوه ، وفتحت ردهات استقبالي ، فتزاحموا إليها » . لست أدري إلى أي مدى يحق له أن يقول ذلك .

فأجاب الڤيكونت :

— لاحق له إطلاقا في أن يقوله . فبعد مقتل الدوق كف أكثر أنصاره

تحيزاً عن أن يروا فيه بطلا .

واستطرد ملتفتاً إلى آنا بافلوفنا :

— وإن كان بطلا . فى يوم ما ، فى أعين بعض الناس ، فبعد مقتل الدوق زاد عدد الشهداء واحداً فى السماء ، وقل عدد الأبطال واحداً فى الأرض .

وقبل أن يتاح لآنا بافلوفنا ، والآخرين ، أن يتسموا تقديراً الكلمة الفيكونت البارعة ، اقتحم بيير الحديث مرة أخرى ، ولم يكن يوسع آنا بافلوفنا أن توقفه ، على أنها كانت موقنة أنه سيقول شيئا غير لائق .

وأعلن المسيو بيير :

— إن إعدام الدوق دنجين كان ضرورة سياسية . ويبدو لى أن نابليون برهن على عظمته الروحية بأن لم يخش احتمال عبء كل المسئولية ، بنفسه ، عن ذلك العمل .

فتمتمت آنا بافلوفنا ، فى همسة مروعة :

— يا إلهى .. ! يا إلهى .. !

وقالت الأميرة الصغيرة باسمة وهى تقرب شغلها إليها :

— ماذا يامسيو بيير ... أترى أن الاغتيال يبرهن على عظمة الروح؟

وتهاتفت أصوات عدة :

— أوه ..! أوه ..!

وقال الأمير هيبوليت بالانجليزية :

— عظيم ..!

وأخذ يضرب ركبته بصفحة يده .

لم يفعل الفيكونت الا أن هز كتفيه . ونظر بيير ، نظرة جادة ، إلى مستمعيه . من فوق نظاراته . وواصل حديثه ، باستماتة :

— إنما أقول ذلك لأن آل بوربون فروا من الثورة،وتركوا الشعب

للفوضى . ونابليون وحده هو الذى فهم الثورة ، وأخذها ، ومن ثم لم يكن بوسعه ، فى سبيل الصالح العام ، أن يتوقف من أجل حياة فرد واحد.

فاقترحت آنا بافلوفنا :

— ألا تتفضل على المائدة الأخرى ؟

أما پيير فقد واصل حديثه ، دون أن يلق إليها بالا . وهتف وقد تزايد حماسه :

— لا . نابليون عظيم لأنه قام فتفوق على الثورة ، وقضى على سيئاتها ، واحتفظ بكل ما هو خير فيها — المساواة بين المواطنين ، وحرية الكلام والصحافة — ولهذا السبب وحده حصل على السلطة .

فقال الفيكونت :

— نعم . فلو أنه حصل على السلطة ، دون أن يفيد منها ليقترف جريمة القتل ، ثم أعادها إلى الملك الشرعى ، لاسميته رجلا عظيما .

فاستطرد مسيو پيير :

— لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك فلم يعطه الشعب السلطة إلا ليخلصه من آل بوربون ، ولأنه رأى فيه رجلا عظيما . كانت الثورة شيئا جليلا .!

فكشف ، بهذا القول المستميت المستفز ، عن حداثة سنه جداً ، وعن رغبته فى أن يفصح عن كل ما يجول بخاطره .

فعادت آنا بافلوفنا تقول :

— ماذا . . ؟ وقتل الملوك شيء جليل ؟ . . وبعد . . ؟ ألا تتفضل على هذه المائدة الأخرى ؟

وقال الفيكونت بابتسامة تسامح :

— روسو ، والعقد الاجتماعى .

— لست أتكلم عن قتل الملوك . إنما أتكلم عن الآراء

فتدخل ، ثانية ، صوت ساخر :

— نعم : أفكار السلب ، والاغتيال ، وقتل الملوك .

— ذلك بلا شك كان تطرفاً . لكنه ليس أهم شيء . المهم هو حقوق الانسان ، والتحرر من الخرافات والتعصبات ، والمساواة بين المواطنين ، وكل تلك الحقوق التي احتفظ بها نابليون سارية بكل قوتها .

فقال الفيكونت باحتقار ، كأنما قد استقر عزمه أخيراً على أن يبرهن ، بجد ، لهذا الحدث ، على مدى حماقة كلماته :

— الحرية والمساواة ، كلمات رنانة ، لم يعد لها اعتبار منذ زمن طويل . من ذا الذي لا يحب الحرية والمساواة ؟ بل حتى مخلصنا نفسه دعا إلى الحرية والمساواة . أصار الناس بعد الثورة أسعد حالا ؟ . . بالعكس . كنا نريد الحرية ، فقضى عليها بونابرت .

وبقي الأمير أندرو ينظر من بيير إلى الفيكونت ، ومن الفيكونت إلى ربة الدار ، بابتسامة تنم عن أن المسألة تعجبه . فقد كانت آنا بافلوفنا قد روعتها الصدمة ، من أول لحظة انفجر فيها بيير ، بالرغم من حنكتها الاجتماعية . لكنها عندما رأت أن كلمات بيير ، على أنها كلها للحرمات المقدسة ، لم تحنق الفيكونت ، وأقنعت نفسها بأنه يستحيل إيقافه ، حشدت قواها وانضوت إلى الفيكونت في هجمة قوية على الخطيب . قالت :

— ولكن يا مسيو بيير يا عزيزي ، كيف تفسر أن رجلا عظيما يأمر بإعدام دوق ، أو حتى رجل عادي ، برىء ، دون محاكمة ؟

وقال الفيكونت :

— أود أن أسألك كيف يفسر السيد أن ١٨ برومير لم يكن اغتصاباً ونصباً ؟ كان ذلك احتيالا ، ولا يشبه في شيء سلوك رجل عظيم ..!

وقالت الأميرة الصغيرة وهي تهز كتفيها :

— والأسرى الذين قتلهم في أفريقيا ؟ ذلك كان شيئاً فظيعاً ..!

وعقب الأمير هيبوليت :

ـــ قل ما شئت ، إنه شخص دنىء .

فلم يعرف پيير من يجيب . ونظر إليهم جميعاً ، وابتسم . لم تكن ابتسامة تشبه نصف الابتسامه التى يبتسمها الآخرون وعندما يبتسم ، كانت تحل محل نظرته الرصينة بل الكئيبة ، نظرة أخرى على الفور : نظرة طفلية ، عطوفة ، بل تكاد تكون بلهاء ، كما لو كانت تطلب المغفرة .

وكان الڤيكونت يلتقى به لأول مرة . فرأى بوضوح أن هذا اليعقوبى الشاب ليس مخيفاً على الاطلاق بالقدر الذى توحى به كلماته .

وصمت الجميع .

فقال الأمير أندرو :

ـــ كيف تنتظرون منه أن يجيبكم جميعاً دفعة واحدة ؟ ثم أنه فى أعمال رجال الحكم ، على المرء أن يفرق بين أعمالهم كأفراد عاديين ، أو جنرالات فى الجيش ، أو أباطرة. أو هكذا يلوح لى .

فأسرع پيير يوافق قائلا :

ـــ نعم ، نعم ، بالطبع .

وقد سره وصول هذه النجدة .

واستطرد الأمير أندرو :

ـــ يجب أن يقر المرء أن نابليون رجلا ، كان عظيما عند جسر أركولا ، وفى مستشفى يافا عندما مد يده لصرعى الطاعون . ولكن ... لكن هناك أعمالا أخرى يصعب تبريرها .

كان واضحاً أن الأمير أندرو قد أراد أن يخفف من الحرج الذى أثارته تعليقات پيير ، فنهض وأشار إلى زوجته بأن قد حان وقت الرحيل .

وفجأة أخذ الأمير هيپولت يشور للجميع أن ينتظروا ، وطلب منهم جميعاً أن يجلسوا . وقال :

ـــ سمعت حكاية مدهشة من موسكو اليوم ، ويجب أن أقولها لكم .

معذرة يا فيكونت ، يجب أن أقولها بالروسية ، وإلا ضاع مغزاها ...

وأخذ الأمير هيپوليت يحكي قصة ، باللغة الروسية التي يتكلمها مثلا فرنسي أنفق عاماً واحداً في روسيا . وانتظر الجميع ، فقد طلب منهم أن يلقوا بانتباههم إلى حكايته بكل هذا الحماس والتأكيد .

— فيه سيدة في موسكو ، واحدة مدام ، وهي بخيلة جداً . لازم وراءها خادمان ، وراء عربتها ، خادمان ضخمان جداً . كان هذا ذوقها . وكان عندها وصيفة ، ضخمة أيضاً . قالت . .

وهنا توقف الأمير هيپوليت ، وواضح أنه يستجمع ، بمشقة ، شتات أفكاره :

— قالت ... نعم .. ! قالت للوصيفة : « يابنت ، ألبسي بدلة الخدام ، وقفي وراء العربة ، وتعالي معي ، فعندي زيارات . . »

وهنا تضاغطت شفتاه وانطلق منها رذاذ ، وانفجر ضاحكاً قبل مستمعيه بكثير ، فكان لذلك أثره السيء عن صاحب الحكاية . إلا أن أشخاصاً عديدين ، منهم آنا باﭬلوﭬنا والسيدة الكبيرة السن ، ابتسموا مع ذلك .

— ذهبت . وفجأة كان هناك رياح قوية ، وضاعت من البنت قبعتها ، ونزل شعرها الطويل ...

وهنا لم يعد بوسعه أن يتمالك نفسه ، فمضى ، بين شهقات الضحك :

— وكل الناس عرفوا . .

وانتهت الحكاية . وبالرغم من أنه لم يكن مفهوماً لماذا حكاها ، ولماذا كان يتحتم أن تقال باللغة الروسية ، فقد قدرت له آنا باﭬلوﭬنا ، والآخرون ، كياسته الاجتماعية ، إذ عقب على انفجارات پيير التي لا مجاملة ولا لطف فيها ، بهذه الطريقة الحسنة . وانطلق الحديث ، بعد الحكاية ، في كلام صغير لا قيمة له عن الحفلة الراقصة الأخيرة ، والحفلة القادمة ، وعن المسرحيات ، وعمن سيلتقي بمن ، وأين ، ومتى .

الفصل السادس

أخذ الضيوف يبرحون، بعد أن شكروا لآنا بافلوفنا حفلتها الساحرة .

لم يكن بيير رشيقاً طيع الحركة . كان رَبعة ، وسط القامة ، عريض المنكبين ، وله يدان ضخمتان حمراوان . . ولم يكن يعرف ، كما يجرى القول المأثور ، أن يدخل غرفة استقبال ، وأخلق به ألا يعرف كيف يبرحها ، يعنى كيف يقول شيئاً يطيب قوله خاصـــة قبل أن يمضى . فضلا عن أنه كان كثير السرحان مشتت البال . فلما نهض ليمضى أخذ بدلاً من قبعته ، قبعة جنرال مثلثة الأطراف ، وأمسكها يشد ريشتها ، حتى طلب منه الجنرال أن يعيدها إليه . إلا أن سرحان ذهنـه ، وعجزه أن يدخل غرفة، وأن يشقق صنوف الحديث كما يليق ، كل ذلك يغفر له تعبير وجهه العطوف البسيط الذى لا خيلاء فيه . والتفتت إليه آنا بافلوفنا وأومأت إليه رأسها بوداعة مسيحية تنم عن مغفرتها لطيشه وقلة فطنته ، وقالت :

— أرجو أن أراك مرة أخرى ، ولكنى أرجو أيضاً أن تقلع عن آرائك ، يا مسيو بيير العزيز .

فلما قالت ذلك لم يحر جواباً بل انحنى فقط ، وإن كان الكل قد رأوا ابتسامته التى لم تكن تعنى شيئاً اللهم إلا «الآراء ليست إلا آراء . لكنك ترين أننى شخص مدهش سمح الخلق» وأحسّ الجميع صدق ذلك . بما فيهم آنا بافلوفنا .

كان الأمير أندرو قد خرج إلى الردهة ، وأدار كتفيه للخادم الذى كان يعاونه فى لبس عباءته ، وهو يصغى ، دون كبير اهتمام ، إلى ثرثرة زوجته . وكان الأمير هيبوليت يقف قريباً إلى الأميرة الحلوة ، الحامل ، ويحدجها بنظرة ثابتة من خلال عوينته .

وقالت الأميرة الصغيرة تودّع آنا بافلوفنا :

— ادخلى يا آنيت ، وإلا أصابك برد .

ثم أضافت بصوت خفيض :

— اطمئنى ، ستسوّى المسألة .

كانت آنا بافلوفنا قد استطاعت أن تحدث ليزا بالفعل عن الزواج الذى تنوى إتمامه بين أناتول وأخت زوج الأميرة الصغيرة

فقالت آنا بافلوفنا بصوت خفيض أيضاً :

— إنى أعتمد عليك يا عزيزتى . اكتبى لها واخبريى كيف ينظر أبوها إلى المسألة . أوريڤوار ..!

وغادرت الردهة .

اقترب الأمير هيپوليت من الأميرة الصغيرة ، وأحنى وجهه قريباً من وجهها وأخذ يهمس إليها شيئاً .

ووقف خادمان ، أحدهما خادم الأميرة ، والآخر خادمه ، ممسكين بشال وعباءة ، ينتظران أن يفرغا من الحديث . كانا يصغيان إلى العبارات الفرنسية التى لاتعنى عندهما شيئاً ، بمظهر الفاهم الذى لايريد أن يبدو عليه الفهم . وكانت الأميرة ، دأبها ، تتكلم باسمة ، وتصغى وهى تضحك .

قال الأمير هيپوليت :

— يسرنى جداً أننى لم أذهب لحفلة السفير . فشد ما هى مملة كانت سهرة ممتعة ، أليس كذلك ؟ ممتعة !

وأجابت الأميرة الصغيرة وهى تفتر بشفتها الصغيرة المكسوة بالزغب :

— يقولون أن الرقص سيكون عظيما جداً فستأتى كل النساء الجميلات فى المجتمع .

فقال الأمير هيبوليت وهو يبتسم مرحاً :

— ليس جميعاً ، فلن تكونى أنت هناك ، ليس جميعاً .

وتتر الشال من الخادم ، ونحاه إلى جنب ، وأخذ يلفه حول الأميرة .

وسواء كان ذلك من قلة لباقته وحرج حركته ، أو كان عن عمد ، فقد أبقى ذراعه حولها بعد أن أحكم وضع الشال ، كما لو كان يعانقها ، زمناً طويلا .

فابتعدت برشاقة ومازال باسمة ، والتفتت ترمق زوجها بنظرة . كانت عيناه مغمضتين ، وشد ما كان يبدو منهوكا ، ناعسا .

وسأل زوجته وهو يتجاوزها بنظره :

— مستعدة ؟

فلبس الأمير هيبوليت عباءته في هرولة ، وكانت وفقاً لأحدث زى ، تنزل حتى تصل إلى أخمص قدميه ، وجرى إلى الشرفة وهو يتعثر بالعباءة ، ليلحق بالأميرة التي كان أحد الخدم يساعدها في ركوب العربة . وصاح وهو يتعثر بلسانه وقدميه معاً :

— أوريفوار أيتها الأميرة .

كانت الأميرة ترفع ثوبها وهي تتخذ جلستها في العربة المظلمة ، وكان زوجها يسوّى من وضع سيفه ، أما الأمير هيبوليت ، فقد كان يعوق الجميع ويعرقل كل شيء ، تحت زعم أنه يتقدم للمعاونة .

وقال الأمير أندرو ، بالروسية ، في لهجة باردة لا ودّ فيها ، للأمير هيبوليت الذي كان يسدّ عليه طريقه :

— اسمح لي يا سيدى .

وقال نفس الصوت ، بمحبة ورقة :

— أنا منتظرك يا بيير .

وبدأت العربة تتحرك ، وقرقعت عجلاتها . ووقف الأمير هيبوليت على الشرفة تأخذه نوبات متقطعة من الضحك ، وهو ينتظر الفيكونت ، فقد وعده أن يوصله للبيت .

قال الڤيكونت بعد أن جلس بجانب هيپوليت فى العربة :

— حسناً يا عزيزى . أميرتك الصغيرة حلوة . حلوة جداً فى الحقيقة ، فرنسية تماماً .

وقبّل أطراف أصابعه . فانفجر هيپوليت ضاحكاً .

واستطرد الڤيكونت :

— أتعرف ، أنت ولد هائل ، بالرغم من مظاهر البراءة عليك . إننى أشفق على الزوج المسكين . هذا الضابط الصغير الذى يتخذ لنفسه مظهر الملوك.

فتضاغطت شفتا هيپوليت مرة أخرى وانطلق منهما رشاش الضحك ، وقال فى وسط ضحكه :

— وكنت تقول أن السيدات الروسيات لا يساوين الفرنسيات ؟ على الواحد أن يعرف كيف يعاملهن .

وصل پيير قبل الآخرين ، فذهب إلى غرفة مكتب الأمير أندرو . كما لو كان فى بيته تماما ، ورقد على الأريكة فوراً ، بالعادة ، وأخذ من الرف أول كتاب وقعت عليه يده — كان « تعليقات » يوليوس قيصر — واستراح مرتفقاً الأريكة بكوعه . وبدأ يقرأ من وسط الكتاب .

قال الأمير أندرو وهو يدخل غرفة المكتب يدعك يديه الصغيرتين البيضاوين :

— ماذا فعلت بالمدموازيل شيرر ؟ سيصيبها الآن المرض حقاً .

فأدار پيير إليه جسمه كله . حتى صرّت الأريكة وقرقعت . ورفع إليه وجهه الشغوف . وابتسم . وشوّر بيديه :

— هذا الأب شائق جداً لكنه لا يرى المسألة فى وضعها الصحيح . . السلام الدائم فى رأيى ممكن جداً . لكن . . لست أعرف كيف أقول ذلك . . ليس بتوازن القوى السياسية . .

كان جلياً أن الأمير أندرو لا يلقى اهتماما لمثل هذا الحديث النظرى .

وسأله بعد صمت وجيز :

— لا يمكن أن يقول المرء كل مايفكر فيه ياعزيزى . ثم هل قررت شيئاً فى آخر الأمر ؟ أتدخل الحرس ، أو السلك الديبلوماسى ؟

فجلس بيير على الأريكة ، وقد دفع برجليه تحته :

— لست أدرى فى الحقيقة . فلست أحب أيهما .

— ولكن يجب أن تقرر شيئاً ، إن والدك ينتظر .

كان بيير قد أُرسل ، فى العاشرة من عمره ، إلى الخارج ، ومعه معلم من الآباء الدينيين ، وبقى بالخارج حتى العشرين . وعند ما عاد إلى موسكو ، طرد أبوه المعلم ، وقال للفتى «اذهب الآن إلى بطرسبرج ، وانظر حواليك ، واختر لك مهنة : سأوافق على أى شىء تختاره . وهاك خطاباً إلى الأمير فاسيلى ، وهاك نقود . اكتب لى كل شىء عن الموضوع ، وسأساعدك فى كل شىء . » وبدأ بيير يختار لنفسه مهنة ، منذ ثلاثة شهور ، ولم يستقر إلى شىء . كان الأمير أندرو يتكلم عن ذلك . وفرك بيير جبهته وهو يقول ، موعزاً إلى الأب الذى التقى به ليلتها :

— لابد أنه ماسونى .

فقاطعه الأمير أندرو ثانية :

— هذا كله هراء . فلنتكلم فى الجدّ . أذهبت إلى فرسان الحرس ؟

— لا ، لم أذهب . ولكن هذا ما كنت أفكر فيه ، وما أريد أن أقوله لك . هناك الآن حرب ضد نابليون . لو كانت حرباً فى سبيل الحرية لفهمت قيمتها وكنت أول من يلتحق بالجيش . ولكن ليس من الصواب أن نساعد انجلترا والنمسا على أعظم رجل فى العالم .

فلم يفعل الأمير أندرو إلا أن هز كتفيه من كلمات بيير الصبيانية . واتخذ مظهر من يستحيل عليه الرد على مثل هذا الهراء ، وإن كان يشقّ فى الحقيقة أن يجيب بغير ما قال ، رداً على هذا السؤال الساذج ، قال :

ـــ لو أن أحداً لم يحارب إلا عن يقين وإيمان ، لما عادت هناك حرب .

فقال بيير :

ـــ وهذا ليكون شيئاً عظيما ..!

فابتسم الأمير أندرو فى سخرية :

ـــ محتمل جداً أنه شيء عظيم ، ولـكنه لن يتحقق أبداً ...

فسأل بيير :

ـــ ثم لماذا أنت تذهب لتحارب ؟

ـــ لماذا ؟ لا أدرى . يجب علىّ الذهاب . ثم أننى ذاهب ...

وتوقف لحظة ، ثم قال :

ـــ ذاهب لأن حياتى هنا لا تروقنى ..!

الفصل السابع

تناهى إلى السمع حفيف ثوب امرأة ، من الغرفة المجاورة . فنفض الأمير أندرو نفسه ، كما لو كان يصحو من النوم ، وعاد إلى وجهه المظهر الذى اتخذه فى غرفة استقبال آنا بافلوفنا . ونحّى بيير قدميه عن الأريكة . وأقبلت الأميرة . كانت قد استبدلت بردائها ثوباً للبيت فى مثل أناقته ورواثه . نهض الأمير أندرو وقدم لها كرسياً فى أدب .

وبدأت تتكلم ، بالفرنسية كالمعتاد ، وهى تتخذ مجلسها ، بحيوية ، وانشغال ، فى المقعد المريح :

— كيف ، كيف حدث أن آنيت لم تتزوج أبداً ؟ ما أغباكم أيها الرجال جميعاً فى أنكم لم تتزوجوها ! معذرة ، لكنكم لا تفهمون شيئاً عن النساء . ويالك من رجل كثير الجدال يا مسيو بيير ..!

— وما زلت أجادل زوجك . لست أستطيع أن أفهم لماذا يريد

الذهاب للحرب .

كان قد أجابها دون أن يبدى شيئاً من الحرج الذى ينتاب الشبان عند ما يتحدثون إلى السيدات .

فأجفلت الأميرة . كان من الجلى أن كلمات پيير قد مست فيها وتراً حساساً وقالت :

— آه . هذا بالضبط ماأقوله له . لست أفهم ، لست أفهم على الإطلاق، لماذا لايطيق الرجال أن يعيشوا دون حرب . كيف يحدث أننا نحن النساء لا نريد على الإطلاق شيئاً من ذلك ، ولا نحتاج إليه ؟ سوف تحكم الآن بيننا . إننى دائماً أقول له : إنه هنا ياور عمّى ، فى مركز من ألمع المراكز، ويعرفه الجميع حق المعرفة ، ويقدّرونه حق التقدير . سمعت منذ أيام سيدة فى بيت أبراكسين تقول : «أهذا الأمير أندرو الشهير؟» سمعت هذا والله . وضحكت .

— ويستقبله الجميع فى كل مكان أحسن استقبال . ومن السهل أن يصبح ياوراً للامبراطور . أنت تعرف ، فقد حدثه الامبراطور بكل عطف . وكنت أنا وآنيت نتحدث كيف نسوّى المسألة . ما رأيك ؟

نظر پيير إلى صديقه ، فلاحظ أن الحديث لا يروق له . ولم يجب . بل سأله :

— ومتى تذهب ؟

فقالت الأميرة :

— أوه ، لاتتكلم عن ذهابه ، لاتفعل . . ! لا أسمع بالكلام فى هذا . . !

بنفس اللهجة اللاعبة الغاضبة التى كانت تحدث بها هيپوليت فى غرفة الاستقبال ، لهجة من الجلى أنها لا محلّ لها بالمرة فى هذه الدائرة العائلية التى كان پيير يوشك أن يكون أحد أفرادها .

— عند ماتذكرت اليوم أنه سيتحتم قطع كل هذه العلاقات الطيبة . .

ثم أنت تعرف يا أندريه — ونظرت إلى زوجها نظرة لها دلالتها ، وهمست ورجفة تسرى فى جسمها — أنا خائفة ، أنا خائفة ..!

نظر إليها زوجها كما لو كان قد أدهشه أن يلاحظ وجود شخص آخر فى الغرفة غيره وبيير ، وقال لها بلهجة مؤدّبة صارمة البرودة :

— ممّ تخافين ياليز ؟ لست أفهم .

— أترى ، ما أشد أنانية الرجال جميعاً ، جميعاً ، أنانيون جميعاً ..! لمجرد نزوة من نزواته ، لسبب لا يعرفه إلا الله وحده ، يتركنى ، ويحبسنى وحدى فى الريف .

فقال الأمير أندرو بلطف :

— مع أبى وأختى ، تذكّرى .

— وحدى بالرغم من ذلك ، من غير أصدقائى أنا ... ثم يريدنى الا أكون خائفة .

كانت لهجتها الآن قد تحولت إلى الخصومة والنفار ، وارتفعت شفتها ، فلم تكسبها مظهراً يبعث على البهجة ، بل مظهراً حيوانياً ، كالسنجاب . وأقصرت ، كما لو كانت تحس من غير الكياسة أن تتكلم عن حملها أمام بيير ، على أن فى ذاك لبّ المسألة كلها .

قال الأمير أندرو برجاء ، وهو لا يرفع عينيه عن زوجته :

— ومع ذلك فلست أستطيع أن أفهم ممّ تخافين ؟

تضرجت الأميرة ، ووقعت ذراعيها فى حركة يأس :

— لا يا أندريه ، يجب أن أقول أنك تغيرت . . أوه ، كم تغيرت . .

قال الأمير أندرو :

— يوصيك طبيبك أن تذهبى للسرير مبكرة ، فيحسن أن تذهبى .

لم تقل الأميرة شيئاً ، بل ارتعشت شفتها الصغيرة المكسوة بالزغب فجأة . ونهض الأمير أندرو ، وهز كتفيه ، وأخذ يتمشى فى الغرفة .

ونظر بيير ، من فوق نظارته ، بدهشة ساذجة ، مرة إليه ، ومرة إليها ، وتحرك كما لو كان يهم بالنهوض أيضاً ، ثم عدل .

وهتفت الأميرة الصغيرة فجأة ، وقد حال وجهها الحلو دفعة واحدة ، وشوهته نظرة دامعة :

— ولماذا يهمني وجود مسيو بيير هنا ؟ لقد كنت أريد أن أسألك من زمن طويل ، يا أندرو ، لماذا تغيرت نحوي ؟ ماذا فعلت لك ؟ أنت تذهب للحرب ولا تشفق عليّ . لماذا ؟

كان كل ما قال الأمير :

— ليز ..!

ولكن تلك الكلمة الواحدة كانت تعبر عن ضراعة ، عن وعيد ، وفوق كل شيء ، عن يقين بأنها ستندم ، نفسها ، من كلماتها . لكنها واصلت كلامها متعجلة :

— أنت تعاملني كما لو كنت مريضة عاجزة ، أو طفلة . انني أرى ذلك بوضوح ..! أكنت تفعل ذلك منذ ستة شهور ؟

فقال الأمير أندرو ، في إلحاح أشد :

— ليز ، أرجوك أن تكفي .

كان بيير يزداد انفعاله وهو يسمع ذلك كله ، فنهض واقترب من الأميرة . كان يبدو عاجزاً عن أن يطيق مرأى الدموع ، وعلى وشك البكاء هو أيضا :

— هدئي من روعك أيتها الأميرة . . ! هذا ما يخيل اليك لأن . . . أؤكد لك أنني أنا نفسي قد أحسست .. إذن .. لأن .. لا ، معذرة ...! إن غريباً لا محل له هنا .. لا ، لا تزعجي نفسك ... إلى اللقاء . . !

فأمسك به الأمير أندرو من يده :

— لا ، انتظر يا بيير . . ! إن الأميرة أكرم من أن تسمح بأن تحرمني متعة السهرة معك الليلة .

وتمتمت الأميرة دون أن تكبح من دموع الحنق والغضب :

— لا ، إنه لا يفكر إلا فى نفسه .

فقال الأمير أندرو بجفاء ، وقد رفع صوته إلى الحد الذى ينم عن أن الصبر قد نفد :

— ليز ..!

وفجأة ، تحول وجه الأميرة الحلو من مظهر السنجاب المحنق إلى نظرة خائفة تدعو للرثاء ، وتكسب القلب . وكانت عيناها الجميلتان تنظران بتساؤل وتخوف إلى وجه زوجها ، واتخذ وجهها مظهر الحزى والاتضاع الذى يبدو على كلب يهز ذيله المرتخى هزاً سريعاً وإن كان خائراً .

وتمتمت ، وهى ترفع طرف ثوبها بإحدى يديها ، وتذهب لزوجها فتقبله على جبينه :

— يا إلهى ، يا إلهى . . !

فقال :

— مساء الخير يا ليز .

وهو ينهض ويقبل يدها فى مجاملة ، كما لو كانت غريبة عنه .

الفصل الثامن

بقى الصديقان صامتين . لم يعن أيهما بالكلام . كان بيير يرمق الأمير أندرو دون أن يكف ، وفرك الأمير أندرو جبهته بيده الصغيرة .

ثم قال وهو يتنهد متجهاً إلى الباب :

— فلنذهب نتعشّ .

ودخلا غرفة الطعام الأنيقة ، الباذخة ، الحديثة العهد بالتأثيث . وكان كل شىء فيها ، من مفارش المائدة حتى الأدوات والأوانى الفضية والصينية والزجاجية ، يحمل سمة الجدة التى توجد فى بيوت الحديثي العهد بالزواج .

وفى وسط العشاء ، ارتفق الأمير أندرو المائدة ، واكتسب وجهه مظهر اهتياج عصبى لم ير بيير مثله أبداً ، وبدأ يتكلم — بطريقة رجل كان يعنّى نفسه شىءٌ ما ، زمناً طويلا ، ثم قرّ عزمه فى النهاية أن يفرج عن صدره بالكلام :

— لا تتزوج أبداً . أبداً يا صديقى العزيز ..! هذه نصيحتى ، لا تتزوج أبداً حتى يكون فى وسعك أن تقول أنك قد فعلت كل ما أنت مستطيع أن تفعل ، وحتى تكف عن حب المرأة التى اخترتها . حتى تكون قد رأيتها بوضوح ، على حقيقتها ، وإلا ارتكبت خطأً قاسياً لا رجعة عنه . تزوج عندما تشيخ ولا يعود من ورائك طائل . . وإلا ضاع كل ما هو خيّر ونبيل عندك . ضاع كله على التوافه . نعم ..! نعم ..! نعم ..! لا تنظر إلى بمثل هذه الدهشة إذا تزوجت منتظراً من نفسك أن تفعل شيئاً فى المستقبل ، فستشعر فى كل خطوة أن كل شىء قد انتهى أمامك ، كل شىء قد أغلق ، إلا غرفة الاستقبال حيث توضع فى صف واحد مع أحد خدم البلاط ، وأحد البلهاء ..! ولكن ما الجدوى ..؟

وشوّر بذراعه .

خلع بيير نظارته ، فبدا وجهه بمظهر مغاير ، وتأكد تعبير الطيبة عليه ، وحدق إلى صديقه بدهشة .

واستطرد الأمير أندرو :

— إن زوجتى إمرأة رائعة ، إحدى تلك الزوجات النادرات التى يأمن معهن المرء على شرفه ، ولكن يا إلهى ، أى ثمن لا أدفعه الآن حتى أعود أعزب . . ! أنت الشخص الأول والوحيد الذى أذكر له ذلك . لأننى أحبك .

وكان الأمير أندرو ، وهو يقول ذلك ، أبعد شبهاً ، من أى وقت ، بذلك الأمير بولكونسكى الذى كان يجلس بارتخاء فى المقاعد المريحة عند

آنا بافلوفنا ، يقول العبارات الفرنسية من بين أسنانه ، بأعين نصف مغمضة . كانت كل عضلة فى وجهه النحيل ترتعش الآن بالاهتياج العصبى ، وكانت عيناه اللتان بدا أن جذوة الحياة قد خبت فيهما تومضان الآن بنور متوهج . كان من الجلى أنه بقدر ما يبدو وقد فقد الحياة فى اللحظات العادية ، يبـــدو مشبوب الانفعال فى لحظات الجيشان الذى يشفى على الجنون هذه .

وواصل حديثه :

— أنت لا تفهم لم أقول ذلك ، وإن كانت تلك قصة حياتى كلها . أنت تتكلم عن بونابرت وحياته — على أن بيير لم يكن قد ذكر بونابرت — ولـكن بونابرت كا يمضى فى عمله خطوة خطوة إلى هدفه . كان حراً ، ولم يكن عنده إلا الهدف الذى يسعى اليه ، فبلغه . أما إن ربطت نفسك إلى امرأة ، فقد فقدت كل حرية ، كعبد مصفد بالأغلال ..! وكل مالديك من أمل وقوة ينوء بك ويعذبك بالندم . غرف استقبال ، وثرثرة ، ورقص ، وغرور وتفاهة ، هـذه هى الحلقة الخبيثة التى لا أستطيع الإفلات منها . وأنا الآن ذاهب للحرب ، أعظم حرب نشبت حتى الآن ، ولست أعرف شيئاً ولست أصلح لشىء . إننى لطيف جداً ، ولى فـكاهة لاذعة ، والناس تصغى إلىّ فى حفلات آنا بافلوفنا . وهذه المجموعة الغبية من الناس التى لا يمكن أن توجد حياتى من غيرهم . وهاته النسوة . . . لو أنك عرفت نساء المجتمع ، والنساء عامة . . ! إن أبى محق . أنانيات مغرورات ، حمقاوات ، وتافهات فى كل شىء : أولئك هن النساء عند ما تراهن فى حقيقتهن . . ! عند ما نلتقى بهن فى المجتمعات يبدو أن عندهن شىء ، ولـكن لا شىء ، لا شىء عندهن . . ! لا . . لا تتزوج يا صاحبى لا تتزوج . . !

فقال بيير :

— يبدو لى غريباً أنك ، أنك أنت ، ترى نفسك قاصراً ، وحياتك مضيعة . . ! فأمامك كل شيء ، كل شيء . وأنت . . .

لم يكمل عبارته ، وإن كانت لهجة تنبيء ، بمدى تقديره لصديقه ، ومدى ما ينتظره منه فى المستقبل .

وخطر لبيير «كيف يقول مثل هذا الكلام ؟» كان يرى صديقه مثالا للكمال ، فقد كان الأمير بيير يتصف بأكمل الشمائل التى تعوز بيير على وجه الدقة . وقد يحسن وصفها بأنها قوة العزيمة . كان بيير يدهشه دائماً ذلك الأسلوب الهادى المتئد الذى يتخذه الأمير أندرو إزاء الجميع ، وذاكرته الخارقة ، وقراءاته الواسعة ، فقد كان قرأ كل شيء ، وعرف كل شيء ، وله رأيه فى كل شيء ، ولكن تدهشه فوق كل شيء مقدرته على العمل والدراسة ، فاذا كان بيير يفجأه فى الغالب قصور فى جلد أندرو على التأمل الفلسفى — وهو شيء يدمنه بيير ويعكف عليه — فلم يكن يرى فى ذلك نقيصة بل أمارة على القوة .

حتى أفضل علاقات الحياة ، وأبسطها ، وأخلصها وداً ، تقتضى ضرورة الثناء والإطراء ، كضرورة الشحم حتى تجرى العجلات على رسلها .

قال الأمير أندرو :

— إن دورى قد فرغ ، ما جدوى الكلام عنى ؟

ثم أضاف بعد صمت ، باسماً من أفكاره التى تفيء عليه شيئاً من أمن :

— فلنتكلم عنك . .

فانعكست هذه الإبتسامة فوراً على وجه بيير ، وقال وقد ارتخى وجهه فى ابتسامة بهيجة لا هم فيها :

— وماذا يقال عنى ؟ ماذا أنا ؟ ابن غير شرعى . . !

وتضرج وجهه فجأة بحمرة قانية ، وكان واضحاً أنه بذل جهداً طائلا حتى قال ذلك .

— لا اسم لى . ولا مال عندى . . ثم فى الحقيقة . .
لكنه لم يقل ما ذلك « فى الحقيقة . . »
— أما الآن فأنا حر وفى خير حال . إلا أنه ليس لدى أدنى فكرة عمّ أفعل . كنت أريد أن أستشيرك فى ذلك ، بجد .

فنظر اليه الأمير أندرو بعطف ، إلا أن نظرته على ما فيها من ود وحب ، كانت تنم عن حسه بتفوقه .

— إننى مغرم بك ، خاصة لأنك الرجل الوحيد الذى عنده حياة فى كل جماعتنا بأسرها . وستكون فى خير حال أنى ذهبت . ولكن اسمع : أقصر من زياراتك لآل كوراجين هؤلاء ، وعن ذلك الأسلوب من الحياة ، فهو لا يليق بك . . كل هذا الفجور والانحلال إلى آخر ما هناك . . !

فأجاب پيير وهو يهز كتفيه :

— ماذا تنتظر يا صاحبى ؟ النساء يا صاحبى ، النساء . . !

فقال الأمير أندرو :

— لست أفهم . النساء ، عندما يكن كما ينبغى ، هذا شىء آخر . أما النساء اللاتى يذهبن عند جماعة كوراجين : « الخمر والنساء » فهذا ما لا أفهمه . . !

كان پيير ينزل عند الأمير ڤاسيلى كوراچين ، ويقاسم ابنه أناتول حياته المنحلة الخلُق ، هذا الابن الذى كانوا يعدون الخطط لإصلاحه بتزويجه أخت الأمير أندرو .

قال پيير ، كما لو باغته فجأة خاطر موفق :

— أتعرف ؟ فكرت فى ذلك طويلا . . إننى وأنا أعيش مثل هذه الحياة يعجزنى أن أقرر شيئاً أو أن أفكر تفكيراً صحيحاً فى شىء . والواحد رأسه توجعه . وينفق كل نقوده . دعانى عنده الليلة ، لكنى لن أذهب .

— أتعطينى كلمة شرف ألا تذهب ؟

— بشرفى . . !

الفصل التاسع

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة عند ما بارح پيير صديقه . وكانت ليلة صيفية ، شمالية ، لا سحب فيها ، وأخذ پيير عربة مكشوفة ، وفي نيَّته الذهاب مباشرة إلى البيت . ولـكنه كلما اقترب من البيت تعاظم به إحساسه باستحالة النوم في مثل تلك الليلة . كانت الليلة منيرة بما يتيح رؤية الشارع المهجور إلى مسافة كبيرة ، وكانت تبدو أقرب إلى الصباح أو بكرة المساء ، منها إلى الليـــل . وتذكر پيير في طريقه إلى البيت أن أناتول كوراجين ينتظر الجماعة المعتادة للعب الورق في تلك الليلة ، وتتلو ذلك عادة عربدة الشراب ، وتختتم الليلة بزيارات من النوع الذي يغرم به پيير جداً .

فخطر له : كنت لأود الذهاب إلى بيت كوراجين .

لـكنه تذكر على الفور وعده للأمير أندرو ألا يذهب . ثم اشتهى ، كما يحدث لخائري الخلق ، ولجت به شهوته ، أن يستمتع مرة أخرى بذلك الانحلال الذي شد ما اعتاد عليه ، حتى قرر أن يذهب . وخطر له على الفور أن لا حساب للوعد الذي قطعه للأمير أندرو ، إذ كان قد وعد الأمير أناتول ، قبل أن يقطع على نفسه ذلك العهد ، أن يذهب لحفلته . ثم خطر له : وفضـــلا عن ذلك فإن كل « كلمات الشرف » هـــذه أشياء اصطلاحية لا معنى محدداً لها ، وخاصة إذا نظر المرء في أنه قد يصبح ميتاً ، أو يقع له شيء خارق يصبح معه الشرف والخسة بقدر سواء ...!»

كان پيير يُغرق أحياناً في تأملات كهذه ، تصبح معها كل قراراته ونواياه لغواً . وذهب إلى بيت كوراجين .

وعند ما بلغ پيير البيت الـكبير ، على مقربة من ثكنات فرسان الحرس ، حيث كان يقطن أناتول ، ولج الشرفة المنورة ، ورقى السلالم ،

ودخل من الباب المفتوح . لم يكن فى الردهة أحد . والزجاجات الفارغة ، والعباءات ، والأحذية الخارجية متناثرة ، وهناك ريح الخمر . وأصداء أصوات وصيحات على البعد .

كان الزوار قد فرغوا من لعب الورق ، والعشاء ، لكنهم لم يمضوا لحالهم بعد . فرمى بيير بعباءته ، ودخل أول غرفة ، حيث كانت بقايا العشاء . وكان هناك خادم يظن أنه بمنجاة عن العيون ، يشرب خلسة ما بقى فى الأقداح . وجاءت من الغرفة الثالثة أصداء الضحك ، وصيحات أصوات مألوفة ، وزمجرة دُب ، وضجيج ولغط عام . كان هناك نحو ثمانية أو تسعة فتيان يتزاحمون حول نافذة مفتوحة . وثلاثة آخرون يعربدون معابثين دباً صغيراً . يشده أحدهم من سلسلة ، ويحاول أن يطلقه على الآخرين .

صاح أحدهم : أراهن بمائة جنيه على ستيفنس . . !

فهتف آخر : خل بالك . . لا تمسك بشىء . . !

وصاح ثالث : أراهن على دولوخوف . . ! وأنت يا كوراجين تفرق الأيادى[1] . نعم ، دع «بروين» ، وهاك الرهان .

وهتف رابع : جرعة واحدة ، وإلا خسر الرهان . . !

فصاح المضيف ، وهو فتى طويل القامة وسيم كان يقف فى وسط الجماعة ، دون جاكتة ، وقد فك من الأمام أزرار قميصه المصنوع من الكتان الرقيق :

— جاكوب ، هات زجاجة . . ! وانتظروا أنتم قليلا يا فتيان . . ها هو ذا يبتيا ..!

وهتف يوجه الحديث لبيير :

---

(١) كان من عادة الروس أن يتصافحوا بالأيدى على الرهان فيأتى شخص ثالث يقوم مقام الشاهد ، ويفرق بين أيادى المتراهنين .

— يا رجل يا عظيم . . !

وجاء صوت آخر يهتف من النافذة ، من رجل ربعة وسط القامة ، له عينان زرقاوان صافيتان ، يرن واضحاً متميزاً ، وسط كل تلك الأصوات المخمورة ، برنته الصاحية :

— تعالوا هنا . فرقوا الرهان . . !

ذلك دولوخوف ، ضابط من فرقة سيمينوف ، مقامر ومبارز طائر الصيت ، وكان يقيم مع أناتول . وابتسم پيير وهو ينظر حواليه في بهجة :

— لا أفهم شيئاً . ما الحكاية ؟

فقال أناتول ، وقد أخذ قدحاً من المائدة وأقبل على پيير .

— انتظروا لحظة ، فهو لم يسكر بعد . . !

شرب پيير قدحاً بعد قدح ، وهو ينظر من تحت حاجبيه إلى الضيوف ، الذين أخذتهم نشوة الثمل ، فتزاحموا ثانيـــة حول النافذة ، ويصغى إلى ثرثرتهم . وظل أناتول يمـلأ قدح پيير ، وهو يشرح له كيف تراهن دولوخوف وستيفنس — ضابط بحرى إنجليزى — أنه يستطيع أن يشرب زجاجة من الروم ، جالساً على الحافة الخارجيـة للنافذة في الدور الثالث ، ورجلاه معلقتان منها إلى الخارج .

وقال أناتول وهو يقدم لپيير آخر قدح :

— هيا ، عليك أن تشربه كله . وإلا فلن أدعك تذهب . . !

فقال پيير وهو يدفع أناتول جانباً ويتجه إلى النافذة :

— لا ، لن أشرب .

كان دولوخوف يمسك بيدى الانجليزى ، ويكرر شروط الرهان بوضوح وجلاء ، متجهاً بالحديث خاصة إلى أناتول وپيير .

كان دولوخوف وسط القامة ، أجعد الشعر ، عيناه زرقاوان وضيئتان . وكان في نحو الخامسة والعشرين ، ولم يكن له شارب ، ككل ضباط المشاة .

فكان فمه ، أشد قسمات وجهه استرعاء للنظر ، واضحاً للعيان : كانت خطوط ذلك الفم حسنة التدوير بشكل ملحوظ . ومنتصف الشفة العليا ثلة بارزة المعالم تهبط راسخة . على الشفة السفلى الراسخة ، وهناك شيء يشبه ابتسامتين متميزتين تتلاعبان دائما حول ركني الفم . ذلك ، مع الذكاء الوقاح الثابت العزم في عينيه ، يؤتي أثراً يستحيل معه أن تغفل النظر إلى وجهه . كان دولوخوف رجلا رقيق الحال ، ليست له صلات بعلية القوم فى المجتمع . ومع ذلك ، وعلى أن أناتول كان ينفق عشرات الآلاف من الروبلات ، كان دولوخوف يقاسمه السكن ، وكان قد وضع نفسه موضعاً يحترمه معه كل من يعرفه ، بما فيهم أناتول ، أكثر من احترامهم أناتول نفسه . وكان بوسع أناتول أن يلعب كل لعبة ، ويكسب دائما على التقريب . ومهما شرب فلم يكن أبداً يفقد صفاء ذهنه . وكان كل من كوراجين ودولوخوف ذائع الصيت ، فى ذلك الوقت ، بين فسّاق بطرسبرج وفجّارها .

وأُتي بزجاجة الروم . وكان إطار النافذة ، الذى يحول دون الجلوس على حافتها الخارجية ، يخلعه خادمان واضحٌ أن صيحات السادة حوالبهما ، وتوجيهاتهم ، تحيرهما وتربكهما وتخوّفهما .

وأقبل أناتول بعدّ الخطى نحو النافذة فى خيلاء واعتداد . كان يريد أن يصفق شيئاً فيهشمه تهشيما . فدفع الخادمين إلى جنب ، وأخذ يشد الإطار ويجذبه ، ولم يستطع أن يحركه . فهشم لوحاً من زجاج النافذة .

وقال ملتفتاً إلى بيير :

— حاول أنت يا هرقل .

فأمسك بيير بالعارضة الوسطى ، وشد ، وانتزع الإطار المصنوع من البلوط ، فى قعقعة .

قال دولوحوف :

— انزعه تماماً وإلا ظنوا أنى كنت أمسك به .

وقال أناتول :

— يتباهى الانجليزى . . هه ؟ حسن هذا ؟

وقال بيير :

— عظيم جداً .

وهو ينظر إلى دولوخوف وقد كان يقترب ، وفى يده زجاجة الروم ، من النافذة التى يُرى منها نور السماء ، والفجر يشيع فيه وهج الشفق .

وثب دولوخوف والزجاجة فى يده ، على حافة النافذة . وصاح بمن كانوا فى الغرفة «سكوت ..!» وهو واقف هناك . فسكت الجميع .

وقال بالفرنسية ، حتى يفهمه الانجليزى ، لكنه لم يكن يحسن الكلام بها :

— أراهن بخمسين أمبريال[1] .. أراهن بخمسين أمبريال ..

ثم أضاف متجهاً بالحديث للانجليزى :

— أو تريد أن تجعلها مائة ؟

فقال الانجليزى :

— لا ، خمسين .

— طيب . خمسين أمبريال . . أننى سأشرب زجاجة كاملة من الروم دون أن أرفعها عن فمى ، جالساً خارج النافذة فى هذه البقعة — وانحنى مشيراً إلى الحافة المنحدرة خارج النافذة — دون أن أمسك بشىء على الإطلاق . مضبوط ؟

فقال الانجليزى :

— مضبوط .

والتفت أناتول إلى الانجليزى ، وأخذه من أحد أزرار جاكتته ، ونظر إليه من علٍ ، فقد كان الانجليزى قصير القامة ، وأخذ يردد شروط

---

(١) نحو ٨٠ جنيهاً .

الرهان بالانجليزية .

وهتف دولوخوف ، وهو يدق بالزجاجة على حافة النافذة ليسترعى الانتباه :

— انتظر ..! انتظر قليلا يا كوراجين . اسمعوا ..! إذا فعل أى شخص آخر ، ما فعلت ، دفعت له مائة أمبريال . مفهوم ؟

فأومأ الانجليزى برأسه ، لكنه لم يصدر عنه ما يدل عما إذا كان ينوى أن يقبل هذا التحدى أو رفضه . ولم يفلته أناتول ، وعلى أنه ظل يومىء برأسه ليدل على فهمه ، استمر أناتول يترجم كلمات دولوخوف إلى الانجليزية . وقام فتى صغير نحيل ، من فرسان الحرس الخاص . وقد كان خسر في اللعب ليلتها ، فتسلق على حافة النافذة ، وانحنى ، ونظر إلى تحت .

وتمتم وهو ينظر من النافذة إلى أحجار الرصيف :

— أو .. أو .. أو ..!

فهتف دولوخوف وهو يدفعه بعيداً عن النافذة :

— اخرس أنت ..!

وقفز الفتى راجعاً في ارتباك إلى الغرفة ، يتعثر في مهمازيه .

وضع دولوخوف الزجاجة على حافة النافذة حيث يستطيع أن يبلغها بسهولة ، وتسلق من على النافذة في حرص وتؤدة ، وأنزل رجليه . وضغط نفسه على كل من جانبي النافذة . واتخذ لنفسه جلسة وثيقة محكمة . وأنزل يديه ، وتحرك قليلا إلى اليمين ، ثم إلى اليسار ، وأخذ الزجاجة . فأتى أناتول بشمعتين وضعهما على قاعدة النافذة ، وإن كان النور قد أخذ يستبين ، من الآن ، تماماً . فوقع الضوء على جانبي ظهر دولوخوف ، في قميصه الأبيض ، وعلى شعره المجعد . وتزاحم الجميع إلى النافذة . وفي مقدمتهم الانجليزى . ووقف بيير باسماً . وإن كان صامتاً . وفجأة تقدم رجل أكبر سناً من الآخرين ، واندفع إلى الأمام وفي عينيه نظرة فزعة غاضبة . وهمّ بأن

يمسك بقميص دولوخوف .

قال هذا الرجل الأرجح عقلا :

— هذا جنون .! سيلقى مصرعه .

فكفه أناتول :

— لا تلمسه .! ستفزعه . عندئذ يلقى مصرعه . هه ؟. ماذا إذن ؟. هه ؟..

واستدار دولوخوف . وأمسك النافذة بكلتا يديه ثانية ، واتخذ لنفسه جلسة محكمة . وقال وهو يلفظ كلماته واحدة واحدة من بين شفتيه الرقيقتين المضغوطتين :

— لو أن أحداً جاء يقحم أنفه مرة أخرى ، لرميته إلى تحت ، من هنا . والآن ..!

واستدار مرة أخرى ، وهو يقول ذلك ، وأسقط يديه ، وأخذ الزجاجة ورفعها إلى شفتيه ، وألقى برأسه إلى الوراء ، ورفع يده الخالصة ليوازن نفسه . كان أحد الخدم قد انحنى ليجمع شيئاً من زجاج مكسور ، فبقى فى هذا الوضع دون أن يرفع عينيه عن النافذة ، وعن ظهر دولوخوف . ووقف أناتول مشدود القامة ، محملق العينين . وكان الانجليزى ينظر الى المشهد من جنب ، وقد قلب شفتيه . أما الرجل الذى أراد أن يوقف الحكاية فقد جرى الى ركن من الغرفة . وألقى بنفسه على أريكة ، وأدار وجهه الى الحائط . وأخفى بيير وجهه ، وعليه ابتسامة طفيفة فاترة ، فاتها أن تخبو ، وإن كانت ملامحه الآن تنم عن الاستفظاع والهلع . وسكت الجميع . رفع بيير يديه من على عينيه ، كان دولوخوف ما يزال يجلس فى نفس الوضع ، إلا أن رأسه كانت قد ألقى بها إلى الوراء ، الى حد أبعد ، حتى كان شعره المجعد يمس ياقة قميصه . وكانت اليد التى تمسك بالزجاجة قد ارتفعت إلى أعلى فأعلى ، ترتعش بالجهد المبذول . وكانت الزجاجة تفرغ ،

بشكل محسوس ، وترتفع إلى أعلى باطراد ، ورأسه ما تزال ترجع إلى الوراء. وخطر لبيير : « لماذا يستغرق طول هذا الوقت ؟ » وبدا له آن قد مرت أكثر من نصف ساعة . وفجأة أتى دولوخوف بحركة الى الخلف ، بعموده الفقري ، وارتعشت ذراعه بعصبية . وكان فى ذلك ما يكفى لأن ينزلق جسمه كله فى جلسته على الحافة المتحدّرة . وعند ما بدأ ينزلق إلى أسفل ، كانت رأسه وذراعه يتزايد تأرجحهما من المجهود . وتحركت إحدى يديه ، وأوشكت أن تقبض على حافة النافذة . لكنها أمسكت عن أن تمسها . وغطى بيير عينيه مرة أخرى ، وخطر له أنه لن يفتحهما أبداً ثانية . ثم أحس فجأة بحركة حواليه فى كل مكان . فرفع بصره : كان دولوخوف واقفاً على قاعدة النافذة شاحباً ، وإن كان مشرق الوجه .

— خالية ... !

ورمى الزجاجة الى الانجليزى فالتقطها ببراعة . ووثب دولوخوف نازلا . كانت تفوح منه رائحة قوية من الروم .

وجاءت الأصوات من جوانب متعددة : أحسنت . . ! مدهش . . ! هذا هو الرهان .. ! فليأخذك الشيطان يا شيخ .. !

أخرج الانجليزى كيس نقوده ، وأخذ يعدّ النقود . ووقف دولوخوف عابساً ، ولم يتكلم . وقفز بيير إلى قاعدة النافذة .

وصاح فجأة :

— أيها السادة ، من يريد أن يراهنى ؟ سأفعل نفس الشىء .. ! بل دون رهان ، إذن ... ! قل لهم أن يأتوا لى بزجاجة . . سأفعلها . . هاتوا زجاجة ... !

فقال دولوخوف باسماً :

— دعوه يفعل . . دعوه يفعل ..

وهتفت أصوات عديدة :

ـ وماذا بعد ..؟ هل جننت ..؟ لن يسمح لك أحد ..! أنت تدوخ من السلالم ..!

فهتف بيير وهو يدق على المائدة بحركة مخمورة مصممة ، ويستعد ليتسلق النافذة الى الخارج :

ـ سأشربها ...! هاتوا لنا زجاجة من الروم ..!

فأمسكوه من ذراعيه . لكنه كان من القوة بحيث ألقى بكل من مسه بعيداً .

وقال أناتول :

ـ لا ، لن تستطيعوا شيئا بهذه الطريقة . انتظروا لحظة ، سأقنعه الآن ... اسمع ..! سأراهنك غداً ، أما الآن فلنذهب إلى بيت ...

فصاح بيير :

ـ هيا بنا إذن .. هيا بنا .. ولنأخذ معنا « برون » .

وأمسك بالدب ، وأخذه بين ذراعيه ، ورفعه من على الأرض ، وأخذ يرقّصه حول الغرفة .

الفصل العاشر

وَفىَ الأمير فاسيلى بالوعد الذى قطعه للأميرة دروبيتسكايا ، عند ما كلمته عن ابنها الوحيد بوريس فى سهرة آنا بافلوفنا . وذُكر الأمر على مسامع الإمبراطور ، واتخذ إجراء استثنائى ، ونُقل بوريس إلى فرقة حرس سيمينوف ، برتبة حامل العلم . إلا أنه لم يحصل على وظيفة فى أركان حرب كوتوزوف ، بالرغم من كل المحاولات والضراعات التى قامت بها آنا ميخايلوفنا . وعادت آنا ميخايلوفنا وشيكاً إلى موسكو بعد حفلة آنا بافلوفنا ، وذهبت على الفور إلى أقربائها الأغنياء آل روستوف ، وكانت تنزل عندهم حينما تكون فى موسكو ، فقد تعلمّ ابنها حبيبها

بورى منذ طفولته، وعاش سنوات طويلة ،وهو يقيم فى بيتهم . وكان قد ألحق منذ قليل باحدى فرق الجبهة ، ثم نقل على الفور إلى الحرس ، برتبة حامل العلم. كان الحرس قد غادر بطرسبرج فعلا فى العاشر من أغسطس ، أما ابنها فقد بقى فى موسكو ليستكمل إعداد مهماته ، وسوف يلحق بالحرس الذى يتخذ طريقه إلى رادزيفلوف(١) .

وجاء عيد سانت ناتاليا ، وهو عيد اثنين من آل روستوف — الأم وصغرى البنات — واسماها ، كاتاهما ، ناتالى . ومنذ الصباح كانت العربات التى تجرها ستة خيول تغدو وتروح باستمرار ، تأتى بالزوار إلى بيت الكونتيسة روستوفا ، وهو بيت كبير يقع فى شارع بوفارسكايا ، وتعرفه موسكو حق المعرفة . وكانت الكونتيسة نفسها ، وكبرى بناتها ، فى غرفة الاستقبال ، مع الزوار الذين جاءوا للتهنئة ، وكانوا يتتابعون بالدور ، باستمرار .

كانت الكونتيسة فى حوالى الخامسة والأربعين ، وجهها من طراز شرقى نحيل ، واضح أن حمل الأولاد وتربيتهم قد أرهقته ، كان عندها إثنى عشر ولداً ، وكان فى حركتها وكلامها وهن ، وتؤدة جاءت من ضعف البنيــة ، وأكسبتها مظهراً متميزاً يوحى بالاحترام . وكانت الأميرة آنا ميخايلوفنا دروبيتسكايا . وهى تعد من أهل البيت ، جالسة أيضــاً فى غرفة الاستقبال . تساعد فى استقبال الزوار وتحيتهم . أما الشبان فكانوا فى إحدى الغرف الداخلية ، إذ لم يروا ضرورة لاستقبال الزوار . كان الكونت يرحب بالزوار ويودعهم ، ويدعوهم جميعاً إلى الغداء .

— إنى شاكر لك جداً جداً ياعزيزى ، أو ياعزيزتى ..

كان يدعو الجميــع عزيزى أو عزيزتى دون استثناء ، ودون أدنى تغير

---

(١) مدينة على الحدود ، كان على الجيش الروسى أن يمر بها فى طريقه إلى جاليشيا ، لنجدة الجيش النمسوى .

فى نبرة صوته ، سواء كانوا أرقى أو أخفض منه مرتبة .

— إنى أشكرك عن نفسى وعن عزيزتىّ اللتين نحتفل اليوم بعيدهما ولكن يجب أن تأتى للغداء ، وإلا تأثرت منك ياعزيزى . . ! أرجوك بالنيابة عن العائلة كلها أن تأتى ياعزيزى . . !

كان ما يفتأ يكرر هذه الكلمات للجميع ، دون استثناء ودون تغيير ، وبنفس التعبير على وجهه المليء المبتهج الحليق ، ونفس ضغطة اليد القوية المكينة ، ونفس الانحناءات السريعة المتكررة . وما أن يودع أحد الزوار حتى يعود إلى آخر ، ممن كانوا فى غرفة الاستقبال ، ويجذب نحوه ، أو نحوها ، كرسياً ، ثم يوسّع مابين ساقيه ، فى مرح وتوفز ، ويضع يديه على ركبتيه ، بمظهر رجل يستمتع بالحياة ، ويعرف كيف يحياها ، ويميل غاديا رائحاً فى رصانة ووقار . ويدلى بتقديراته عن الجو ، أو يتناول مسائل الصحة . باللغة الروسية أحيانا ، وأحيانا أخرى بفرنسية بالغة الركاكة ، يتكلمها باعتداد وثقة بالنفس ، ثم ينهض مرة أخرى ، شأن الرجل المنهك الذى لا يحجم مع ذلك عن أداء الواجب ، فيودع بعض الزائرين ، وهو يربت شعيراته القلائل فوق صلعته ، ويدعوهم أيضاً ، إلى الغداء . وفى طريقه راجعاً من الردهة ، يمر أحياناً من خلال غرفة حفظ الطعام والمؤونة ، إلى غرفة الطعام حيث تمد الموائد لثمانين شخصاً ، فينظر إلى الخدم يأتون بالأوانى الفضية والصينية ، ويحركون الموائد ، ويفرشون مفارش من الدمسق ، ثم ينادى ديمترى فاسيليفتش . وهو رجل من عائلة طيبة يدير أعماله كلها . ويقول وهو ينظر بسرور إلى المائدة الضخمة :

— طيب ياديمترى ، ستعنى أنت بأن يكون كل شيء كما ينبغى أن يكون ؟ مضبوط . . ! أهم شيء هو الخدمة . . تماماً . .

ثم يعود إلى غرفة الاستقبال وهو يصعّد تنهيدة رضا عن النفس . أعلن خادم الكونتيسة العملاق ، بصوت أجش ، وهو يدخل غرفة

الاستقبال :

— ماريا لفوفنا كاراجينا وابنتها ..!

وفكرت الكونتيسة لحظة ، ثم أخذت تنشيقة سعوط من صندوق ذهبي عليه صورة زوجها :

— أتعبني هؤلاء الزوار جداً . إلا أنني سأقابلها ، ولا أحد بعدها . كم هي مصنوعة متكلفة .

ثم قالت للخادم بصوت حزين :

— قل لها تتفضل

كما لو كانت تقول :

— حسناً ، أنه حياتي .

فدخلت غرفة الاستقبال امرأة طويلة القامة ، بدينة ، في مظهرها كبرياء ، مع ابنتها الباسمة المدوّرة الوجه ، يصحبهما حفيف ثيابهما .

— أيتها الكونتيسة العزيزة، يا له من زمن ... كانت مريضة ، مسكينة هذه البنت ... في حفلة الرقص عند رازدموفسكي . . . والكونتيسة أبراكسينا أيضاً . . كم كنت سعيدة . . .

بهذا وغيره جاءت الأصوات الانثوية ، يقاطع أحداها الآخر ، وتمتزج بحفيف الثياب وصرير الكراسي ، ثم يبدأ أحد هذه الأحاديث ويستمر ، حتى يقف الضيوف ، عند أول فرصة يقف فيها الحديث ، ويقولون ، وسط حفيف الثياب :

— كم يسعدني هذا .. تعرفين ماما ... والكونتيسة أبراكسينا ..

ثم يذهبون إلى الردهة ، وما زال يصحبهم حفيف الثياب ، ويلبسون العباءات أو الأوشحة ، ويمضون بعرباتهم. وكان الحديث يدور حول الموضوع الرئيسي في ذلك الوقت : مرض الكونت بيزوخوف ، أحد وجهاء عصر كاترين الأثرياء المشهورين ، وعن ابنه غير الشرعي بيير ، ذلك الذي ساء

سلوكه جداً فى حفلة آنا پافلوفنا .

قالت الزائرة :

— أنى آسفة للكونت المسكين ، نصحته قد ساءت جداً ، إنَّ متاعبه الناجمة عن سلوك ابنه لخليقة بأن تقتله . . !

فسألت الكونتيسة كما لو لم تكن تعرف إلام تلمح الزائرة ، على أنها قد سمعت سبب علة الكونت بيزوخوف نحو خمس عشرة مرة :

— ماذا ؟

فهتفت الزائرة :

— هذه نتيجة التعليم الحديث . فيظهر أن هذا الفتى أتيح له أن يفعل ما بدا له ، وهو فى الخارج . وقد سمعت أنه يفعل الآن فى بطرسبرج أشياء فظيعة ، حتى طرده البوليس .

أجابت الكونتيسة :

— أهذا صحيح ؟

فتدخلت آنا ميخايلوفنا :

— أساء اختيار أصحابه . ويقال أنه ، ابن الأمير ڤاسيلى ، وشخص يدعى دولوخوف ، يأتون أفعالا لا يعرفها إلا الله . . ! فاضطروا أن يدفعوا الثمن . أُنزلت رتبة دولوخوف إلى نفر ، وأرسل ابن بيزوخوف إلى موسكو . أما أناتول كوراجين فقد استطاع أبوه بطريقة ما أن يكتم موضوع ابنه ، لكنه مع ذلك أُمر بالخروج من بطرسبرج .

فسألت الكونتيسة :

— ولكن ماذا كانوا يفعلون ؟

أجابت الزائرة :

— إنهم قطاع طرق حقاً ، وخصوصاً دولوخوف . وهو ابن ماريا إيڤانوفنا دولوخوفا ، سيدة محترمة ، ولكن تصورى . . هؤلاء الثلاثة

حصلوا على دبٍّ من مكان ما ، ووضعوه فى عربة ، ومضوا به فى زيارة ممثلة ما ..! وحاول البوليس أن يتدخل ، فماذا فعل هؤلاء الشبان ؟ ربطوا رجل البوليس والدب ، ظهراً لظهر ، ووضعوا الدبّ فى ترعة مويكا . وراح الدب يعوم هناك ، وعلى ظهره العسكرى ..!

فصاح الكونت وقد استلقى من الضحك :

— يا له من منظر ظريف ، منظر العسكرى يا عزيزتى ..!

— أوه . هذا فظيع ..! كيف يمكنك أن تضحك من هذا يا كونت ؟

ومع ذلك فلم تملك السيدات أنفسهن من الضحك .

واستطردت الزائرة :

— وفعلوا المستحيل لينقذوا الرجل المسكين . تصورى أن ابن سيريل فلاديميروفتش بيزوخوف هو الذى يسلى نفسه بهذه الطريقة «المعقولة» ..! وكان يقال أنه مثقف جداً وذكى . هذا كل ما صنعت له الثقافة الأجنبية ..! أرجو أن لا يستقبله أحد هنا فى موسكو ، بالرغم من أمواله . كانوا يريدون أن يقدموه لى ، لكنى رفضت تماماً ، فعلىّ أن أفكر فى بناتى .

سألت الكونتيسة ، وقد استدارت عن البنات اللاتى اتخذن على الفور مظهر من لا يلقى بالا :

— لماذا تقولين أن هذا الشاب غنى جداً ؟ إن كل أبنائه غير شرعيين . وأظن بيير أيضاً ابناً غير شرعى .

فأتت الزائرة بحركة من يدها :

— أظن عنده منهم عشرين .

تدخلت آنا ميخايلوفنا فى الحديث ، وواضح أنها تريد أن تزهو بما لها من صلات ، وما هى عليه من معرفة بما يدور فى المجتمع ، وقالت بلهجة ذات مغزى ، فى شبه همس :

— حقيقة المسألة أن كل الناس تعرف سمعة الكونت سيريل .. وهو

لا يعرف عدد أبنائه ، لكن بيير هذا هو ابنه الأثير لديه .

فقالت الكونتيسة :

— شد ما كان العجوز وسيما منذ سنة واحدة فقط .! لم أر أبداً رجلا أكثر منه وسامة .

وقالت آنا ميخايلوفنا :

— تغيَّر الآن كثيراً . كنت أقول إذن أن الأمير ڤاسيلي هو الذى يرث ، عن طريق زوجته ، لكن الكونت ، مغرم جداً ببيير ، وقد عنى بتعليمه ، وكتب للامبراطور بشأنه ، وإذن ففي حالة موته — وهو مريض ، وعساه يموت فى أية لحظة ، وقد جاء الدكتور لورين من بطرسبورج . فى حالة موته لا يعرف أحد من سيرث ثروته الطائلة ، بيير أو الأمير ڤاسيلي . أربعين ألف رقيق ، وملايين الروبلات ..! أنا أعرف ذلك حق المعرفة لأن الأمير ڤاسيلي أخبرني بنفسه . ثم أن سيريل ڤلاديميروڤتش ابن عم أمي من الدرجة الثانية . وهو أيضاً أب ابنى بورى فى العماد .

قالت عبارتها الأخيرة كما لو لم تكن تعلق أهمية على المسألة .

وقالت الزائرة :

— وصل الأمير ڤاسيلي إلى موسكو أمس . وسمعت أنه جاء فى مسألة تفتيش ما .

فقالت الأميرة :

— نعم . ولكن بين بعضنا البعض ، هذه تعلة . فالحقيقة أنه جاء ليقابل الكونت سيريل ڤلاديميروڤتش بعد أن سمع بشدة مرضه .

قال الكونت :

— أتعرفين يا عزيزتى ، كانت تلك نكتة مدهشة . .

فلما رأى أن الزائرة الأكبر سناً لم تكن تصغى إليه ، التفت إلى السيدات الصغيرات ، وقال :

— أستطيع أن أتصور بالضبط كيف كان مظهر العسكري مضحكا
وأخذ يشوّر بذراعيه ليصور مظهر رجـل البوليس ، وتزلزل بدنه الضخم الرصين بضحك عميق رنان ، ضحك رجل يأكل دائماً أطيب الطعام ، ويشرب ، على الأخص ، أطيب الشراب . وقال :
— وإذن ، تعالوا تفضلوا على الغداء معنا ..!

الفصل الحادى عشر

تبع ذلك صمت . ونظرت الكونتيسة إلى ضيوفها وهى تبتسم فى تودد ، وإن كانت لا تخفى أنها لن يحزنها أن ينهضوا الآن ، ويمضوا . كانت بنت الزائرة تسوى فعلا رداءها ، وهى ترمق أمها بنظرة متسائلة ، إذ سمع فجأة من الغرفة المجاورة وقع خطى أولاد وبنات يجرون إلى الباب ، وصوت كرسى ينقلب ، واندفعت كالسهم إلى الغرفة بنت فى الثالثة عشرة من عمرها ، تخفى شيئاً ما فى طيات فستانها الموسلين القصير ، ثم وقفت فى وسط الغرفة . كان واضحاً أنها لم تقصد أن تذهب فى فرارها إلى هـذا الحد . وظهر خلفها فى الباب طالب ، ياقة جاكتته قرمزية الاحمرار ، وضابط فى الحرس ، وفتاة فى الخامسة عشرة ، وولد بض مورد الوجه يلبس جاكتة قصيرة .

وثب الكونت واقفاً ، وفتح ذراعيه على سعتهما وهو يهتز من جانب إلى جانب ، وألقى ذراعيه حول البنت الصغيرة التى كانت قد دخلت جرياً . وهتف ضاحكا :

— آه ، ها هى ذى . عروستى الصغيرة التى عيدها اليوم ، عروستى العزيزة ..!

وقالت الكونتيسة ، فى صرامة مصنوعة :

- يا عزيزتى ، هناك وقت لكل شىء .

وأضافت ملتفتة إلى زوجها :

— أنت تفسدها يا إيليا .

قالت الزائرة :

— كيف أنت يا عزيزتى ؟ كل سنة وأنت طيبة .

ثم أضافت قائلة لأمها :

— يا لها من طفلة ساحرة ..!

هذه البنت بعينيها السوداوين ، وفمها الواسع ، ليست جميلة ولكنها تفيض حيوية ، بكتفيها العاريتين الطفليتين اللتين ترتفعان وتنخفضان فى اضطراب ، بعد جريها ذاك ، فيهتز صدر فستانها ، بجدائل شعرها الفاحمة الملقى بها إلى وراء ، وذراعيها العاريتين الناحلتين ، وساقيها الصغيرتين المكسوتين بوشى من الدانتلا ، وقدميها فى حذاء واطىء ، هذه البنت كانت على وجه الدقة فى تلك السن الساحرة التى لا تعود فيها الفتاة طفلة ، وإن لم تكن الطفلة قد أضحت فتاة بعد . وأفلتت من أبيها وجرت تخفى وجهها المضرج بالخجل فى وشاح أمها المصنوع من الدانتلا ، دون أن تعير كلامها القاسى أدنى اهتمام ، وأخذت تضحك . كانت تضحك ، وهى تعالج ، فى عبارات متقطعة ، أن تقول شيئاً عن عروسٍ أخرجتها من طيات فستانها ، وكان كل ما استطاعت ناتاشا أن تقول :

— أترين . . عروسق . . ميمى . . ترين . . ؟

كل شىء كان يبدو لها غريباً يدعو للبهجة والضحك . فاستندت إلى أمها ، وانفجرت فى نوبة من الضحك الرنان المرتفع حتى لم تملك الزائرة الجامدة المتجهمة الوجه نفسها من أن تضحك .

وقالت الأم وهى تدفع بنتها عنها فى صرامة متكلفة :

— طيب طيب ، اذهبى وخذى هذه البشاعة معك ..!

والتفتت إلى الزائرة قائلة :

— إنها صغرى بناتي .

رفعت ناتاشا وجهها لحظة من على وشاح أمها ، ورمقتها من خلال دموع الضحك ، وأخفت وجهها مرة أخرى .

أما الزائرة ، وقد وجدت نفسها مضطرة إلى شهود هذا المشهد العائلي ، فقد رأت أن تشترك فيه بنصيب . فقالت لناتاشا :

— قولي لي ياعزيزتي ، هل ميمي من ذوي قرباك ؟ بنتك ، أليس كذلك ؟

لم ترق لناتاشا نبرة التنازل ، عند الزائرة ، إلى مستوى الأشياء الصبيانية . فلم تجب بل نظرت إليها نظرة جادة رصينة .

وفي هذه الاثناء جاء الجيل الجديد كله : بوريس الضابط ، ابن آنا ميخايلوفنا — ونيكولاس الطالب في الجامعة ، ابن الكونت الأكبر — وسونيا بنت أخ الكونت البالغة خمسة عشر عاما — وبيتيا [1] الصغير ، أصغر أولاده — فاستقروا في غرفة الجلوس جميعاً ، وأخذوا يعالجون ، بشكل واضح ، أن يكبحوا ، في داخل إطار مايليق ، جماح المرح والانفعال الذي يومض ويسطع في وجوههم جميعاً . كان من الواضح أن الحديث في الغرف الخلفية التي أقبلوا منها ، مندفعين بهذا الانطلاق ، أكثر تشويقا من الحديث في غرفة الاستقبال عن فضائح المجتمع ، والجو ، والكونتيسة أبراكسينا . وأخذوا يترامقون بين الآونة والأخرى ، يوشك أن يعجزهم أن يكتموا بضحكهم .

كان الشابان : الطالب والضابط ، صديقين منذ الطفولة ، وهما في نفس السن ، كلاهما فتى وسيم ، وإن كانا غيرمتماثلين . كان بوريس طويل القامة ، أشقر ، ولوجهه الهادىء الوسيم قسمات رقيقة منتظمة . وكان نيكولاس قصيراً ، جعد الشعر ، طلق المحيا . ومن الآن تتبدى على شفته العليا شعيرات

---

(١) تصغير بيتر .

سود ، ووجهه كله يفصح عن الحماس وعن طبع متدفق جموح . وقد تضرج وجهه عندما دخل غرفة الاستقبال . وعالج ، بشكل جلى ، أن يجد شيئا يقوله لكنه أخفق . أما بوريس فقد أرسى قدميه على الفور ، وأخذ يحكى بهدوء ودعابة ، كيف عرف تلك العروسة ميمى عندما كانت ما تزال سيدة صغيرة جداً ، قبل أن تتكسر أنفها ، وكيف تقدم بها السن ولحقتها الشيخوخة فى خلال السنوات الخمس التى عرفها فيها ، وكيف انشرخت رأسها فى وسط الجمجمة تماما . ولما قال ذلك رمق ناتاشا بنظرة . فندّت عنه ، ونظرت إلى أخيها الصغير الذى كان يزم عينيه ويتميز بالضحك المكتوم ، فلما لم تطق أن تتمالك نفسها وثبت قائمة واندفعت خارجة من الغرفة بأسرع ما تطير بها قدماها الصغيرتان الخفيفتان . ولم يضحك بوريس . وسأل أمه باسما :

— كنت تريدين الخروج أليس كذلك ياماما ؟ هل تريدين العربة ؟

فأجابت ترد بابتسامة على ابتسامته :

— نعم ، نعم اذهب وقل لهم أن يهيئوها .

فقام بوريس بهدوء ، وبارح الغرفة وذهب يبحث عن ناتاشا . وجرى خلفهم الولد البضّ ، مغضباً ، كما لو كان قد أحنقه أن اضطرب البرنامج الذى أعدوه .

الفصل الثانى عشر

لم يبق من الصغار فى الحجرة إلا نيكولاس ، وسونيا ، بنت الأخ ، فيما عدا كبرى بنات الكونتيسة. وقد كانت هذه تكبر أختها بأربع سنوات، وتسلك من الآن سلوك شخص رشيد . أما سونيا فكانت سمراء صغيرة ، نحيلة العود ، تتخايل فى عينيها اللتين تسبل عليهما أهداباً طويلة ، نظرة رقيقة ، ولها ضفائر سوداء أثيثة تلتف مرتين حول رأسها . وفى بشرتها مسحة داكنة تتبدّى خاصة فى لون عنقها ، وذراعيها الرقيقتين ، على رشاقتهما وقوتهما .

كانت تذكّر المرء ، برشاقة حركاتها ، ونعومة أطرافها اللدنة ، وشيء من نَفْرة واستحياء وتحفظ في سلوكها ، بقطيطة حلوة لمّا تشبّ تماماً بعد ، واعدةً بأن تغدو قطة صغيرة جميلة . وكان واضحاً أنها ترى مما يليق أن تبدى اهتماماً بما يدور من حديث عام ، فتبتسم . ولكن عينيها بالرغم منها ، من تحت أهدابهما الطويلة الأنيقة ، كانتا ترقبان ابن عمها الذي كان على وشك الالتحاق بالجيش ، في هيام بناتيّ متدله مشبوب ، حتى لم تكد ابتسامتها تترك أثراً عند أحد ، لحظة واحدة ، وكان جلياً أن القطيطة إنما استكنت لحظة حتى تثب أشد تنزياً وحيوية ، وتلعب مع ابن عمها بمجرد أن يسعهما الإفلات من غرفة الاستقبال ، كما فعلت ناتاشا ، وبوريس .

قال الكونت للزائرة مشيراً الى نيكولاس :

— أي نعم ياعزيزتي ، أصبح صديقه بوريس ضابطاً ، ومن ثم فهو يترك الجامعة ويتركني أنا أبوه العجوز ، في سبيل الصداقة ، ويلتحق بالخدمة العسكرية ياعزيزتي . وكانت تنتظره وظيفة ، وكل شيء ، في مصلحة الأرشيف ..!

ثم قال الكونت بلهجة المتسائل :

— أليست هذه هي الصداقة ..؟

فأجابت الزائرة :

— ولكنهم يقولون أن الحرب أعلنت .

وقال الكونت :

— إنهم يقولون ذلك من زمن طويل ، وسيظلون يقولونه مراراً وتكراراً ، هذا كل ما في الأمر .

ثم أضاف :

— إنه سيلتحق بسلاح الفرسان . هذه هي الصداقة ، إن شئتِ الصداقة .

فهزت الزائرة رأسها ، فلم تكن تعرف ماذا تقول .

وهتف نيكولاس ، وقد انفجر بالقول ، وأشاح ببصره كما لو كان يشيح عن طعن مشين به :

— ليس هذا من الصداقة فى شىء . وإنما أحس ببساطة أن رسالتى هى فى الجيش .

ورمق بنت عمه ، والسيدة الصغيرة الزائرة ، وكانتا كلتاهما تنظران إليه بابتسامة تأييد ومساندة .

قال الكونت وهو يهز كتفيه ، ويتكلم فى لهجةٍ مداعبة وتهوين عن أمر لا شك يكربه :

— سيتعشى معنا اليوم شوبيرت ، وهو كولونيل بسلاح الفرسان فى بافلوجراد . فهو فى إجازة ، وسيأخذ نيكولاس معه . ولا حيلة لأحد فى ذلك ..!

فقال ابنه :

— قلت لك من قبل يا بابا إذا لم تكن تريدنى على أن أذهب ، بقيت . ولكنى أعرف أن لاجدوى منى فى أى مكان خارج الجيش ، فلست دبلوماسياً ، ولا موظف حكومة — لست أعرف أن أخفى ما أحسه .

وكان ، إذ يتكلم ، لايني يرمق سونيا ، والسيدة الزائرة الصغيرة ، بنظرة الشاب الوسيم الغزلي .

أما القطيطة الصغيرة التى كانت تجعل منه عيد عينها وبهجتهما ، فكانت تبدو على أهبة الاستعداد ، فى أية لحظة ، أن تستأنف معابثتها وأن تكشف عن طبيعة القطيطة فيها .

فقال الكونت العجوز :

— طيب طيب ..! إنه ينفجر دائماً . بونابرت هذا أدار رؤوسهم جميعاً . وكلهم يفكرون كيف ارتقى من صف ضابط وأصبح امبراطوراً .

ثم أضاف دون أن يلحظ ابتسامة الزائرة الساخرة :

ـــ طيب طيب ..! فليكن ، بإذن الله ..!

وبدأ الكبار يتكلمون عن بونابرت . والتفتت چولى كاراجين إلى روستوف الشاب :

ـــ خسارة أنك لم تأت إلى بيت أرخاروف يوم الخميس . كانت الحفلة مملة جداً من غيرك .

وهى تبتسم له ابتسامة رقيقة .

فازدهى الشاب ، واقترب بجلسته منها ، وهو يبتسم ابتسامة غزلة ، وأخذ يتحدث إلى چولى التى ماتنى تبتسم ، حديثاً حميماً ، دون أن يلحظ على الإطلاق أن ابتسامته تلك التى جاءت طواعية وعن غير عمد قد طعنت قلب سونيا ، فتضرجت وأخذت تبتسم بشكل غير طبيعى . وفى وسط الحديث التفت ينظر إليها . فخدجته بنظرة مشبوبة الغضب ، وأوشكت أن يعجزها كبح دموعها ، وأن تُبقى على ابتسامتها المصنوعة تلك فوق شفتيها ، فنهضت وتركت الغرفة . وتلاشت كل حيوية نيكولاس . وترصد أول وقفة فى الحديث ، ثم ترك الغرفة ، ووجهه مكروب حزين ، وذهب يبحث عن سونيا .

قالت آنا ميخايلوفنا ، تشير إلى نيكولاس وهو يخرج :

ـــ كيف يحمل هؤلاء الشبان جميعاً قلوبهم على أكفهم ، واضحة للعيان ...! العمومة جيرة خطرة ..! (١)

وقالت الكونتيسة ، وقد تبدد الإشراق والنور الذى أتى به إلى الغرفة هؤلاء الشبان :

ـــ نعم .

وكأنها تجيب سؤالا لم يسأله أحد ، وإن كان دائماً فى ذهنها :

---

(١) بالفرنسية فى الأصل : Cousinage, dangereux vo sinage.

— وكم من عذاب ، وقلق ، علينا أن نحتمل من أجلهم ، حتى نفرح بهم الآن ..! ومع ذلك فالقلق فى الحقيقة أعظم من الفرح . والمرء دائماً ، دائماً ، قلق من أجلهم ..! وخاصة الآن ، فى هذه السن ، وما أخطرها على البنات والأولاد جميعاً ..

فقالت الزائرة :

— كل شيء يتوقف على التربية .

وواصلت الكونتيسة كلامها :

— نعم . أنت محقة تماماً . وقد كنت حتى الآن بحمد الله صديقة لأولادى ، وهم يضعون فى كامل ثقتهم .

وأضافت . وهى تقع فى نفس الخطأ الذى يقع فيه الكثير جداً من الآباء والأمهات إذ يتصورون أن أولادهم لا يخفون عنهم سراً .

— وأنا أعرف أنى سأكون أول من تفضى إليه بناتى بسرّهن ، وأنه إذا لم يلق نيكولاس متاعب — ولا حيلة للأولاد فى ذلك — فهو لن يصبح على أى حال مثل هؤلاء الشبان فى بطرسبرج .

فوافقها الكونت :

— نعم ، هم أولاد مدهشون ، مدهشون .

كان يحلّ المسائل التى تبدو له محيرة بأن يرى كل شيء مدهشاً ، وعظيما :

— تصورى فقط . . يريد أن يدخل سلاح الفرسان . ماذا يفعل المرء يا عزيزتى ؟

وقالت الزائرة :

— يا لها من مخلوق ساحر ، بنتك الصغيرة . بركان صغير . . !

فقال الكونت :

— نعم ، بركان صغير حقاً . مثلى . . ! ويا له من صوت ، صوتها .

ورغم أنها بنق ، فانى لا أعدو الحق حينما أقول أنها ستصبح مغنية ، «سالامونى»[1] الثانية . . ! وقد تعاقدنا مع مدرس إيطالى ليعلمها . .!

— أليست صغيرة السن بعد ؟ سمعت أنه مما يضر الصوت أن يبدأ تدريبه فى هذه السن .

فأجاب الكونت :

— أبداً ، ليست صغيرة أبداً . . ! كانت أمهاتنا تتزوجن فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . .

وقالت الكونتيسة بابتسامة رقيقة ، وهى تنظر إلى أم بوريس :

— وهى تحب بوريس من الآن . تصورى . . !

ثم استطردت ، مشغولة الفكر بمسألة من الواضح أنها تلح عليها باستمرار :

— فاذا قسوت عليها ، وحظرت عليها ذلك . . فالله يعلم ماذا يفعلان خفية (كانت تقصد أنهما سيتبادلان القبل) أما الآن فأنا أعرف كل كلمة تقولها . وستأتى لى من تلقاء نفسها فى المساء ، وتقول لى كل شىء . ولعلنى أدللها ، ولكن يبدو لى حقاً أن هذه هى الخطة المثلى . كنت أكثر صرامة مع أختها الكبرى .

فقالت البنت الكبرى الجميلة ، الكونتيسة ڤيرا ، بابتسامة :

— نعم . كانت تربيتى مختلفة تماماً .

لكن الابتسامة لم تزد ڤيرا جمالا ، كما هو الشأن فى الابتسامات عامة ، بل على العكس أكسبتها مظهراً غير طبيعى ، ومن ثم غير لطيف . كانت ڤيرا جميلة ، وليست على الإطلاق بالغبية ، وسريعة إلى العلم ، وقد أُحسنت

---

(١) كانت «سالومونى» فى ١٨٠٥ المغنية والممثلة الأولى فى الفرقة الألمانية بموسكو .

تربيتها ، وكان لها صوت سار ، وكان ما قالته صادقاً ولائقاً ، ولكن الشيء الغريب أن الجميع — الكونتيسة والزوار على السواء — التفتوا إليها كما لو كانوا يتساءلون لماذا قالت ذلك ، وأحسوا جميعاً بالحرج .

وقالت الزائرة :

— الناس دائماً يبدون من الذكاء والمهارة أكثر مما ينبغي ، بإزاء أكبر أولادهم ، ويحاولون أن يجعلوا منهم شيئاً خارقاً .

وقال الكونت :

— ما فائدة الإنكار يا عزيزتي ؟ كانت الكونتيسة العزيزة أذكى وأمهر مما ينبغي مع ڤيرا . طيب ، ثم ماذا ؟

ثم أضاف وهو يغمز إلى ڤيرا :

— لقد أصبحتْ مدهشة مع ذلك .

نهض الزوار مودعين ، واعدين بالعودة للغداء .

وقالت الكونتيسة بعد أن ودعت زائريها :

— يا له من سلوك . . ! ظننت أنهم لن يذهبوا أبداً .

الفصل الثالث عشر

عندما خرجت ناتاشا تجرى من غرفة الاستقبال ، لم تذهب إلى أبعد من غرفة حفظ المؤن . حيث أقصرت ، ووقفت تصغى إلى الحديث الذى يدور فى غرفة الاستقبال ، تنتظر أن يخرج بوريس . وكان صبرها يشفى على النفاد ، وأخذت تنكت الأرض بقدميها ، على وشك البكاء إذ لم يأت على الفور ، حينما سمعت خطى الفتى المسترقة تقترب ، لاسريعة ولا متباطئة . وعندئذ مرقت ناتاشا مسرعة بين أصص الأزهار ، وهنالك اختبأت .

وقف بوريس فى وسط الغرفة ، ونظر حواليه ، ونفض شيئاً من

تراب علق بكم سترته ، وذهب إلى مرآة فتفحص وجهه الوسيم . ووقفت ناتاشا ، ساكنة جداً بلا حراك ، واسترقت النظر من مخبئها ، تنتظر ماذا يفعل . وقف قليلا أمام المرآة ، وابتسم . وسار صوب الباب الآخر . وأوشكت ناتاشا أن تناديه لكنها عدلت . وخطر لها : دعه يبحث عني . وما أن ذهب بوريس حتى دخلت سونيا من الباب الآخر ، مضرجة الوجه دامعة . تتمتم لنفسها غاضبة وكفت ناتاشا أول حافز عنّ لها أن تجري إليها ، وبقيت في مخبئها ، ترقب ما يجري في العالم ، كما لو كانت خفيّة لا تُرى ، كانت تمارس متعة جديدة غريبة . أما سونيا فظلت تنظر صوب باب غرفة الاستقبال ، وتتمتم لنفسها . وانفتح الباب وأقبل نيكولاس .

وقال وهو يجري إليها :

— سونيا ، ماذا جرى لك ؟ كيف حدث هذا ؟

فشهقت سونيا باكية :

— لا شيء ، لا شيء ، دعني . .

— نعم ، إنني أعرف ما هناك . .

— حسناً ، مادمت تعرف ، فتستطيع أن تعود إليها ...

فقال نيكولاس وهو يأخذ يدها :

— سو ـ و ـ ونيا ..! اسمعي . . ! كيف يمكنك أن تعذبيني وتعذبي نفسك بهذا الشكل ، لمجرد أوهام ؟

لم تسترجع سونيا يدها ، وكفت عن البكاء . وكانت ناتاشا لا تصدر عنها نأمة ، ولا تكاد تتنفس ، وهي ترقب ما يجري ، من مخبئها ، بأعين متألقة . وخطر لها : ماذا يحدث الآن ؟

قال نيكولاس :

— سونيا ..! لا أحد في العالم يساوي عندي شيئا . أنت وحدك عندي كل شيء ..! وسأثبت لك ذلك .

– لا أحبك أن تقول مثل هذه الأشياء .

– حسناً ، فلن أقولها إذن . سامحيني إذن ، سونيا ..!

وأخذها إليه ، وقبلها .

فخطر لناتاشا : ما أجمل هذا . ولما خرج نيكولاس وسونيا من الغرفة اقتفت حذوهما ، ونادت بوريس إليها .

وقالت بنظرة ماكرة لها دلالتها :

– بوريس ، تعال هنا . عندي ما أقوله لك . هنا ، هنا ..!

وأفضت به إلى غرفة المؤن ، إلى مخبئها بين أصص الأزهار .

فتبعها بوريس باسماً . وسألها :

– ماذا هناك ؟

فاضطرب عليها الأمر ، وأخذت تنظر حواليها ، ولما رأت الدروسة التي كانت قد رمت بها على أحد الاصص ، التقطتها ، وقالت :

– قبّل العروسة ..!

فنظر بوريس بامعان ولطف إلى وجهها المتوفز بالانفعال ، ولم يجب .

فقالت ، وهي تبعد بين الزهور وترمي بالعروسة :

– ألا تريد ؟ طيب ، تعال هنا .

وهمست :

– اقترب ، اقترب ..!

وأمسكت بالضابط الفتى من أكمامه ، وتبدت على وجهها المضرّج نظرة جد وخوف . وهمست بصوت لا يكاد يكون مسموعاً ، وهي ترمقه من تحت جفنيها ، باسمة ، تكاد تبكي من الانفعال :

– وأنا ؟ أتحب أن تقبلني ؟

تضرج وجه بوريس خجلا .

وقال وهو ينحني عليها ، ويتوهج تضرج وجهه :

— ما أغربك ..!

لكنه انتظر . ولم يفعل شيئا .

فوثبت فجأة فوق أحد الأصص ، حتى تعلو قامتها عليه . وعانقته حتى اشتبك ذراعاها الدقيقتان فوق عنقه ، ودفعت بشعرها إلى الوراء ، وقبلته على شفتيه .

ثم نزلت بين أصص الأزهار ، على الجانب الآخر ، ووقفت خافضة الرأس .

فقال :

— ناتاشا ، أنت تعرفين أنى أحبك . لكن ...

فقاطعته ناتاشا :

— تحبنى ؟

— نعم . لكن لا تفعل هذا ثانية ، أرجوك .. حتى أطلب يدك .

فتأملت ناتاشا المسألة .

وأخذت تعد على أصابعها الدقيقة الصغيرة :

— ثلاثة عشر ، أربعة عشر ، خمسة عشر ، ستة عشر .. حسناً ..! هذا مقرر إذن ؟

وسطع فى وجهها الشغوف نور ابتسامة فرح ورضا .

وأجاب بوريس :

— نعم ..!

وقالت البنت الصغيرة :

— إلى الأبد ..؟ حتى الموت ..؟

وأخذت ذراعه ، وصحبته إلى غرفة الجلوس المجاورة ، وقد بدت عليها السعادة .

الفصل الرابع عشر

بلغ الانهماك بالكونتيسة ، بعد استقبال زائريها ، أن أمرت بألا يُدخل إليها أحد بعد ذلك ، وإن كانت قد أخبرت البواب ألا يغفل دعوة كل من يأتى للتهنئة ، إلى الغداء . كانت الكونتيسة تريد أن تخلو إلى صديقة صباها ، الأميرة آنا ميخايلوفنا ، فتتحدث إليها على انفراد ، إذ لم يُتح لها أن تخلو إليها منذ عادت من بطرسبرج . واقتربت آنا ميخايلوفنا بوجهها اللطيف الذى تركت عليه الدموع آثار الكلال ، وأدنت كرسيها من الكونتيسة .

وقالت آنا ميخايلوفنا :

— سأكون معك صريحة غاية الصراحة . فلم يبق منَّا نحن الصحاب القدماء كثير ..! لذلك أقدر صداقتك حق قدرها .

ونظرت آنا ميخايلوفنا إلى ڤيرا . وصمتت . فضغطت الكونتيسة يد صديقتها . وقالت لكبرى بناتها ، وكان من الواضح أنها ليست بالأثيرة عندها :

— ڤيرا ، كيف تعوزك الكياسة إلى هذا الحد ؟ ألا ترين أنك غير مرغوب فيك هنا ؟ اذهبى للبنات الأخريات ، أو ...

فابتسمت ڤيرا الجميلة بازدراء ، وإن لم يبد عليها ، بالمرة ، أنْ قد أوذيت مشاعرها . وأجابت وهى تنهض لتذهب إلى غرفتها :

— لو أنك قلت لى ياماما من قبل ، لذهبت .

وعندما مرت بغرفة الجلوس ، رأت زوجين من الفتيان والفتيات ، كل منهما عند إحدى النافذتين . فوقفت وابتسمت باحتقار . كانت سونيا تجلس قريبة من نيكولاس وهو ينسخ لها شيئاً من الشعر ، أول ما كتب

منه . وكان بوريس وناتاشا عندالنافذة الأخرى ، فكفا عن الكلام عندما دخلت ڤيرا . ونظرت سونيا وناتاشا إلى ڤيرا وقد بدا على وجهيهما الحس بالإثم وبالسعادة .

كان لطيفاً وعس القلب مرأى هاتين البنتين الصغيرتين المحبتين . على أن مرآهما ، فيما يلوح ، لم يثر شعوراً بالرضا والارتياح عند ڤيرا . فقالت :

— كم مرة قلت لكم ألا تأخذوا أشيائي ؟ لديكم غرفة خاصة بكم .

وأخذت المحبرة من نيكولاس .

فقال وهو يغمس ريشته :

— لحظة واحدة ، لحظة واحدة .

واستطردت ڤيرا :

— دائماً تفعلون كل شيء في الوقت غير المناسب . جئتم تجرون إلى غرفة الجلوس ، حتى خجل الجميع منكم .

وعلى أنها كانت محقة تماماً فيما قالت ، وعساه لهذا السبب بالضبط ، لم يجب أحد بكلمة ، وأخذ الأربعة ينظرون إلى أحدهم الآخر . فلبثت في الغرفة ، متباطئة . والمحبرة في يدها :

— وفي سنكم هذه ، أي أسرار يمكن أن تكون بين ناتاشا وبوريس أو بينكما أنتما الاثنين ؟ هذا كله هراء ..!

فقالت ناتاشا مدافعة ، بصوت خفيض لطيف :

— ماذا يهمك أنت ياڤيرا من هذا كله ؟

كانت تبدو اليوم ألطف وأحنى قلباً نحو الناس جميعاً .

قالت ڤيرا :

— يالها من بلاهة . إنى خجلة منكم . أسرار ، حقيقة ..!

فأجابت ناتاشا وقد حميت قليلا :

— لكل أسراره . نحن لا نتدخل بينك وبين بيرج .

فقالت ڤيرا :

— بالطبع لا ، فلا يمكن أن يكون هناك خطأ أبداً في سلوكي . لكني سأقول لماما عن سلوكك مع بوريس .

قال بوريس :

— إن سلوك ناتاليا إيلنيشنا معي لاغبار عليه إطلاقا ولست أشكو من شيء .

وقالت ناتاشا بصوت مهيض حتى ليرتعش قليلا :

— كفى يابوريس ..! أنت ديبلوماسي بشكل متعب .

كانت تستخدم كلمة « ديبلوماسي » التي شاعت عندئذ بين هؤلاء الصبيان ، بالمعنى الذي يكسبونه إياها .

— لماذا تلاحقني هي بالمضايقات ؟

ثم التفتت إلى ڤيرا :

— لن تفهمي أنت أبداً هذا ، لأنك لم تحبي أحداً أبداً . لا قلب لك .. ! أنت لاشيء أكثر من مدام دي جينليس[1] (كانت هذه الكنية التي أطلقها نيكولاس على ڤيرا تعد لاذعة جداً) وأكبر ماترتاحين إليه أن تسببي الضيق للآخرين . اذهبي غازلي بيرج ماحلا لك ذلك .

قالتها بسرعة .

فقالت ڤيرا :

— لن أذهب على أي حال أطارد أحد الشبان أمام الزوار ...

قاطعها نيكولاس :

— طيب . فعلت الآن كل ما تريدين ، وقلت للجميع ما يسوءهم ، ونكدت عليهم . فلنذهب إلى غرفة الأطفال .

---

(١) مدام جينليس كاتبة فرنسية من ذلك العهد ، كانت شديدة الالحاح على أصول الكياسة وطرائق السلوك المهذب في المجتمعات .

فنهض الأربعة ، كسرب من الطيور المفزّعة ، وبارحوا الغرفة .

وقالت ڤيرا :

— قيل لى أنا مايسوء . لم أقل لأحد مايسوءه .

وصاحت أصوات ضاحكة من الباب :

— مدام دى چينليس ..! مدام دى چينليس ..!

فابتسمت ڤيرا الجميلة التى كانت تخلف عند كل من يلقاها أثراً مزعجاً غير مريح ، وواضح أن شيئاً مماقيل لها لم يخدش شعورها ، وذهبت إلى المرآة فسوت شعرها ومنديلها . وبدت ، وهى تراعى وجهها الوسيم ، أشد بروداً وأبلغ هدوءاً .

كان الحديث يطّرد ويتدفق ، فى غرفة الاستقبال .

قالت الكونتيسة :

— آه ياعزيزتى ، ولا أنا حياتى مفروشة بالورد . ألا أعرف أنا أن مواردنا لن تكفينا طويلاً ، فى هذا المستوى الذى نعيش فيه ؟ والخطأ كله على النادى ، وعلى طيبة قلبه . وهل نجد راحة ، حتى فى الريف ؟ مسرحيات ، صيد ، والله يعلم ماذا أيضاً ..! ولكن لانتكلم عنى أنا ، بل خبرينى كيف استطعت أن تفعلى كل شىء . كم أتعجب لك غالبا يا آنيت ، كيف تستطيعين فى هذه السن أن تذهبى جرياً ، وحدك ، فى عربة ، إلى موسكو ، إلى بطرسبرج ، إلى هؤلاء الوزراء ، وتعرفين كيف تعالجينهم جميعاً ..! مدهش هذا تماماً . كيف استطعت أن تسوى كل شىء ؟ لم أكن أنا أبداً مستطيعة أن أفعل ذلك .

فأجابت آنا ميخايلوڤنا :

— آه يا حبيبتى أدعو الله ألا تعرفى أبداً معنى أن تكونى أرملة لا موارد لها . وعندها ابن تحبه حتى الجنون ..!

وأضافت بشيء من الكبرياء :

— عندئذ تتعلم الواحدة أشياء كثيرة . هذه القضية علمتني الكثير . فعندما أريد أن أرى أحد هؤلاء الناس الكبار ، أكتب مذكرة : الأميرة فلانة ترغب في مقابلة فلان . ثم آخذ عربة ، وأذهب بنفسي مرتين . ثلاث . أربع مرات ، حتى أحصل على ما أريد . ولا يهمني ما قد يظنونه بي .

فسألت الكونتيسة :

— وإلى من ذهبت بشأن بوري ؟ أنت ترين أن ابنك أصبح من الآن ضابطاً في الحرس ، بينما يذهب نيكولاس ابني برتبة صف ضابط[1]. فليس هناك من يهتم بأمره . إلى من ذهبت إذن ؟

فقالت الأميرة آنا ميخايلوفنا بحماس ، وقد نسيت تماما كل ما لقيته وتحملته من إذلال حتى بلغت غايتها :

— الأمير فاسيلي . كان كريماً جداً . ووافق فوراً ، على كل شيء ، وذهب ليضع الأمر أمام الامبراطور .

فسألت الكونتيسة :

— وهل تقدمت السن بالأمير فاسيلي كثيراً ؟ لم أره منذ أن كنا نمثل معاً في المسرحيات التي كان يقدمها آل روميانتسوف . وأظنه نسيني . كان يغازلني في تلك الأيام .

قالتها باسمة .

وأجابت آنا ميخايلوفنا :

— هو دائماً كما كان ، لم يتغير ، يفيض وداً ولطفاً . ومنصبه لم يدر رأسه على الإطلاق . قال لي : « يؤسفني أنني لم أستطع إلا أداء هذا الشيء القليل من أجلك يا أميرتي العزيزة . إنني تحت أمرك ». نعم هو شخص

(١) كان صف الضباط شبانا متطوعين ، من عائلات طيبة في العالب ، لم يرتقوا بعد إلى مرتبة الضباط وإن كان مكانهم في الجيش مع الضباط ، لا مع العساكر .

مدهش، وقريب كريم جداً . ولـكن أنت تعرفين يا ناتالى كم أحب ابنى : إنني أفعل كل شىء فى سبيل سعادته ..!

واستأنفت آنا ميخايلوفنا بحزن ، وقد هبط صوتها :

— والأحوال معى قد ساءت حتى أصبح موقفى مخيفاً الآن . وقضيتي هـذه الفظيعة تستنزف كل ما عنـدى ، ولا تتقدم مع ذلك خطوة . أتصدقين ؟ ليس معى ، حرفياً . ولا مليم ، ولست أعرف كيف أعدّ لبوريس ما يحتاج إليه .

وأخرجت منديلها وأخذت تبـكى .

— أحتاج خمسمائة روبل ، وليس معى الا ورقة بخمسة وعشرين روبل .. تصورى موقفى .. وأملى الوحيد الآن فى الـكونت سـيريل ڤلاديميروڤيتش بيزوخوف . فاذا لم يساعد ابنه فى العماد — أنت تعرفين أنه أب بورى فى العماد — ويرتب له شيئا لمصاريفه ، ضـاع كل تعبي ... فلن أستطيع أن أهيىء له ما يحتاجه .

واغرورقت عينا الـكونتيسة بالدموع . وأمعنت الفـكر فى صمت .

وقالت الأميرة :

— غالباً ما تجيئنى الفـكرة ، ولعلها خطيئة يحاسبنى عليها الله ، أنه هذا هو الـكونت سـيريل ڤلاديميروڤيتش بيزوخوف ، يعيش فى كل هذا الثراء وحده كل الوحدة .. هذه الثروة الهائلة ... وما قيمة حياته ؟ عبء عليه ، أما بورى فحياته لما تـكاد تبدأ ..

قالت الـكونتيسة :

— لاشك أنه سيترك لبورى شيئا .

— الله أعلم يا عزيزتى ..! هؤلاء العظماء الأغنياء أنانيون جداً . ومع ذلك ، فسآخذ بوريس وأذهب لأقابله حالا ، وأكلمه بصراحة . فليظن الناس بى مايظنون ، لا يهمنى فى الحقيقة طالما كان مستقبل ابنى فى الميزان.

ونهضت الأميرة :

— الساعة الآن الثانية ، وأنتم تتغدون فى الرابعة . فليس لديك وقت إلا بالكاد .

وشأن سيدة عملية من بطرسبرج ، تعرف كيف تفيد من وقتها إلى أقصى حد ، أرسلت من يدعو لها ابنها ، وذهبت معه إلى الردهة .

وقالت للكونتيسة التى قامت تودعها حتى الباب :

— إلى اللقاء ياعزيزتى .

ثم همست حتى لا يسمعها ابنها :

— أدع لى ..!

وقال الكونت ، وهو يخرج من قاعة الطعام الى الردهة :

— ذاهبة أنت للكونت سيريل ڤلاديميروڤيتش ياعزيزتى ؟

ثم أضاف :

— إذا كانت صحته تحسنت ، فادعى بيير للغداء معنا . أنت تعرفين أنه جاء يزورنا هنا ، ورقص مع الأولاد . لا تنسى أن تدعيه ياعزيزتى . وسنرى كيف يدع تاراس اليوم . إنه يقول أن الكونت أورلوف لم يقدم أبداً مأدبة غداء كما ستكون مأدبتنا اليوم ..!

الفصل الخامس عشر

عندما كانت عربة الكونتيسة روستوفا ، وقد كانت تجلس فيها الأميرة آنا ميخايلوفنا وابنها ، تعبر الشارع المكسو بالقش ، وتستدير إلى الفناء الواسع أمام بيت الكونت سيريل فلاديميروفيتش بيزوخوف ، قالت الأم لابنها ، وهي ترفع يدها من تحت وشاحها القديم ، وتضمها برقة ، وخجل ، على ذراع ابنها :

ـــ يا عزيزي بوريس ، كن عطوفا وأبدِ معه اهتماما ، فالكونت

سيريل فلاديميروفيتش بيزوخوف هو أبوك فى العماد ، فى نهاية الأمر ، ومستقبلك يتوقف عليه . تذكر هذا ياعزيزى ، وكن لطيفاً معه ، كما تعرف حق المعرفة أن تكون .

فأجاب ابنها ببرود :

ــ لو أننى عرفت فقط أن هناك نتيجة ما ، سوى الإذلال ... ولكننى وعدت ، وسأفعل ، من أجلك .

وعلى أن البواب رأى عربة تقف فى المدخل ، فقد سألها ما إذا كان يريدان الكونت أو الأميرة ، بعد أن أمعن النظر إلى الأم وابنها ، وقد دخلا مباشرة من الشرفة الزجاجية ، دون أن يطلبا أن يعلن عن اسميهما ومرّا بين صفى التماثيل المقامة فى كواها ، وبعد أن نظر نظرة ذات مغزى إلى العباءة القديمة التي ترتديها السيدة . فلما سمع أنهما يريدان رؤية الكونت قال أن سعادته اليوم أسوأ حالا ، وأن سعادته لايستقبل الزوار بعد .

فقال الابن بالفرنسية :

ــ يحسن إذن أن نرجع .

وهتفت الأم بضراعة ، وقد وضعت يدها ثانية على ذراعه ، كأنما كانت هذه اللمسة لتطايبه ، أو تستثير نخوته :

ــ ياعزيزى ..!

ولم يزد بوريس ، بل نظر بتساؤل إلى أمه ، دون أن يخلع عباءته .

وقالت آنا ميخايلوفنا بلهجة لطيفة للبواب :

ــ اسمع ياصاحبي . أنا أعرف أن الكونت سيريل ڤلاديميروفيتش مريض جداً .. لهذا جئت ... فأنا من ذوى قرباه . ولن أثقل عليه ياصاحبي ... ولست أحتاج إلا أن أرى الأمير ڤاسيلى سيرجيفيتش : فهو يقيم هنا ، أليس كذلك ؟ فادخل إذن واعلن عن حضورى من فضلك .

فجذب البواب ، وهو غامض الوجه ، جرساً رن له صليل فى الدور

الملوى ، وأشاح عنها .

ونادى قائلا لخادم يرتدى بنطلونا ينزل حتى ما دون الركبة ، وحذاء ، وسترة فراك ، نزل يجرى على السلالم ، وأطل من على بسطة فى منتصف السلم :

— الأميرة دروبيتسكايا تريد أن ترى الأمير ڤاسيلى سيرجيڤيتش .

سوت الأميرة من طيات ردائها الحريرى المصبوغ أمام مرآة ڤينيسية كبيرة مثبتة فى الحائط ، وارتقت السلالم المكسوة بالسجاجيد ، فى نشاط وخفة ، بحذائها الذى أبلاه طول الاستعمال .

وقالت لابنها ، تستثير حماسه مرة أخرى بلمسة من يدها :

— ياعزيزى ، قد وعدتنى ..!

خفض الابن عينيه وتبعها بهدوء .

دخلا قاعة كبيرة ، يفضى أحد أبوابها الى الجناح الذى أفرد للأمير ڤاسيلى .

وكانت الأم وابنها قد بلغا منتصف القاعة ، وعلى وشك أن يسألا أى طريق يتخذان من خادم متقدم السن هب ناهضاً عند دخولهما ، عندما دار مقبض برونزى فى أحد الأبواب ، وخرج الأمير ڤاسيلى يرتدى جاكتة من المخمل وعلى صدره نجمة واحدة ، دأبه عندما يكون فى المنزل ، وهو يودع رجلا حسن الطلعة أسود الشعر . كان ذلك هو الطبيب الشهير من بطرسبرج ، الدكتور لوران .

وقال الأمير :

— إذن فهذا مؤكد ؟

أجاب الطبيب باللاتينية ، وهو يلثغ فى حرف الراء ، وينطق الكلمات بلهجة فرنسية :

— الخطأ شيمة الانسان ، أيها الأمير .

— حسناً ، حسناً ..

ولما رأى الأمير فاسيلي آنا ميخايلوفنا وابنها ودّع الطبيب بانحناءة، واقترب منهما بصمت، وبنظرة تساؤل. ولاحظ الابن أن تعبيراً عن الأسى العميق خيم فجأة على وجه أمه، فابتسم ابتسامة طفيفة هينة.

وقالت، كما لو لم تكن تحس بالنظرة الباردة المهينة التي يحدجها بها الأمير:

— آه أيها الأمير..! في أية ظروف حزينة كهذه نلتقي مرة أخرى..! وكيف حال مريضنا العزيز..؟

فحدّق إليها الأمير فاسيلي، وإلى بوريس، بتساؤل وتحيّر. وانحنى بوريس بأدب. فلم يجب الأمير فاسيلي على إنحناءته، والتفت إلى آنا ميخايلوفنا، يرد على سؤالها بحركة من رأسه وشفتيه تنم عن أنه لم يبق إلا أدنى أمل أمام المريض.

وهتفت آنا ميخايلوفنا:

— أهذا ممكن..؟ أوه، ما أهول هذا.. من المخيف أن يفكر المرء...

وأضافت مشيرة إلى بوريس:

— هذا ابني، فقد أراد أن يشكرك بنفسه.

وانحنى بوريس مرة أخرى بأدب.

— صدقني أيها الأمير، إن قلب الأم لن ينسى أبداً ما فعلت من أجلنا.

فقال الأمير فاسيلي، وهو يسوي أكمامه الموشاة بهدب من الدانتلا:

— يسرني أن كان في استطاعتي أن أؤدي لك خدمة يا عزيزتي آنا ميخايلوفنا.

قال ذلك، هنا في موسكو، لآنا ميخايلوفنا وقد أصبحت مدينة له بجميل، بلهجة، وأسلوب يتبدى فيهما مظهر من التعالي والأهمية أعظم

بكثير مما كان يبديه فى بطرسبرج ، فى حفلة آنا شيرر .

وأضاف متجهاً إلى بوريس ، بصرامة :

— حاول أن تؤدى عملك على أحسن وجه ، وأن تثبت جدارتك .

ثم استأنف بلهجة اللا مبالاة المعهودة عنه :

— إننى مسرور . . هل أنت هنا فى إجازة ؟

فأجاب بوريس ، دون أن يشى صوته لا بالضيق من أسلوب الأمير الجاف فى خطابه ، ولا برغبة ما فى أن يتجاذب معه الحديث ، بل بلهجة فيها من الهدوء والاحترام ما دعا الأمير أن يرمقه بنظرة فاحصة :

— إننى أنتظر الأوامر للحاق بفرقتى الجديدة يا صاحب السعادة .

— أتعيش مع والدتك ؟

فأجاب بوريس :

— إننى أقيم فى بيت الكونت روستوف .

ثم أضاف مرة أخرى :

— يا صاحب السعادة .

فقالت آنا ميخايلوفنا :

— مع إيليا روستوف الذى تزوج بناتالى شينشينا .

فأجاب الأمير ڤاسيلى بصوته الرتيب الملول :

— عارف عارف . لم أستطع أبداً أن أفهم كيف استقرت ناتالى على الزواج من هذا الجلف . . ! شخص غبي وسخيف للغاية ، ومقامر أيضاً كما يقال لى .

فقالت آنا ميخايلوفنا ، بابتسامة مؤسية ، كما لو كانت هى أيضاً تعرف أن الكونت روستوف خليق بهذا اللوم ، وإن كانت تطلب منه ألا يقسو على الرجل المسكين العجوز :

— لكنه رجل طيب جداً أيها الأمير .

ثم سألت بعد صمت وجيز ، ووجهها المرهق ينم مرة أخرى عن أسى عميق :

— ماذا يقول الأطباء ؟

فأجاب الأمير :

— ليس عندهم إلا أمل طفيف .

— وكم أحب أن أشكر أونكل مرة أخرى على عطفه وكرمه نحوى ونحو بوريس .

وأضافت :

— إنه أبوه فى العماد .

ولهجتها توحى أن هذه الحقيقة ينبغى أن يرضى لها الأمير فاسيلى رضاء عظيما .

فبدا على الأمير فاسيلى التفكير ، وعبس . ورأت آنا ميخايلوفنا أنه يخشى أن يجدها تنافسه فى ثروة الكونت بيزوخوف ، وسارعت تهدىء من مخاوفه .

وقالت :

— لولا حبى المخلص وولائى لأونكل ...

وهى تلفظ الكلمة الأخيرة باعتداد غريب ، ودون اهتمام .

— إننى أعرف خلقه ، نبيلا ، مستقيما ... ولكن لا أحد معه ، كما ترى ، إلا الأميرات الصغيرات . وما زلن صغيرات . . .

وأنغضت رأسها وواصلت حديثها بهمس :

— هل قام بأداء واجبه الأخير [1] أيها الأمير ؟ ما أثمن هذه اللحظات الأخيرة ..! فمن الضرورى جداً أن يستعد ، مادام مريضاً إلى

(١) المسح بالزيت المقدس عند الاحتضار .

هذا الحد ، ولن يضيره ذلك فى شىء إننا نحن النساء ، أيها الأمير . .

وابتسمت برقة :

— .. نعرف دائماً كيف نقول هذه الأشياء . ويجب علىّ ، ضرورةً ، أن أراه ، مهما كان ذلك يؤلمنى . إننى قد اعتدت المعاناة والآلام .

كان واضحاً أن الأمير يفهم مقصدها ، ويفهم أيضاً ، كما فعل فى حفلة آنا باڤلوڤنا ، أنه سيشق عليه التخلص من آنا ميخايلوڤنا .

— ألن يرهقه مثل هـذا اللقاء إرهاقاً شديداً ، يا عزيزتى آنا ميخايلوڤنا ؟ فلنرجئه حتى المساء ، فالأطباء ينتظرون أزمة .

— ولـكن لا مجال للتأخير ، أيها الأمير ، فى مثل هذه اللحظات . فـكر فى أن إنقاذ روحه فى الميزان ، آه .. ما أهول ذلك ، واجبات المسيحى ..

انفتح باب أحد الغرف الداخلية ، ودخلت إحدى الأميرات ، بنات أخ الـكونت ، وعلى وجهها تعبير بارد صارم . كان طول جسمها غير متناسق ، بشكل يسترعى النظر ، مع ساقيها القصيرتين . والتفت إليها الأمير ڤاسيلى :

— حسنا ، كيف حاله ؟

فقالت الأميرة وهى تنظر إلى آنا ميخايلوڤنا نظرتها إلى غريب :

— مازال كما هو ، وماذا تنتظر ، فى هذا الضجيج ...

قالت آنا ميخايلوفنا بابتسامة سعيدة ، وهى تخب بخفة إلى بنت أخ الـكونت :

— آه ، يا عزيزتى ، لم أكد أعرفك . هأنذا قد جئت ، وفى خدمتكم لأساعد فى تمريض عمى . إننى أعرف ماذا تحملتم .

وأدارت عينيها بعطف .

فلم تجب الأميرة ، ولم تبتسم ، حتى ، بل غادرت الغرفة على الفور . فنزعت آنا ميخايلوڤنا قفازها واحتلت الموقع الذى حصلت عليه ، واستقرت فى مقعد مريح ، ودعت الأمير ڤاسيلى أنه يتخذ لنفسه مجلساً بجانبها .

وقالت لابنها بوريس :

— بوريس ، سأدخل لأرى عمي الكونت ، ولكن يحسن يا عزيزي أن تذهب إلى بيير الآن ، ولاتنس أن تبلغه دعوة روستوف .

ثم استطردت ملتفتة إلى الأمير :

— لقد دعوه إلى الغداء ، وأفترض أنه لن يذهب ؟

فأجاب الأمير ، وقد حطت عليه كآبة ظاهرة :

— بالعكس . لن يسعدني شيء قدر أن تخلصيني من هذا الشاب... ها هو ذا هنا ، والكونت لم يسأل عنه مرة واحدة مع ذلك ..

هز كتفيه . ومضى خادم يسبق بوريس ، نازلا من أحد السلالم صاعداً سلماً آخر إلى جناح بيير .

الفصل السادس عشر

لم يوفق بيير ، بعد كل شيء ، في أن يختار لنفسه مهنة في بطرسبرج ، وطرد منها لسلوكه المعربد ، وأعيد إلى موسكو . كانت القصة التي حكيت عنه في بيت الكونت روستوف قصة حقيقية . وكان بيير قد أخذ بقسط في ربط عسكري البوليس بالدب . وكان في موسكو الآن ، منذ بضعة أيام ، يقيم كالمعتاد ، في بيت أبيه ، وبالرغم من أنه كان ينتظر أن تذيع في موسكو حكاية مغامراته ، وأن يفيد منها السيدات اللائي يلتففن بأبيه — ولم يكن في يوم من الأيام يعلن إليه بشيء من العطف — فيتخذنها ذريعة في غير صالحه ، فقد ذهب ، مع ذلك ، في يوم رجوعه بالذات ، إلى جناح أبيه في البيت . ودخل غرفة الاستقبال حيث تقضي الأميرات معظم وقتهن ، فحيّي السيدات ، وكانت إثنتان منهن جالستين الى إطارات التطريز ، بينما تقرأ الثالثة بصوت مرتفع . كانت كبراهن هي القارئة — تلك التي التقت بآنا ميخايلوفنا

أما الصغيرتان فتطرزان : كلتاهما جميلة موردة لا تفترقان إلا فى أن إحداهما لها شامة صغيرة على شفتيها تزيد من جمالها كثيراً .

واستقبل پيير كما لو كان جثة ، أو مجذوماً . كفت الأميرة الكبرى عن قراءتها وحملقت إليه صامتة ، بعينين مذعورتين ، أما الصغرى ذات الشامة فقد كانت مرحة متوثبة الطبع ، فانحنت على إطارها تخفى ابتسامة عساها قد انبعثت سلفاً عن المشهد الطريف الذى كانت تتطلع إليه ، وجذبت الصوف الذى تشتغل به من خلال القماش ، وقد أوشكت أن تعجز عن كف ضحكها ، وهى تنحنى كما لو كانت تتبين النموذج الذى تشتغل عليه .

قال پيير :

— كيف أنت يابنت العم ؟ ألا تعرفيننى ؟

— أعرفك حق المعرفة ، حق المعرفة .

فسأل پيير ، مرتبكا محرجاً ، دأبه ، وإن كان غير خزيان بالمرة :

— وكيف حال الكونت ؟ هل أستطيع أن أراه ؟

— إن الكونت يتألم ، جسمانيا ومعنويا . ويبدو أنك قمت بكل ما فى وسعك لتزيد من آلامه المعنوية .

فسأل پيير ثانية :

— هل أستطيع أن أرى الكونت ؟

— م . إذا كنت تريد أن تقتله ، أن تقتله دفعة واحدة ، فتستطيع أن تراه ..

وأضافت ، حتى تدخل فى روع پيير أنهن منشغلات ، عاكفات على توفير الراحة لأبيه ، بينما من الواضح أنه ، پيير ، لايشغله إلا أن يسبب له المتاعب :

— أولجا ، إذهبى فتحقق ما إذا كان حساء عمى قد أعدّ ، فقد جاء الميعاد تقريباً .

فخرجت أولجا . ووقف بيير ينظر إلى الأخوات ، ثم انحنى وقال :

— سأذهب إذن إلى شقتى . وتخطريننى متى يتاح لى أن أراه .

وغادر الغرفة ، يتبعه ضحك الأخت ذات الشامة ، خفيضاً وإن كان رناناً .

وكان الأمير فاسيلى قد وصل فى اليوم التالى ، واتخذ مقامه فى بيت الكونت . وأرسل فى طلب بيير ، وقال له :

— ياصاحبى العزيز ، لو أنك سلكت هنا كما فعلت فى بطرسبرج ، فستلقى مصيراً سيئاً جداً . هذا كل ما علىّ أن أقول لك . فالكونت مريض جداً ، جداً ، ولا يجب أن تراه على الاطلاق .

ومنذ تلك اللحظة لم يزعجه أحد ، وكان ينفق كل وقته فى جناحه ، فى الدور العلوى .

كان بيير ، عندما ظهر بوريس على بابه ، يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، يقف بين الحين والحين فى ركن ، ويأتى بحركات متوعدة أمام الحائط ، كما لو كان يسدد سيفاً يطعن به عدواً غير منظور ، ويحدق بوحشية ، من فوق نظارته ، ثم يستأنف سيره ، وهو يتمتم بكلمات غير مستبينة ، ويهز كتفيه ، ويشور بيديه .

قال وهو يعبس ، ويشير بأصبعه إلى شخص لا يُرى :

— انتهت انجلترا . أما مستر « پت » ، فبوصفه خائناً لأمته ولحقوق الإنسان فقد حكم عليه بـ . . .

وقبل أن يصدر بيير الحكم على پت ، وقد كان فى تلك اللحظة يتصور نفسه نابليون شخصياً ، وقد أتم ، على التو ، مهمة عبور مضايق دوفر ، على خطرها ، واستولى على لندن — قبل أن يصدر حكمه رأى ضابطاً شاباً وسيما وثيق البنيان يدخل غرفته . فكف بيير . كان قد غادر موسكو عندما كان بوريس صبياً فى الرابعة عشرة ، وكان قد نسيه تماماً . لكنه أخذ بوريس من يده بابتسامة ودودة ، بطريقته المألوفة ، فى ترحيب عفوى

مندفع صادر من القلب .

وسأله بوريس ، بهدوء ، وبابتسامة لطيفة :

— أتذكرنى ؟ لقد جئت مع والدتى لنرى الكونت ، ولكن يبدو أنه ليس فى خير حال .

وأجاب پيير ، وهو يحاول أن يتذكر هذا الشاب :

— نعم ، يبدو أنه مريض . والناس دائماً يقلقون راحته .

وأحس بوريس أن پيير لم يعرفه ، لكنه رأى من غير الضرورى أن يعرفه بنفسه ، وأخذ ينظر إلى پيير مواجهة دون أن يستشعر أدنى حرج .

ثم قال بعد صمت استغرق طويلا ، وأشعر پيير بحرج كبير :

— الكونت روستوف يدعوك إلى الغداء اليوم .

فهتف پيير بفرح :

— آه ، الكونت روستوف ، فأنت إذن ابنه إيليا ؟ تصوّر أننى لم أعرفك أول وهلة ، أتذكر كيف ذهبنا إلى تلال العصفور ، مع مدام چاكو ... ؟ كم من وقت فات ..

فقال بوريس ، متمهلا ، بابتسامة جسورة يشوبها شىء من سخرية :

— أنت مخطىء . أنا بوريس . ابن الأميرة آنا ميخايلوفنا درو بيتسكايا . أما روستوف الأب . فاسمه إيليا ، واسم ابنه نيكولاس . وأنا لم أعرف أبداً من هى مدام چاكو هذه .

فأخذ پيير يشور بذراعيه ، ويهز رأسه كما لو كان يهاجمه البعوض أو النحل :

— يا الله . فيم كنت أفكر ؟ لقد اختلط علىّ كل شىء . وما أكثر أقارب المرء فى موسكو ..! فأنت بوريس إذن ؟ بالطبع . حسناً ، ها نحن الآن نعرف أين نحن . وما رأيك فى حملة بولونيا ؟ لو أن نابليون عبر القنال ، لخرج الانجليز فى حال سيئة . وأعتقد أن هذه الحملة شىء ممكن

جداً . لو أن ڤيلنيف لم يفسد كل شيء ...

لم يكن بوريس يعرف شيئاً عن حملة بولونيا ، فلم يكن يقرأ الصحف ، وكانت تلك أول مرة يسمع فيها اسم ڤيلنيف .

وقال بلهجته الهادئة الساخرة :

— نحن هنا فى موسكو تشغلنا الفضائح ، وحفلات العشاء ، أكثر مما تشغلنا السياسة . فلست أعرف عنها شيئا ، ولم أفكر فيها قط .

واستطرد :

— إن موسكو مشغولة أساساً بالكلام فى سير الناس . وهم الآن يتكلمون عنك ، وعن أبيك .

فابتسم پيير ، بطيبة قلبه ، كما لو كان يشفق على زميله أن يقول شيئا يأسف فيما بعد لقوله . لكن بوريس كان يتكلم بوضوح ، وجلاء ، وجفاف ، وهو ينظر مواجهة فى عينى پيير .

واستطرد بوريس :

— ليس لموسكو ماتفعل الا الكلام فى سير الناس . وكل الناس تتساءل عمن سيترك له الكونت ثروته . وإن كان عساه يعمر أطول منا جميعاً ، كما أرجو ، بإخلاص ، أن يفعل ...

فقاطعه پيير :

— نعم ، هنا كل شيء فظيع جداً . فظيع جداً .

كان پيير مايزال مشفقاً أن يقول هذا الضابط شيئا يضع به نفسه موضع الحرج .

فقال بوريس ، وقد تضرج وجهه تضرجاً طفيفاً . وإن كان لم يغير من لهجته ولا من موقفه :

— ولا شك أنه يبدو لك ، لاشك أنه يبدو لك أن كل امرىء يسعى لأن يأخذ لنفسه شيئا من هذا الرجل الغنى ...؟

فخطر پيير :

— هذا بالفعل مايبدو لى .

— ولكنى أود أن أقول لك ، ببساطة ، حتى تتجنب كل سوء فهم ، أنك مخطىء أشد الخطأ لو أنك حسبتنى أو أمى فى عداد هؤلاء الناس . نحن فقراء جداً ، ولكنى أنا ، ومن جانبى على الأقل ، وبالضبط لأن أباك غنى ، لست أعتبر نفسى من ذوى قرباه ، ولن أسأله شيئا ، لا أنا ولا أمى ، ولن نأخذ منه شيئا على الاطلاق .

لم يستطع پيير ، فترة طويلة ، أن يفهم شيئا ، ولكنه عندما فهم ، وثب من الأريكة ، وأمسك بوريس من تحت مرفقه ، بطريقته المتعثرة الهوجاء ، وتضرج أكثر من بوريس بكثير ، وأخذ يتكلم بشعور من الخزى والضيق معا :

— حسناً ، هذا شىء غريب ..! أنفترض أنى .. من كان ليظن ..؟ أنى أعرف حق المعرفة ..

ولكن بوريس قاطعه مرة أخرى :

— يسرنى أنى أفصحت عما أريد قوله بوضوح تام . وعسى ذلك لم يعجبك ؟ فيجب عليك أن تعذرنى .

كان يهدىء من روع پيير ، بدلا من أن يكون پيير هو الذى يهدىء من روعه :

— لكنى أرجو ألا أكون قد جرحت مشاعرك .. إن من القواعد التى أسير عليها دائما أن أتكلم بوضوح تام ... حسناً . ما الرد الذى أرجع به ؟ هل تأتى للغداء فى بيت روستوف ؟

ويظهر أن بوريس كان قد أراح صدره من عبء واجب ثقيل ، وخلص نفسه من موقف معقد ، ليضع غيره فيه ، فعاد ، مرة أخرى ، شخصاً لطيفاً للغاية .

وقال پيير وقد فاء إلى الهدوء :

— لا . . الحقيقة أنك شخص مدهش . . ! إن ماقلته الآن شيء حسن ، حسن جداً . بالطبع أنت لا تعرفنى فنحن لم نلتق منذ زمن طويل جداً . . . منذ أن كنا أطفالا . ولعلك تظن أنى . . . إنى أفهم حق الفهم . لم أكن أنا لأستطيع أن أفعل هذا ، لم تكن لتتوفر لى الشجاعة ، لكن هذا عظيم . إنى سعيد جدا بأن تعرفت عليك .

ثم أضاف بعد لحظة صمت :

— غريب ، غريب أنك وضعتنى موضع الريبة ..!

ثم طفق يضحك :

— حسناً .. ثم ماذا ؟ أرجو أن نحسن معرفة أحدنا بالآخر .

وضغط على يد بوريس :

— أتعرف ، إنى لم أدخل ولا مرة ، لكى أرى الكونت . لم يرسل فى طلبى .. إنى آسف له جداً ، بصفته إنساناً ، ولكن ماذا بوسع المرء أن يفعل ؟

فسأل بوريس بابتسامة :

— وأنت تعتقد أن نابليون سينجح فى أن يعبر القنال ، بالجيش ..؟

رأى پيير أن بوريس يريد تغيير الموضوع ، ولما كان من رأيه . فقد أخذ يشرح مزايا وعيوب حملة بولونيا .

وجاء خادم يدعو بوريس . كانت الأميرة على وشك الخروج ووعد پيير أن يأتى للغداء ، حتى تتاح له أن يوثق معرفته ببوريس ، وضغط على يديه بحرارة ، وهو ينظر إليه من فوق نظاراته ، بمحبة ، فى عينيه . وبعد أن مضى ، استأنف غدوه ورواحه فى الغرفة ، فترة طويلة ، ولم يعد يطعن عدواً وهمياً بسيفه الوهمى ، بل يبتسم عندما يذكر هذا الشاب اللطيف الذكى القوى العزم .

وكما يحدث غالباً فى بكرة الشباب ، وبخاصة لأولئك الذين يحيون حياة مستوحشة وحدانية ، أحس بيير بمحبة لاتفسير لها لهذا الشاب، وقرّ عزمه على أن يصبحا صديقين .

خرج الأمير فاسيلى يودع الأميرة . كانت تضع منديلا على عينيها ، وكان وجهها تغمره الدموع . وهى تقول :

— هذا كثير .. فظيع ..! ولكن مهما كان الثمن الذى أدفعه ، فسأفعل واجبى ..! سآتى وأقضى الليلة هنا . يجب ألا يترك فى هذه الحال فكل لحظة الآن ثمينة . ولست أفهم لماذا أرجأت بنات أخيه هذا . ولعل الله يساعدنى على أن أجد وسيلة لإعداده وتحضيره ..! إلى اللقاء أيها الأمير ..! ساعدك الله ..

فأجاب الأمير فاسيلى ، وهو يشيح عنها :

— إلى اللقاء يا سق ..

قالت الأم لابنها عندما احتوتهما العربة :

— أوه . إن حالته فظيعة .. لا يكاد يعرف أحداً على الاطلاق .

وسألها الابن :

— لست أفهم ياماما — ماموقفه من بيير ؟

— سوف يظهر ذلك من الوصية ياعزيزى ، ومصيرنا أيضاً يتوقف عليها ...

— ولكن لماذا تنتظرين أن يوصى لنا بشىء على الاطلاق ؟

— آه ياعزيزى ، إنه غنى جداً ، ونحن فقراء جداً ..!

— لكن هذا لا يكاد أن يكون سبباً كافياً معقولاً ياماما ..!

فهتفت الأم :

— يالله ..! شد ما هو مريض ..!

الفصل السابع عشر

بعد أن مضت آنا ميخايلوفنا مع ابنها فى العربة لتزور الكونت سيريل فلاديميروفيتش بيزوخوف ، جلست الكونتيسة روستوفا وحدها طويلا ، ومنديلها يرتفع إلى عينيها بين الحين والحين . ثم رنّت الجرس فى النهاية ، وقالت للخادمة ، لأنها أبقتها تنتظر بضع دقائق :

— ما بالك يا عزيزتى ؟ ألا تريدين أن تبقى فى خدمتى ؟ إذن فألحقك بمكان آخر .

كان قد آلمت الكونتيسة هموم صديقتها ، وفقرها الذى يسومها الذل ، لذلك كانت منحرفة المزاج ، وهى حالة تجد عندها ، دائماً ، تعبيراً فى أن تدعو خادمتها : ياعزيزتى ، وأن تحدثها بأدب مغالى فيه .

فأجابت الخادمة :

— إننى آسفة جداً يا سيدتى .

— قولى للكونت أن يأتى .

جاء الكونت يخبّ ، ليرى زوجته ، وعلى وجهه كالمعتاد نظرة توشك أن تكون نظرة من اقترف ذنباً .

— نعم ، أيتها الكونتيسة الصغيرة ..! سنأكل الليلة لحماً « سوتيه » بنبيذ المادير .. مم ..! ذقتها ياعزيزتى . لم تكن الألف روبل التى دفعتها لتاراس فى غير موضعها . فهو يستحقها ..!

وجلس بجانب زوجته ، مرتفقاً ركبتيه ، ويداه تشعثان شعره الذى وخطه الشيب .

— ما طلباتك أيتها الكونتيسة الصغيرة ؟

— اسمع يا عزيزى ..

ثم قالت مشيرة إلى صدريه :

— ما هذه البقعة ؟

ثم أضافت بابتسامة :

— لعله اللحم « السوتيه » ، على أرجح الأحوال .. اسمع يا كونت .. أنا محتاجة لشيء من النقود .

وخيم على وجهها الحزن .

— أوه .. أيتها الكونتيسة الصغيرة ..!

وأخذ الكونت يبحث في جيوبه بانشغال ، ليخرج محفظته .

— أريد مبلغاً كبيراً يا كونت ..! أريد خمسمائة روبل .

وأخرجت منديلها الرقيق ، وأخذت تمسح صديري زوجها .

— نعم ، حالا ، حالا ..!

ثم نادى ، بتلك اللهجة التي لا تصدر إلا عن شخص موقن بأن ذلك الذي يناديه سوف يلبي النداء على الفور :

— هيه .. من هناك ؟ ابعث لي ديمتري ..!

كان ديمتري من عائلة طيبة ، وكان قد نشأ في بيت الكونت ، وأصبح الآن يدير كل أعماله ، فجاء الآن يخطو إلى الغرفة بخطى هادئة .

قال الكونت لهذا الشاب الذي تبدو عليه سمات الاحترام وهو يدخل الغرفة :

— هذا ما أريد يا صاحبي العزيز .. أحضر لي ..

ثم فكر لحظة :

— نعم ، أحضر لي سبعمائة روبل .. نعم نعم ولكن خل بالك .. لا تحضر لي مثل هذه الأوراق القذرة المهلهلة ، كتلك التي أحضرتها المرة الماضية ، ولكن ورق ظريف نظيف للكونتيسة .

وقالت الكونتيسة وهي تتنهد بعمق :

— نعم يا ديمتري ، ورق نظيف من فضلك .

سأل دمترى :

— متى تريدها ياصاحب السعادة . ؟ اسمح لى أن أخبرك ...لا تقلق .

وأضاف . بعد أن لاحظ أن الكونت أخذ يتنفس ، بمشقة ، أنفاساً سريعة ، وهى دائماً علامة الغضب الوشيك :

— كدت أنسى . . هل تريد أن أحضرها على الفور ؟

— نعم نعم بالضبط . . ! أعطها للكونتيسة .

وأضاف الكونت بابتسامة ، بعد أن مضى الشاب :

— يا له من كنز ، دمترى هذا . لا يوجد لديه « مستحيل » ، وهذا ما أمقت . كل شىء ممكن .

قالت الكونتيسة :

— آه النقود يا كونت ، النقود . . ! كم تسبب من آلام فى العالم . لكنى أحتاج لهذا المبلغ أشد الحاجة .

فقال الكونت :

— أنت يا كونتيستى الصغيرة متلافة شهيرة ..

ثم قبل زوجته ، وعاد إلى مكتبه .

فلما رجعت آنا ميخايلوفنا من عند الكونت بزوخوف ، كانت كل النقود ، أوراقاً نظيفة كلها ، معدة مهيأة ، موضوعة تحت منديل على مائدة الكونتيسة الصغيرة . ولاحظت آنا ميخايلوفنا أن شيئاً يثير انفعالها .

سألتها الكونتيسة :

— نعم يا عزيزتى . . ؟

— أوه ، ما أهول حالته ..! لا يكاد المرء يعرفه ، ما أشد مرضه ..! لم أبق معه إلا بضع لحظات ، ولم أكد أقول كلمة ..

وقالت الكونتيسة :

— آنيت ، لا ترفضى واقه ..

وقد تضرجت فبدا احمرار الخجل غريباً شديد الغرابة على وجهها النحيل الوقور الذى يميل نحو الشيخوخة ، وأخذت النقود من تحت المنديل .

وأدركت آنا ميخايلوفنا مقصدها على الفور ، فانحنت حتى يتاح لها أن تعانق الكونتيسة عندما تأتى اللحظة المناسبة :

ــ هذا من أجل بوريس ، من أجل إعداد نفسه .

كانت آنا ميخايلوفنا قد عانقتها بالفعل ، وهى تبكى . كانت الكونتيسة تبكى أيضاً . كانتا تبكيان لأنهما صديقتان ، ولأنهما رقيقتا القلب ، ولأنهما ــ وهما صديقتان منذ الطفولة ــ تضطران إلى التفكير فى شىء حقير كالنقود ، ولأن شبابهما قد ولى . . لكن هذه الدموع ، لهما كلتيهما ، كانت دموعاً مريحة لطيفة ..

الفصل الثامن عشر

كانت الكونتيسة روستوفا تجلس من الآن فى غرفة الاستقبال ، مع بناتها ، وعدد كبير من الضيوف . وكان الكونت يأخذ الضيوف إلى مكتبه ويريهم مجموعته المنتقاة من الغلايين التركية . وكان يخرج بين الحين والحين ليسأل «ألم تأت بعد ؟» كانوا بانتظار ماريا دمتريفنا آخروسيموفا، المعروفة فى المجتمع باسم « التنين الرهيب » ، وهى سيدة لا تمتاز بالثروة أو المرتبة ، بل بالتعقل وحسن الإدراك ، والبساطة الصريحة فى الكلام . كانت العائلة الامبراطورية تعرف ماريا دمتريفنا ، وتعرفها موسكو كلها ، وبطرسبرج . والمدينتان جميعاً فى عجب لها ، تضحكان حلسة من وقاحتها ، وتحكيان عنها حكايات شائقة ، وإن كان الجميع ، دون استثناء ، يحترمونها ويخافونها .

كان الضيوف فى غرفة الكونت الملبدة بالدخان . يتكلمون عن الحرب ، وقد أعلنت فى منشور صدر لهذا الغرض، وعن حركة التجنيد . لم يكن أحدهم قد رأى المنشور بعد ، ولكنهم يعرفون جميعاً أنه قد صدر . وجلس الكونت على الأريكة بين ضيفين يدخنان ، ويتكلمان . ولم يكن يدخن ولا يتكلم ، بل يميل برأسه إلى أحد الجانبين ، ثم إلى الجانب الآخر ، يرقب المدخنين بسرور واضح ، ويصغى لحديث جاريه ، ويحرض أحدهما على الآخر .

كان أحدهما مدنياً باهت اللون حليقاً نحيل الوجه مجعده ، وقد أخذ ينحدر من الآن نحو الشيخوخة ، وإن كان يرتدى ملابس آنق الشبان طراً . وكان يجلس وساقاه فوق الأريكة ، كما لو كان فى بيته تماماً ، وقد دفع بمبسم من العنبر بعيداً فى داخل فمه ، وأخذ ينشق الدخان فى عصبية، ويزوى عينيه . كان ذلك شينشين ، وهو عزب عجوز من أقارب الكونتيسة، وكان رجلا لاذع اللسان ، كما كان يقال فى مجتمع موسكو . وكان يبدو أنه متعال يتنازل بالحديث إلى زميله . أما الأخير فكان ضابطاً من الحرس ، مورداً غض الشباب ، بدا وقد اغتسل ، ومر بالفرشاة على شعره وملابسه ، وعنى بإحكام تزريرها، على نحو لا تشوبه أدنى شائبة ، وكان يمسك بغليونه فى وسط فمه ، وشفتاه الحمراوان تنشقان الدخان بلطف ، وتخرجانه من فمه القسيم، فى حلقات . كان ذلك كله هو اللازم بيرج ، وهو ضابط فى فرقة سيمنوف ، ذلك الذى سيسافر معه بوريس ليلحق بالجيش ، وهو الذى كانت ناتاشا قد عاكست أختها الكبرى ڤيرا بشأنه ، وتكلمت عنه بصفته « موعودها » وكان الكونت يجلس بينهما ، ويصغى بانتباه . كانت هوايته المحببة ، عندما لا يلعب «البوسطون» ، وتلك لعبة ورق هو مولع بها جداً ، أن يصغى للحديث . خاصة إذا نجح فى أن يسلط متكلمين طليقى اللسان أحدهما على الآخر .

قال شينشين ، وهو يضحك بسخرية ، ويخلط بين أشيع العبارات الروسية وأكثرها ابتذالا ، وأنق العبارات الفرنسية وأصفاها ، فقد كان ذلك من خصائص كلامه :

— طيب يا أخى ، يا عزيزى الموقر جداً ألفونس كارلوفيتش ، فأنت تنتظر أن تحصل على دخل لك ، من أموال الدولة ، وتريد أن تكسب مالا من فصيلتك فى الجيش ؟

— لا يا پيتر نيكولايڤتش، كل ما أريد أن أقول أن مزايا الفرسان أقل بكثير من مزايا المشاة . تأمل موقفى أنا الآن ، يا پيتر نيكولايڤتش .

كان بيرج يتكلم دائما بلهجة مهذبة ، هادئة ، وبدقة بالغة. وكان حديثه دائما يدور عن نفسه ، فهو يبقى هادئا صامتا إذا دار الحديث عن أى موضوع لاصلة له مباشرة بنفسه . وكان بوسعه أن يبقى صامتا ساعات دون أن يحس بأدنى حرج ، أو يُشعر به غيره ، وما أن يبدأ حديث يتعلق بنفسه ، حتى يأخذ يتكلم باسهاب وتفصيل مدعم بالقرائن والأدلة ، وفى رضى جلىّ .

— تأمل موقفى يا پيتر نيكولايڤتش ، فلو أننى كنت فى الفرسان لما حصلت على أكثر من مائتى روبل كل أربع شهور ، ولو كنت فى رتبة اللازم ، أما الآن فأحصل على مائتين وثلاثين .

ونظر إلى شينشين والكونت ، بابتسامة بهيجة لطيفة ، كما لو كان من الواضح فى عينيه أن نجاحه . لاشك ، هو أعز رغبات كل الناس .

واستطرد بيرج :

— ثم أننى عندما أحوّل إلى الحرس ، ياپيتر نيكولايڤتش ، أحتل مكاناً أبرز . ويكثر وجود الدرجات الخالية فى الحرس المشاة . ثم فكر ماذا يمكن أن يفعل المرء بمائتى وثلاثين روبل ..! بل إننى أستطيع أن أضع شيئاً على جنب ، وأن أرسل شيئاً لأبى ..!

وهو يطلق من فمه حلقة دخان .

فقال شينشين ، وهو يحرك غليونه إلى الجانب الآخر من فمه ، ويغمز بعينيه للكونت :

— وتتزن الميزانية . . إن المثل يقول : الألمانى يعرف كيف يسلخ الحجر الصوان .. .

فانفجر الكونت ضاحكا . ولما رأى الضيوف الآخرون أن شينشين يتكلم ، اقتربوا ليسمعوا . أما بيرج ، فلم يستشعر من زميله لا السخرية ولا عدم المبالاة ، وواصل شرحه عن كيف أنه ، لما حوّل نفسه إلى الحرس ، ارتقى ، من الآن ، درجة على زملائه فى سلك صف الضباط ، وكيف أن قائد السرية ، فى الحرب ، قد يموت ، وأنه عساه ، بصفته أقدم ضباط السرية ، يأخذ منصبه دون عناء ، وكيف أن أباه راض عنه . وكان واضحاً أن بيرج يستمتع برواية ذلك كله . ولا تبدو عليه شبهة الظن بأنه عسى يكون للآخرين أيضاً اهتماماتهم الخاصة . على أن كل ما كان يقول ، يقوله برصانة حلوة محببة ، وكانت السذاجة فى أثرته الفتية ، من الوضوح ، حتى كان ذلك ينتزع كل سلاح من أيدى مستمعيه .

فقال شينشين وهو يربت كتفه ، ويرفع قدميه فينزلهما من على الأريكة :

— طيب يا بنى ، سيكون لك مستقبل آتى ذهبت ، على قدميك أو على حصان .

فابتسم بيرج ابتسامة بهيجة مرحة ، ومضى الكونت يتبع ضيوفه إلى غرفة الاستقبال .

* * *

كانت تلك هى اللحظة التى تسبق الغداء الضخم ، حيث يتجمع الضيوف

ينتظرون الدعوة إلى «الزاكوسكا»[1]، فهم يتجنبون الدخول فى أى حديث يطول، لكنهم يرون من الضرورى أن يتحركوا هنا وهناك، ويتكلموا، حتى يُظهروا أنهم ليسوا على الإطلاق متعجلين طعامهم. وينظر المضيف والمضيفة فى اتجاه الباب، ويرمقان أحدهما الآخر بين لحظة وأخرى، ويحاول الضيوف أن يحدسوا من هذه النظرات، من ينتظران، أو ماذا ينتظران — أهو شخص هام من ذوى القربى لم يصل بعد، أو طبق لم يتم إعداده.

كان پيير قد وصل وقت الغداء بالضبط، وكان يجلس محرجاً مضطرباً فى وسط غرفة الاستقبال، وجلس فى أول كرسى صادفه، يسد الطريق أمام الجميع. وحاولت الكونتيسة أن تحمله على الكلام، لكنه ظل ينظر حواليه، بسذاجة، من خلال نظارته، كما لو كان يبحث عن شخص ما، ويجيب على كل أسئلتها باجابات من كلمة واحدة. كان يعوق الطريق، وكان الشخص الوحيد الذى لا يدرك هذه الحقيقة.

وكان معظم الضيوف، وقد عرفوا حكاية الدب، ينظرون بفضول إلى هذا الرجل الضخم الممتلىء، ويعجبون كيف أن مثل هذا الشخص المتواضع المرتبك يمكن أن يكون قد قام بتلك اللعبة مع أحد رجال البوليس.

سألته الكونتيسة:

— هل وصلت الآن فقط؟

فأجاب وهو ينظر حواليه:

— نعم يا سيدتى.

---

(١) الزاكوسكا «القمة الصغيرة» هى المشهيات، وتكون حسب الظروف من مجموعة منوعة من الكافيار، والسمك المملح، والجبن، والفجل، ونحو ذلك مع كؤوس صغيرة من الفودكا وغيرها من أنواع الخمر. وتوضع عادة على مائدة صغيرة وتتخذ لشحذ الشهية.

— ولم تر زوجى بعد ؟

— لا يا سيدتى .

وابتسم ابتسامة لا موضع لها البتة .

— كنت فى باريس أخيراً ، فما أعتقد ؟ أظن أنها شائقة .

— شائقة جداً .

فتبادلت الكونتيسة النظرات مع آنا ميخايلوفنا . وفهمت هذه أنه يُطلب منها أن تعنى بهذا الشاب ، فجلست إلى جانبه ، وأخذت تتكلم عن أبيه . لكنه لم يكن يجيب على أسئلتها ، كما فعل مع الكونتيسة ، إلا بكلمات وحيدة . كان الضيوف الآخرون جميعاً يتحادثون . ويسمع من كل الجوانب : « عند آل راموزوفسكى . . . كان ذلك مدهشاً . . . أنت كريم جداً ... الكونتيسة أبرا كسينا ... » . ونهضت الكونتيسة وذهبت إلى غرفة الرقص .

وجاء صوتها من هناك :

- ماريا دمتريفنا ؟

وأتتها الإجابة بصوت خشن :

— بنفسها .

ودخلت ماريا دمتريفنا الغرفة .

نهضت كل الآنسات غير المتزوجات ، بل والسيدات المتزوجات أيضا ، فيما عدا أكبرهن سناً على الإطلاق . ووقفت ماريا دمتريفنا لحظة على الباب.

كانت طويلة القامة ، ممتلئة ، ترفع رأسها عالياً ، بسنيها الخمسين ، وجدائل شعرها المجعدة . وأخذت تمحص النظر إلى الضيوف ، وتسوى أكمامها الواسعة ، على مهل وفراغ بال . كانت ماريا دمتريفنا تتكلم الروسية دائماً .

وقالت بصوتها المرتفع ، الممتلىء النبرات ، الذى أغرق سائر الأصوات

— أدعو بالصحة والسعادة لتلك التي تحتفل بعيدها اليوم ، ولأولادها .

ثم استطردت ، ملتفتة إلى الكونت الذي كان يقبل يدها :

— حسناً ، أيها الخاطيء العجوز . أنت تشعر بالسأم في موسكو أليس كذلك ؟ لا مكان للصيد بكلابك ؟ ولكن ماذا تعمل يا عجوز ؟ أنظر كيف تكبر هذه الفراخ ؟

وأشارت إلى البنات :

— ينبغي أن تبحث لهن عن عرسان ، سواء راقك هذا أولم يرقك .

ثم قالت :

— طيب ، وكيف حال قوزاقيق ؟

(كانت ماريا دستريڤنا تسمى ناتاشا دائماً بالقوزاقية) . وربتت ذراع الصبية التي أقبلت . في مرح ودون خوف ، لتقبل يدها :

— إنني أعرف أنها بنت شقية ، لكنها تعجبني .

أخرجت من حقيبتها القماشية الهائلة قرطاً من العقيق على شكل الكمثرى . وأعطته لناتاشا التي تورد وجهها وسطع بفرحة عيدها[1] .

ثم استدارت على الفور والتفتت إلى پيير .

وقالت له بنبرة ناعمة مرتفعة :

— هيه ، هيه ، يا صاحبي . . ! تعال هنا قليلا . . تعال يا صاحبي . .

وشمرت عن كمها ، على نحو منذر بالخطر . فاقترب پيير وهو ينظر إليها بطريقة طفلية ، من خلال نظارته :

— اقترب ، اقترب يا صاحبي . ! كنت أنا الوحيدة التي تصدق أباك

---

(١) كان كل الروس يتسمون بأسماء أحد القديسين في تقويم الكنيسة ، وكان عيد ذلك القديس هو عيد صاحب اسمه ، يحتفل به كما يحتفل بأعياد الميلاد .

القول عند ما كان أميراً فى البلاط ..! وذلك ، فى حالتك ، من واجبى ، بشكل واضح .

وكفت لحظة . وصمت الجميع ، ينتظرون ما يأتى ، فقد كان واضحا أن تلك ليست إلا مقدمة .

— ولد عظيم ..! بشرفى ..! ولد عظيم ..! أبوه على فراش الموت ، وهو يسلى نفسه بأن يضع عسكرى بوليس على صهوة دب .. ! يا للعار يا سيدى يا للعار ..! كان خيراً لك أن تذهب للحرب .

والتفتت عنه ، وأعطت يدها للكونت ، وقد كان يوشك أن يعجز عن المكابحة بالضحك .

وقالت ماريا دمتريفنا :

— طيب ، أظن أنه يحسن الآن أن نجلس إلى المائدة ؟

فدخل الكونت أولاً مع ماريا دمتريفنا ، وتبعته الكونتيسة ، ذراعها فى ذراع كولونيل من الفرسان ، وهو رجل له عندهم أهمية ، فقد كان على نيكولاس أن يذهب معه إلى فرقته . ثم جاءت آنا ميخايلوفنا مع شينشين . وأعطى بيرج ذراعه لفيرا ، ودخلت جولى كاراجين ، باسمة ، مع نيكولاس . وتبعهم الآخرون ، علأون قاعة الطعام كلها ، ثم جاء فى النهاية الأطفال ، والمدرسون والمربيات ، وقد دخلوا فرادى . وأخذ الخدم يتحركون ، والكراسى يصدر عنها صرير ، وبدأت الأوركسترا تعزف ، فى الشرفة ، واستقر الضيوف فى أماكنهم . ثم حلت محل أنغام أوركسترا الكونت الخاصة ، قعقعة السكاكين والأشواك ، وأصوات الزوار ، وخطى الخدم الهادئة . كانت الكونتيسة تجلس إلى أحد طرفى المائدة وعلى يمينها ماريا دمتريفنا . وعلى يسارها آنا ميخايلوفنا ، والزائرات الأخريات بعد ذلك . وكان الكونت يجلس إلى الطرف الآخر ، على يساره كولونيل الفرسان . وشينشين ، والزائرون الآخرون إلى يمينه . وفى وسط المائدة

الطويلة ، إلى أحد الجانبين . اتخذ الشبان الكبار مجالسهم ، فيرا إلى جانب بيرج ، وبيير إلى جانب بوريس .وجلس إلى الجانب الآخرالأطفال والمدرسون والمربيات .

وظل الكونت ، من خلف الأباريق البلورية ، وأوانى الفاكهة ، يرمق زوجته ، وقبعتها الطويلة ذات الشرائط الزرقاء الفاتحة ، ويعكف على ملء كؤوس جيرانه ، دون أن يغفل كأسه . وكانت الكونتيسة بدورها ، من غير أن تهمل واجبات المضيفة ، تلقى بنظرات ذات دلالة إلى زوجها ، من خلف الأناناس . وكان وجهه ورأسه الأصلع يبدوان باحمرارهما ، أظهر تناقضاً مع شعره الذى وخطه المشيب . وفى الطرف الذى تجلس فيه السيدات ، كانت تسمع ثرثرة أصوات متعادلة تجرى على نسق واحد طول الوقت ، أما فى الطرف الذى يجلس إليه الرجال فقد كانت الأصوات تطّرد ارتفاعا . وعلى الأخص صوت كولونيل الفرسان ، فقد ازدادت حمرة وجهه تضرجاً ، وأخذ يأكل ويشرب ، حتى كان الكونت يتخذه لضيوفه قدوة ينبغى أن تُحتذى .

وكان بيرج، يقول لفيرا بابتسامة حانية ، أن الحب ليس شعوراً أرضياً بل سماويا . وكان بوريس يقول لصديقه الجديد بيير عمن هم الضيوف ، ويتبادل النظرات مع ناتاشا التى كانت تجلس قبالته . كان بيير يتكلم قليلا ، وإن كان يتفحص الوجوه الجديدة ، ويأكل كثيراً . واختار من صنفى الحساء حساء الترسة بالفطائر الصغيرة اللذيذة، ثم مضى إلى لحم الصيد دون أن يغفل طبقاً واحداً ولا نوعاً واحداً من أنواع الخمور. وكان الساقى يدفع بهذه الخمور ، فى خفة ، أمام الضيوف ، ملفوفة فى الفوط البيضاء ، من خلف كتف الرجل التالى ويهمس : « نبيذماديرا جاف » أو «مجرى» أو « نبيذ من الراين » ، حسب الأحوال . وكان بيير يمسك كيفما اتفق بأى من الكؤوس البلورية الموضوعة أمام طبقه ، والمنقوشة بالحروف

الأولى من اسم الـكونت ، ويشرب باستمتاع ، ويحدق ، بشعور متزايد من الود واللطف ، إلى الضيوف الآخرين . وكانت ناتاشا التى تجلس قبالته ، تنظر إلى بوريس كما تنظر الفتيات فى الثالثة عشرة إلى الولد الذى يحببنه ، والذى قبلنه للمرة الأولى . وكانت تلك النظرة نفسها تقع أحياناً على پيير ، فـكانت نظرة البنت الغريبة الصغيرة تميل به إلى أن يضحك ، دون أن يعرف لذلك من سبب .

كان نيكولاس يجلس على شىء من البعد من سونيا ، إلى جانب چولى كاراجين ، وكان يحدثها ، ثانية ، بنفس الابتسامة غير المقصودة . وكانت سونيا تبتسم ابتسامة اجتماعية ، وإن كانت الغيرة تعذبها ، بشكل واضح ، فـكان وجهها يشحب أحياناً ثم يتضرج ، وتشد كل عصب من أعصابها لتسترق السمع إلى ما يتبادل نيكولاس وسونيا من حديث . وكانت المربية لا تفتأ تدير النظر حوالها بقلق ، كما لو كانت تتخذ أهبتها لأن تثور لأية إهانة طفيفة قد تلحق بالأولاد . وكان المدرس الألمـانى يعالج أن يتذكر أسماء كل أنواع الطعام ، والخمور ، وأصناف الحلوى ، حتى يرسل وصفاً كاملا للغداء إلى أهله فى ألمـانيا ، وأحس بامتهان شديد عند ما مر به الساقى ، مرور الـكرام ، وفى يده زجاجة مدثرة بفوطة ، فعبس محاولا أن يبدو كما لو لم يكن ليرغب فى ذلك النوع من الخمر ، ولـكنه كان يستشعر المهانة لأن أحداً لن يدرك أنه إنما كان يرغب فيه ، لا عن نهم أو إرواء لغلة عطشه ، بل عن رغبة فى المعرفة يمليها الواجب ونوازع الضمير .

الفصل التاسع عشر

كان الحديث يحمى ويطـّرد حدة عند جانب الرجال من المائدة . وكان الـكولونيل يقول لهم إن منشور إعلان الحرب قد صدر بالفعل فى بطرسبرج وأن نسخة منه ، رآها بنفسه ، قد قام بها رسول إلى القائد العام.

فقال شينشين .

— ولماذا بالشيطان سنحارب بونابرت ؟ لقد أوقف ثرثرة النمسا ، وأخشى أن يكون قد جاء دورنا .

كان الكونت ألمانياً جسيما طويلا وافر البدن مكظوظ الوجه بالهم ، وواضح أنه شديد الولاء للجيش ، وروسى مضطرم الوطنية . فلم ترق له ملاحظة شينشين .. وحنق لها .

وقال بلهجة ألمانية :

— ذلك يا سيدى العزيز ، بسبب أن الأمبراطور يعرف ذلك . فهو يعلن ذلك فى المنشور أنه لا يستطيع أن ينظر بغير اهتمام إلى الخطر الذى يتهدد روسيا ، وأن أمن الأمبراطورية وكرامتها ، وقداسة أحلافها ...

وقال الكلمة الأخيرة بضغط خاص ، كما لو كان فيها لب المسألة .

ثم ألقى كلمات مقدمة المنشور ، بذاكرة الموظف التى لا تخطىء والتى يمتاز بها :

« وإن رغبة الأمبراطور التى تشكل هدفه الوحيد المطلق ، فى إقرار السلام فى أوربا على أسس وطيدة ، قد حملته على أن يرسل جزءاً من الجيش إلى الخارج ، وأن يوفر الظروف الجديدة لتحقيق هذا الهدف . »

واختتم كلامه وهو يشرب قدحاً من النبيذ ، فى وقار ، وينظر إلى الكونت طلباً لتأييده :

— هذا يا سيدى العزيز هو السبب . . .

فقال شينشين وهو يقطب حاجبيه ويبتسم ، متنقلا ، طوال حديثه بين الروسية والفرنسية :

— أتعرف المثل القائل «جيروم جيروم ، لا تطوّف بالبلاد ، بل أدر مغازلك فى عقر دارك » إنه ينطبق علينا أدق انطباق . خذ سوفوروف مثلا . كان يعرف شغله ومع ذلك فقد هزموه شر هزيمة ، وأين لنا

الآن بسوفوروف ؟ إننى أسألك .

فقال الكولونيل وهو يخبط المائدة :

— يجب أن نحارب حتى آخر قطرة من دمنا .. ! ويجب أن نموت فى سبيل امبراطورنا وعندئذ يجرى كل شىء على ما يرام . ويجب أن نتحدث فى هذا أقل ما يمكن .

وضغط بشدة على كلمة « يمكن » واختتم ملتفتاً إلى الكونت مرة أخرى :

— أقل ما يمكن . هذه نظرتنا إلى الأمر ، نحن الفرسان القدامى ، وهذا كل شىء . . !

ثم التفت إلى نيكولاس الذى أشاح عن صديقته ، عند حديث الحرب ، وأصاخ السمع إلى الكولونيل :

— وأنت ، بوصفك شابا ، ومن شباب الفرسان ، كيف ترى المسألة . ؟

فأجاب نيكولاس ، وقد اشتعل حماسا :

— إننى من رأيك تماما .

ثم أخذ يدير صحفته ، ويحرك الكؤوس أمامه ، بعزم واستماتة ، كما لو كان يواجه فى تلك اللحظة خطراً جسيما ، واستطرد :

— إننى موقن أننا نحن الروس إما أن نموت أو ننتصر .

وأدرك ، كما أدرك الآخرون ، بعد أن قال هذه الكلمات ، أنها كانت أحمى حماسا وأثقل ضغطا مما ينبغى فى تلك المناسبة ، ومن ثم فلم تقع موقعها الصحيح .

قالت جولى :

— كان عظيما ما قلته الآن . . !

وأصغى بيير إلى حديث الكولونيل وهو ينفض رأسه موافقا ، وقال :

— هذا حسن . .

وهتف الكولونيل وهو يخبط المائدة ثانية :

— هذا الشاب من الفرسان حقيقة . . !

ثم جاء صوت ماريا دمتريڤنا الأجش فجأة ، متسائلا من طرف المائدة الآخر :

— علام تثيرون كل هذا الضجيج هناك ؟

وسألت رجل الفرسان :

— ولم تخبط المائدة ؟ أتظنون الفرنسيين قد جاءوا ؟

فأجاب رجل الفرسان بابتسامة :

— إننى أقول الحق .

وصاح الكونت عبر المائدة :

— نحن نتكلم عن الحرب . أنت تعرفين أن ابنى سيذهب يا ماريا دمتريڤنا ؟ ابنى سيذهب .

فأجابت ماريا دمتريڤنا بصوتها الأجش الذى كان يذهب ، فى يسر ، إلى نهاية المائدة :

— إن لى أربعة أبناء فى الجيش ، ومع ذلك فلا يحزننى هذا ..! كل شىء بين يدى الله . قد يموت المرء فى سريره ، وقد ينجيه الله فى الموقعة .

— هذا صحيح ..!

وتركزت الأحاديث مرة أخرى ، السيدات فى طرف ، والرجال فى الطرف الآخر .

وقال أخو ناتاشا الصغير :

— أنتِ لن تسألى . إننى أعرف أنك لن تسألى .!

وأجابت ناتاشا :

— بل سأفعل ...!

وتضرج وجهها لجأة بعزم جامح بهيج ، ونهضت نصف نهوض ، ورمقت بيير الذى كان يجلس قبالتها ، تدعوه أن يصغى إلى ما يقال ، ثم التفتت الى أمها .

ورنّت نغمات صوتها الطفلى ، واضحة ثاقبة ، على طول المائدة :

— ماما ..!

وأجفلت الكونتيسة وهى تسأل :

— ماذا ؟

ثم رأت ، من وجه بنتها ، أن هناك عبثاً يُدبر . فهزت إصبعها بصرامة وهى تحرك رأسها حركة مهددة محذرة .

وخفتت الأحاديث .

— ماما ..! ماذا سيقدم لنا من حلوى ؟

كان صوت ناتاشا يدوى أرسخ عزماً وأوثق تصميماً .

وحاولت الكونتيسة أن تعبس ، ولكنها لم تستطع . وهزت ماريا دمتريفنا إصبعها السمين ، وقالت متوعدة :

— ياقوزاقية ..!

أما معظم الضيوف فلم يعرفوا كيف يواجهون هذه النزوة ، ونظروا إلى الكبار .

قالت الكونتيسة :

— يحسن أن تحترسى ..!

فصاحت ناتاشا مرة أخرى ، بجسارة ، وبمرح مستهتر ، موقنة أن لعبتها ستلقى قبولا حسناً :

— ماما ..! ماذا سيقدم لنا من حلوى ..؟

فانطوت سونيا ، وبيتيا الصغيرالسمين ، على نفسيهما من شدة الضحك .

وهمست ناتاشا لأخيها الصغير ، ولبيير وهى ترمقه ثانية :

ـــ هل رأيت ؟ هأنذا سألت ..

قالت ماريا دمتريڤنا :

ـــ جلاس ، ولـكنك لن تأخذي منه شيئاً .

وأدركت ناتاشا أن ليس ثم ما يدعو للخوف ، فتجاسرت ، حتى على ماريا دمتريڤنا :

ـــ ماريا دمتريڤنا ..! أي نوع من الجلاس ؟ لا أحب الآيس ـــ كريم .

ـــ جلاس بالجزر .

ـــ لا .. أي نوع ياماريا دمتريڤنا ..؟ أي نوع ؟

وكانت تكاد أن تصرخ :

ـــ أريد أن أعرف ..!

فانفجرت ماريا دمتريڤنا ، والـكونتيسـة ، ضاحكتين ، وتبعهما الضيوف جميعاً . لم يكونوا يضحكون من ردّ ماريا دمتريڤنا . بل من جسارة وفطنة هذه البنت التي لا تصدّق ، وقد جرؤت أن تعامل ماريا دمتريڤنا بهذا الأسلوب .

ولم تكفّ ناتاشا إلا بعد أن قيل لها أنه سيكون بالأناناس . وأديرت الشامبانيا ، قبل المثلجات . وعزفت الأوركسترا مرة أخرى ، وقبل الـكونت والـكونتيسة أحدهما الآخر ، وغادر الضيوف مقاعدهم وذهبوا يهنئون الـكونتيسة ، ومدوا أذرعهم عبر المـائدة ليقرعوا الأنخاب مع الـكونت ، والأولاد ، وبعضهم البعض . وجاء الخدم مرة أخرى يندفعون هنا وهناك ، وسمع صرير الـكراسي ، وعاد الضيوف ، على نفس الترتيب الذي دخلوا به ، وقد ازدادت وجوههم تضرجاً . إلى غرفة الاستقبال وإلى مكتب الـكونت .

الفصل العشرون

كانت موائد اللعب تهيأ ، ومجموعات لعبة البوسطون تعد . وزوار الكونت يتخذون مجالسهم ، طائفة منهم فى غرفتى الاستقبال ، وطائفة فى غرفة الجلوس ، وطائفة فى المكتبة .

وكان الكونت يمسك بورقة على هيئة المروحة ، ويكف نفسه بمشقة عن أن يغفى غفوته المعتادة بعد الغداء ، ويضحك لكل شىء . وتحلق الشبان ، بتحريض من الكونتيسة ، حول البيانو والهارب . وعزفت جولى أولا ، بناء على طلب الجميع . وبعد أن عزفت قطعة صغيرة ، بتنويعاتها ، على الهارب ، ضمت صوتها إلى سائر السيدات الصغيرات يرجون ناتاشا ، ونيكولاس وقد كانا مرموقى الموهبة الموسيقية ، أن يغنيا شيئاً . وكانت ناتاشا تعامل معاملة الكبار ، وكان واضحاً أنها مزهوة كل الزهو ، وإن كانت على ذلك تستشعر خجلا .

فسألت :

— ماذا نغنى ؟

واقترح نيكولاس :

— « الجدول »

فقالت ناتاشا :

— طيب إذن . فلنسرع . بوريس ، تعال هنا . ولكن أين سونيا؟

ونظرت حولها ، فلما رأت أن صديقتها ليست فى الغرفة جرت تبحث عنها .

وجرت إلى غرفة سونيا ، فلما لم تجدها هناك ، جرت إلى غرفة الأطفال ، على أن سونيا لم تكن هناك أيضا . فانتهت ناتاشا إلى أنها لا بد فى الممر ، على الصندوق . كان الصندوق فى الممر هو مبكى الجيل النسوى

الصغير من عائلة روستوف . وكانت سونيا فى الحق هناك ، ترقد ووجهها منكفيء إلى سرير المربية الذى تشوبه الأدران ، على الصندوق ، وقد طوت رداءها الوردى الشفاف تحتها فتضضت طياته وتثنت ، وأخفت وجهها بأصابعها النحيلة الرقيقة ، وأخذت تشهق بالبكاء حتى اهتزت كتفاها الصغيرتان العاريتان . أما وجه ناتاشا الذى كان وضيئا بالسعادة طوال يوم العيد ، فقد حال فجأة . وثبتت عيناها ، ثم سرت رجفة فى عنقها العريض . وتهدلت أركان فمها .

— سونيا ..! مالك ؟ ما الحكاية ..؟ أو .. أو .. أو ..!

واتسع فمها الواسع ، حتى بدت شوهاء حقا ، وأخذت تعول ، كأنها طفلة ، دون أن تعرف لم ، إلا أن سونيا كانت تبكى . وحاولت سونيا أن ترفع رأسها لتجيب على صديقتها ، لكنها لم تستطع ، فأخفت وجهها فى السرير إخفاء وبكت ناتاشا ، وهى جالسة على سرير الريش المخطط الأزرق ، تحتضن صديقتها حضنا وثيقا . وعشقة جلست سونيا . وأخذت تمسح عينيها وتفسر الأمر :

— سيذهب نيكولاس بعد أسبوع . وأوراقه — جاءت — أخبرنى بنفسه ، ولكن لا يليق لى أن أبكى مع ذلك . .

ولوحت بورقة فى يدها ، بها الأشعار التى كتبها نيكولاس :

— لا يليق أن أبكى . ولكن أنت لا تستطيعين . . . إن أحداً لا يستطيع أن يفهم . . . روحه النبيلة . . !

وأخذت تبكى ثانية ، لأن له مثل هذه الروح النبيلة .

ومضت وقد استعادت شيئا من التجلد :

— كل شيء على ما يرام معك . . . ولست أغير منك . . . إننى أحبك وأحب بوريس أيضا . . فهو ظريف . . . ولا توجد فى طريقكما صعوبات . . ولكن نيكولاس ابن عمى . . ويجب على المرء . . المطران

بنفسه [1] . . وحتى فى هذه الحالة لا يمكن . . ثم أنها لو أخبرت ماما (كانت سونيا تعتبر الكونتيسة أمًّا لها وتدعوها كذلك) أننى أقف فى طريق مستقبل نيكولاس ، وأننى لا قلب لى وجاحدة للجميل . . بينما فى الحقيقة . . ويشهد علىَّ الله . . (ورسمت علامة الصليب) أننى أحبها كثيراً وأحبكم جميعا ، ولكن ڤيرا . . ولماذا؟ ماذا فعلت لها ؟ إننى ممتنة لكم حتى أننى لأضحى طواعية كل شىء ، ولكن لا شىء عندى . .

وأعجزها أن تستمر ، فأخفت وجهها ثانية بين يديها ، وفى السرير ، وأخذت ناتاشا تطايبها ، وإن كان وجهها ينم على إدراكها لكل ما لمتاعب صديقتها من خطر .

ثم هتفت فجأة ، كما لو كانت قد حدست السبب الحقيق وراء كرب صديقتها :

— سونيا ، إننى موقنة أن ڤيرا قالت لك شيئا بعد الغداء ؟ أليس كذلك . . ؟

— نعم هذه الأشعار كتبها نيكولاس بنفسه ، ونسخت أنا بعض أشعار أخرى ، ووجدتها ڤيرا على مائدتى وقالت أنها ستريها لماما ، وأننى جاحدة للجميل ، وأن ماما لن تسمح له أبداً أن يتزوجنى ، بل أنه سيتزوج جولى . وأنت ترين كيف بقى معها طول النهار . . ناتاشا ، ماذا فعلت حتى استحق هذا ؟

وأخذت تبكى ثانية ، بكاء أشد مرارة . فرفعتها ناتاشا ، وحضنتها ، وابتسمت من بين دموعها ، وأخذت تهدىء من روعها .

— سونيا لا تصدقيها ياحبيبتى . . ! لا تصدقيها . . ! هل تذكرين

---

(١) تعتبر الكنيسة الروسية أبناء العم من المحارم ، ويجب الحصول على إذن خاص للسماح بالزواج بينهم .

كيف كنا نتكلم مع نيكولاس ، ثلاثتنا . بعد العشاء فى غرفة الجلوس ؟ قد اتفقنا على كل شىء ، لست أذكر بالضبط الآن ، لكن ألا تذكرى كيف أن كل شىء يمكن أن يسوى ، ويصبح كل شىء مدهشاً ؟ وهناك أخ العم شينشين الذى تزوج بنت عمه . . أما نحن فأبناء عم من الدرجة الثانية ، كما تعرفين . وبوريس يقول أن ذلك ممكن كل الامكان ، أنت تعرفين ، لقد قلت له كل شىء . وكم هو طيب . . ! لا تبكى ياسونيا ياعزيزتى الغالية ، ياحبيبتى سونيا . !

وقبلتها وضحكت .

— ڤيرا حقودة لا تهتمى بها . . ! وسوف يكون كل شىء على مايرام ولن تقول شيئاً لماما ، سيقول لها نيكولاس كل شىء بنفسه . وسو لايهتم بجولى إطلاقا .

وقبلتها ناتاشا على رأسها .

جلست سونيا . أشرق وجه القطيطة ، ولمعت عيناها ، وبدت على استعداد لأن ترفع ذيلها ، وتثب على أقدامها الناعمة ، وتلعب بكرة الصوف، كما ينبغى للقطيطة أن تلعب .

وقالت وهى تسوى رداءها وشعرها بسرعة :

— أتعتقدين ذلك ؟ . . حقاً . . صحيح . . ؟

فأجابت ناتاشا ، وهى تدفع خصلة جعدة من الشعر ندت عن ضفيرة صديقتها :

— حقاً ، صحيح . . !

وضحكتا كلتهما .

— حسناً ، فلنذهب لنغنى « الجدول » .

— هيا بنا . . !

قالت ناتاشا وهى تقف بغتة :

— أتعرفين ، بيير هذا السمين الذى كان يجلس أمامى غريب جداً .!
لشد ما أحس بالسعادة . . !

ومضت تعدو فى الممر .

ونفضت سونيا شيئاً من الرعب علق بها ، ودفعت بالأشعار فى صدر ردائها قريباً من عظام صدرها الصغير ، وعدت خلف ناتاشا فى الممر إلى غرفة الجلوس ، بوجه مضرج وخطى خفيفة مرحة . وغنى الصغار ، بناء على طلب الضيوف ، رباعية «الجدول» فسر لها الجميع . ثم غنى نيكولاس أغنية فرغ لتوه من حفظها :

فى ضوء القمر
عند ما تهيم الأفكار
ما أحلى أن يشعر المرء
أن فى هذا العالم شخصاً
لا يفكر إلا فيه وحده
وأنها عند ما تمس أوتار القيثار
فتند عنها نغمات الموسيقى
إنما يجيش قلبها بحبك
ويأتيك نداؤها
لم يبق إلا يوم أو يومان حتى تتحقق سعادتى
لكنى ، حتى تلك اللحظة ، لست أستطيع الحياة . . !

لم يكد يكمل أغنيته حتى كان الفتية والفتيات قد اتخذوا أهبتهم للرقص فى القاعة الفسيحة . وتناهت من الشرفة أصوات الأقدام وسعال الموسيقيين .

* * *

كان بيير جالسا فى غرفة الاستقبال ، وقد شغله شينشين ، بوصفه قد عاد من الخارج قريبا ، بحديث سياسى انضم إليهما فيه كثيرون ، وإن كان

يضجر بيير ، وعندما بدأت الموسيقى تعزف ، جاءت ناتاشا ومضت إلى بيير مباشرة وقالت ضاحكة مضرجة الوجه :

— قالت لى ماما أن أطلب إليك أن تنضم للرقص .

فأجاب بيير :

— أخشىأنأخلط الخطوات والحركات . ولكن إذا قبلت أنتكونى معلمى . . وخفض ذراعه الضخمة ، وقدمها للبنت الصغيرة الرقيقة .

وبينما كان الرقصاء فى الرقص يهيئون أنفسهم ، والموسيقيون يضبطون آلاتهم ، جلس بيير مع شريكته الصغيرة . كانت ناتاشا فى غاية السعادة ، كانت ترقص مع رجل كبير ، كان مسافراً فى الخارج . وكانت تجلس فى مكان ظاهر للعيان ، تحدثه ، شأن سيدة ناضجة ، وكانت تمسك فى يدها مروحة أعطتها إياها إحدى السيدات . واتخذت لنفسها وضع إحدى سيدات المجتمع (والله يعلم متى وأين تعلمت هذا الوضع) وأخذت تتحدث إلى شريكها ، وتروح لنفسها بالمروحة ، وتبتسم من فوق المروحة .

وهتفت الكونتيسة وهى تعبر قاعة الرقص ، مشيرة إلى ناتاشا :

— الله . الله . . ! انظروا إليها والله . . !

فتضرج وجهها وضحكت :

— ماذا يا ماما ؟ ماذا حدث ؟ ما وجه الدهشة ؟

وفى وسط الرقصة الايقوسية الثالثة تناهت إلى السمع أصوات صرير الكراسى التى تدفع إلى الخلف فى غرفة الجلوس ، حيث كان الكونت وماريا دمتريفنا يلعبان الورق مع معظم العلية وكبار السن من الضيوف . ونهضوا يتمطون بعد جلوسهم طويلا ، ويضعون محافظهم فى جيوبهم . دخلوا غرفة الرقص ، جاءت أولا ماريا دمتريفنا والكونت ، وعلى وجههما استبشار وبهجة . وقدم الكونت ذراعه إلى ماريا دمتريفنا ، وقد ثناها فى حركة احتفال ومداعبة ، على نمط يشبه نمط الباليه . وشد قامته ،

وأضاء وجهه بابتسامة تظرف وكياسة ، وما أن انتهت آخر حركة من حركات الرقصة الايقوسية ، حتى صفق بيديه للموسيقيين ، وصاح إليهم فى شرفتهم ، موجهاً حديثه لعازف الكمان الأول :

— سيمين ..! هل تعرف دانيل ككوبر ؟

كانت تلك رقصة الكونت الأثيرة إليه ، فقد كان يرقصها فى شبابه . وكانت دانيل ككوبر ، على وجه الدقة ، إحدى حركات الرقصة الانجليزية .

هتفت ناتاشا بالحضور جميعاً :

— أنظرو إلى بابا ..!

ونسيت كل النسيان أنها ترقص مع شريك كبير ، فانثنت حتى مس رأسها الجعد ركبتها ، وتجاوب رنين الضحك فى القاعة كلها .

وفى الحق كان كل من فى الغرفة ، ينظر بابتسامة سرور إلى السيد العجوز المرح الذى كان يقف إلى جانب شريكته الطويلة الممتلئة ، ماريا دمتريفنا ، ويثنى ذراعيه ويصفق يديه مع إيقاع الموسيقى ، ويبسط كتفيه ويدير طرفى قدميه إلى الخارج ، ويدق الأرض بقدمه فى خفة ، وهناك ابتسامة تكسب وجهه المدور اتساعاً مطرداً ، وتعد الشاهدين لما سوف يلى . وما أن بدأت الموسيقى تعزف نغمات دانيل كوبر البهجة المستثيرة — وهى تشاكل بقدر ما نغمات رقصة ريفية مرحة — حتى امتلأت فجأة ، كل أبواب غرفة الرقص بأقنان المنزل — ووقف الرجال إلى طرف والنساء إلى الطرف الآخر — وقد جاءوا بوجوه ساطعة بالبهجة ، يشهدون سيدهم فى مراحه .

وقالت المربية بصوت مرتفع ، وهى تقف فى أحد الأبواب :

— انظروا إلى سيدى ..! يا له من نسر ..!

كان الكونت يجيد رقصته ، ولايخفى عليه ذلك . أما شريكته فلم

تكن لتستطيع ولا لتريد أن تحسن رقصتها . وكان قوامها الضخم منتصباً ، وذراعاها القويتان تتدليان إلى جانبها — كانت قد أعطت الكونتيسة حقيبتها — ولم يكن ليشارك فى الرقص حقاً إلا وجهها الصارم — وإن كان وسيما حقاً . وذلك الذى كان جسم الكونت البض جميعاً يعبر عنه ، كان يجد التعبير على وجهها الذى يستضيء ، وأنفها المرتعش . وإن كان الكونت يزداد اندماجاً بالرقصة ، فيفتن الشاهدين بحركاته اللبقة على غير انتظار ، ورشاقة خطاه وخفة قدمه ، فلم تكن ماريا دمتريفنا لتؤتى أثراً أهون ، بمجرد جهد طفيف من جانبها — أدنى جهد — فى أن تحرك كتفيها أو تثنى ذراعيها عندما تدور ، أو تدق قدميها ، وكان الكل يحسون ذلك من ضخامة جرمها ، وجهامتها المعهودة . وحميت الرقصة وزادت حيوية . ولم يكن الراقصون الأخر ، ليستطيعوا أن يسترعوا من أحد اهتمام لحظة واحدة بحركاتهم ، ولاهم حاولوا أن يفعلوا . كان الجميع يرقبون الكونت وماريا دمتريفنا . ولم تكن ناتاشا تنى تجذب أكمام الجميع أو أرديتهم وهى تحثهم : « أنظروا إلى بابا ..! » وإن كان الكل لا يرفعون عنه أبصارهم على أى حال . وفى الفترات التى تتوقف فيها الرقصة لحظة ، كان الكونت وهو يتنفس نفساً عميقاً ، يشوّر للموسيقين ويهتف بهم أن يسارعوا فى إيقاع العزف ، أسرع فأسرع فأسرع ، وبخفة كان الكونت يدور ويطير حول ماريا دمتريفنا ، وتتزايد خفة دورانه ، ويطّرد تزايدها ، فهو الآن على أطراف قدميه . ثم على كعبيه ، حتى أدار شريكته فأبلغها مقعدها ، وأدى الخطوة الأخيرة فى الرقصة ، وقد رفع قدمه بخفة إلى الوراء وأحنى رأسه الندى بالعرق ، باسماً ، وأدار ذراعه فى حركة واسعة عريضة ، وسط رعد من التصفيق والهتاف ، بدأته وتصدرته ناتاشا . ووقف الراقصان ساكنين ، يتنفسان بمشقة ، ويمسحان وجهيهما بمناديلهما الرقيقة وقال الكونت :

ـــ ذلك كيف كنا نرقص فى زماننا ياعزيزتى .

وهتفت ماريا دمتريفنا ، وهى تشمر كمها وتنفخ مبهورة النفس :

ـــ تلك كانت رقصة دانييل كوبر حقاً ..!

الفصل الحادى والعشرون

بينما كانت الرقصة الانجليزية السادسة تدور فى غرفة الرقص ببيت روستوف ، على نغمة يتعثر فى أدائها الموسيقيون الذين نال منهم الرهق ، وبينما كان الخدم والطهاة المنهكون يتناولون عشاءهم ، أصيب الكونت بيزوخوف بنوبة سادسة . وأعلن الأطباء استحالة الشفاء ، وأعطى المحتضر القربان الأخير ، واتخذت إجراءات إعداد رشمه بالزيت المقدس ، وكانت فى البيت هرولة وضجة ، وروعة الترقب المعهودة فى مثل هذه اللحظات . وكان ينتظر فى خارج المنزل وراء الأبواب ، جماعة من الحانوتية ، يستخفون كلما وصلت إلى الباب عربة ، وينتظرون صفقة هامـــة من وراء الجنازة الغالية . وجاء حاكم موسكو العسكرى بنفسه ، وكان قد ثابر على إرسال ياوريه ليستفسروا عن صحة الكونت ، لكنه جاء تلك الليلة ليودع الكونت بيزخوف ، رجل البلاط الكبير الشهير منذ أيام كاترين .

وكانت غرفة الاستقبال الفخمة مكتظة . ووقف الجميع بتوقير عندما مر الحاكم العسكرى فى طريقه للخارج ، بعد أن بقى قرابة نصف الساعة وحـده مع الرجل المحتضر ، وكان الحاكم العسكرى يرد على الانحناءات بانحناء طفيف ، وهو يحاول أن يفلت ، بأسرع ما يسعه ، من النظرات التى يثبتها عليه الأطباء ، ورجال الدين ، وذوو القربى . وصاحبه إلى الباب الأمير ڤاسيلى . وقد نحل وشحب وجهه فى خلال الأيام الفائتة ، وهو يكرر على مسمعه شيئاً بعينه ، مرات عدة ، بصوت خفيض .

ولما مضى الحاكم العسكرى جلس الأمير ڤاسيلى ، وحده ، فى كرسى

بحجرة الرقص ، وقد وضع ساقاً على أخرى ، وارتفق ركبته ، وغطى وجهه بيده . جلس فترة من الوقت على هـذا النحو ، ثم نهض ، ونظر حواليه بعينين مفزّعتين ، ومضى بخطوات فيها هرولة غير مألوفة ، فى الممر الطويل المفضى إلى مؤخرة المنزل ، ومنه إلى غرفة كبرى الأميرات .

أما أولئك الذين كانوا فى غرفة الاستقبال المعتمة الاضاءة شـيئاً ما ، فقد كانوا يتكلمون فى همس عصبى ، وكلما دخل شخص أو خرج من غرفة الرجل المحتضر ، صمتوا وحدقوا بأعين تفيض فضولا وتطلعاً إلى الباب الذى يصر صريراً هينا كلما انفتح .

وقال قسيس كهل لسيدة اتخذت مجلسها بجواره ، وأخذت تصغى بطيبة وسذاجة إلى ما كان يقول :

— إن حدود الحياة الانسانية . . ثابتة محددة ، ولا يمكن تخطيها .

وسألته السيدة :

— ترى ألم يفت الوقت على مسحه بالزيت المقدس ؟

وأضافت إلى ذلك لقب القسيس الكهنوتى ، وكانت تسأله كما لو لم يكن لديها ثم رأى فى الموضوع .

وأجاب القسيس ، وهو يمر بيده على خصل الشعـر الرقيق الأشيب المشطة إلى خلف ، على رأسه الأصلع :

— آه ياسيدتى ، إنه سر عظيم من الأسرار المقدسة .

وارتفع سؤال فى الجانب الآخر من الغرفة :

— من هذا ..؟ الحاكم العسكرى نفسه..؟ شد مايبدو صغير السن ..!

— نعم ، إنه فوق الستين . سمعت أن الـكونت لم يعد يتعرف على أحد . ؟ كانوا يريدون مسحه بالزيت بالمقدس .

— أعرف شخصاً مُسح بالزيت المقدس مرات عديدة .

كانت الأميرة الثانية قد أقبلت ، لتوها ، من غرفـة الرجل المريض ،

وعيناها محمرتان من البكاء ، وجلست بجانب الدكتور لورين ، وقد كان يتخذ جلسة رشيقة تحت صورة الامبراطورة كاترين ، مرتفقاً إحدى الموائد .

وقال الدكتور رداً على شيء قيل له عن الجو :

— جميل . إن الجو جميل أيتها الأميرة ، ثم أن المرء فى موسكو يخيل إليه أنه فى الريف .

وأجابت الأميرة وهى تتنهد :

— نعم حقاً . وإذن فهو يستطيع أن يشرب شيئاً ... ؟

فتأمل لورين لحظة ثم قال :

— أتناول دواء .. ؟

— نعم .

فرمق الطبيب ساعته وقال :

— خذى كوباً من الماء المغلى ، وضعى فيه هذا القدر من الطرطير .

وأشار بأصابعه الدقيقة ، يدل على ما يعنى « بهذا القدر » .

وكان هناك طبيب ألمانى يقول لأحد الياورين :

— لم توجد أبداً حالة واحدة عاش فيها المريض بعد النوبة الثالثة .

فقال الياور :

— وشدما كان محتفظاً بصحته وشبابه .

ثم أضاف هامساً :

— ومن سيرث ثروته ؟

فأجاب الألمانى باسماً :

— لن أذهب أطلب الصدقة .

وتحولت الأنظار جميعاً ، مرة أخرى ، صوب الباب وهو يصر عندما دخلت الأميرة الثانية تحمل الشراب الذى أعدته وفقاً لتعليمات لورين .

وأقبل الطبيب الألمانى على لورين ، يسأله بالفرنسية يتكلمها بلكنة ركيكة :

— أتعتقد أنه سيبقى حتى الصباح ؟

فلوى لورين شفتيه ، وهز أصبعه بالنفي البات أمام أنفه .

وقال فى صوت خفيض :

— الليلة ، لا أكثر .

ثم ابتعد بابتسامة كيِّسة تنم عن رضاه بنفسه ، فقد وسعه أن يفهم حالة المريض ، ويقررها ، بجلاء .

فى هذه الأثناء كان الأمير ڤاسيلى قد مضى ففتح باب غرفة الأميرة . وكانت تلك الغرفة توشك أن تكون مظلمة ، فلم يكن يوقد فيها إلا مصباحان صغيران جداً يشتعلان أمام الأيقونات ، وفى الغرفة نكهة طيبة من عبق الزهور وأقراص البخور . وكانت تكظ الغرفة قطع صغيرة من الأثاث ونحوه ، والدواليب ، والموائد الصغيرة . ويرى بالكاد من خلف ستار ، لحاف سرير من الريش ، مرتفع ، عليه ملاءة بيضاء . وأخذ ينبح كلب صغير .

— آه .. أهذا أنت يا بن العم ؟

نهضت ، وسوت شعرها ، وقد كان ناعماً صقيلا للغاية ، كالمهد به ، حتى ليبدو قطعة واحدة مع رأسها ، ومغطى بالدهان . وسألته :

— أحدث شيء .؟ إننى خائفة جداً .

فتمتم الأمير وهو يجلس منهكا ، على الكرسى الذى أخلته لتوها :

— لا ، لاتغير هناك ، إنما جئت لأتكلم معك بشأن الأعمال يا كاتيش .

ثم قال :

— أدفأت الكرسى أنت .. طيب ، اجلسى ، ولنتكلم .

فقالت ، بمظهرها الصارم الحجرى الذى لايتغير :

— ظننت أن شيئاً عساه حدث .

ثم جلست قبالة الأمير ، واستعدت للاصغاء إليه . وقالت :

— كنت أريد أن أغفو قليلا يابن عمي . لـكني لا أستطيع.

فأخذ الأمير فاسيلي يدها وثناها إلى أسفل ، كعادته وقال :

— حسناً ياعزيزتي ؟

كان واضحاً أن «حسناً» هذه تشير إلى شيء كثير ، يفهمانه معاً ، دون ما حاجة إلى ذكره .

كانت الأميرة صلبة العود ، قائمة الجسـد ، طويلة إلى حد يشـذ عن المألوف بالقياس إلى ساقيها . ونظرت إلى الأمير فاسيلي مواجهة ، دون أن تبدو في عينيها الرماديتين الجاحظتين بادرة انفعال . ثم هزت رأسها ، ورمقت الأيقونات وهي تتنهد ، وعسى أن تعد تلك علامة على الأسى أو التقوى ، أو عساها تعد علامة على الرهق والأمل في الراحة القريبة . ففهم الأمير فاسيلي منها علامة على الإرهاق والكلال . وقال :

— وأنا ..؟ أتظنين أن الأمر أيسر احتمالا عليّ ..؟ إنني منهك كأنني حصان على سفر دائب . ومع ذلك فلي معك حديث يا كاتيش ، حديث خطير جداً .

ولم يزد الأمير فاسيلي ، وصفحتا خديه ترتجفان رجفة عصبية ، في ناحية ثم في الناحية الأخرى ، فيتخذ وجهه تعبيراً منكراً لم يكن ليرى فيه أبداً في غرفات الاستقبال . ولاحت عيناه أيضاً غريبتين : كانتا تبدوان لحظة خبيثتين وقاحتين ، ثم تند عنهما ، في اللحظة التالية ، نظرات قلق وفزع .

وأمسكت الأميرة بكلبها الصغير على حجرها ، بيديها الناحلتين الباديتي العظام ، ونظرت إلى عيني الأمير فاسيلي بانتباه ، وواضح أن عزمها قد استقر على ألاّ تبدأ بالحديث ولو اضطرت للانتظار حتى الصباح .

فاستطرد الأمير فاسيلي وقد عاد إلى موضوعه ، وإن لم يخل ذلك ، فيما يلوح ، من صراع داخليّ :

— حسناً . ها أنت ترين ، يا أميرتى ، وابنة عمى العزيزة كاترين سيمينوفنا ، فى مثل هذه اللحظات على المرء أن يفكر فى كل شىء . على المرء أن يفكر فى المستقبل ، فى مستقبلكم جميعاً ... إننى أحبكم جميعاً كما لو كنتم أولادى ، وأنت تعرفين.

فبقيت الأميرة تنظر إليه دون حراك ، وهو يدفع مائدة صغيرة ، فى حنق ، دون أن ينظر إليها :

— ثم أن عائلتى بالطبع يجب أن يكون لها اعتبار . وأنت تعرفين يا كاتيش أننا — أنتن الشقيقات الثلاث ، وماموننوف ، وزوجتى — نحن ورثة الكونت المباشرون . إننى أعرف ، إننى أعرف كم يصعب عليك أن تتكلمى أو تفكرى فى مثل هذه الأمور . وليس ذلك بأسهل علىّ ، ولكنى ياعزيزتى أتقدم فى السن نحو الستين عاماً ، وعلىّ أن استعد لكل شىء . هل تعرفين أنى أرسلت فى طلب بيير ؟

وأشار إلى صورة الكونت قائلا :

— فقد طلب الكونت ، بشكل قاطع ، أن يدعى .

ونظر الأمير فاسيلى بتساؤل إلى الأميرة . وإن كان لم يستطع أن يتبين ما إذا كانت تفكر فيما قال ، أو تنظر إليه ببساطة .

وأجابت :

— هناك شىء واحد أدعو الله على الدوام أن يلبيه ، يابن العم . وهو أن يكون رحيما به ، وأن يتيح لروحه النبيلة أن تفارق جسده بسلام ...

فقاطعها الأمير فاسيلى بصبر نافذ ، وهو يدعك رأسه الأصلع ، ويجذب نحوه ، بغضب ، المائدة الصغيرة التى كان قد دفعها عنه :

— نعم ، نعم ، بالطبع . ولكن ... موجز القول فى الواقع أن ... أنت تعرفين بنفسك أن الكونت فى الشتاء الماضى كتب وصية ترك بمقتضاها كل أملاكه ، ليس لنا نحن ورثته المباشرين . بل لبيير .

فقالت الأميرة بهدوء :

— كم كتب من وصايا..! ولكنه لا يستطيع أن يترك ثروته لبيير . إن بيير ابن غير شرعي .

فقال الأمير بغتة ، وقد أمسك بالمائدة الصغيرة ، واستشاط حيوية ، وتهضّب بالحديث دراكا :

— ياعزيزتي ، ما الرأي لو كان قد كتب الكونت للامبراطور خطاباً ، يطلب فيه أن يكتسب بيير صفة الشرعية ..؟ أتدركين أنه نظراً لخدمات الكونت فسوف يُلبي طلبه ؟

ابتسمت الأميرة كما يبتسم الناس عندما يعتقدون أنهم يعرفون عن وضوع الحديث أكثر من معرفة محدثيهم .

واستطرد الأمير ڤاسيلي وقد أمسك بيدها :

— بل وأستطيع أن أخبرك بما هو أكثر ، لقد كُتب الخطاب ولكنه لم يُرسل ، وعرف الامبراطور بالأمر . والسؤال الواحد هنا هل أعدم الخطاب أو لم يعدم ؟ فإن لم يكن قد أعدم . فحالما ينتهي كل شيء..

وتنهد الأمير ڤاسيلي ، ليومىء إلى مايعني من قوله «ينتهي كل شيء»..

— وتُفتح أوراق الكونت ، فإن الوصية والخطاب سوف يرسلان إلى الامبراطور ، وسوف يجاب الالتماس قطعاً . ويحصل بيير على كل شيء بوصفه ابناً شرعياً .

فسألت الأميرة باسمة بسخرية كما لوكان كل شيء يجوز أن يحدث إلا ذاك.

— ونصيبنا ؟

— ولكن ياعزيزتي المسكينة كاتيش ، ذلك واضح وضوح نور الشمس ..! سيصبح الوارث الشرعي عندئذ لكل شيء ، ولن تحصلوا على شيء . لابد أنك تعرفين ياعزيزتي ما إذا كانت الوصية والخطاب قد كتبا وما إذا كانا قد أعدما . فإذا كانت الأنظار قد تجاوزتهما ، فلا بد أنك

تعرفين أين هما ، ولزام عليك أن تجديهما .. لأن ..

فقاطعته الأميرة باسمة بهزؤ دون أن تغير التعبير الذي تنم عنه عيناها :

— وماذا بعد ؟ إنني امرأة ، وانتم تظنون أننا جميعاً حمقاوات . ولكني أعرف شيئا واحداً : إن ابنا غير شرعي لا يمكن أن يرث ... ابن حرام ...!

قالت هذه الكلمة الأخيرة ، كأنها تفترض أن هذه الترجمة للكلمة تبرهن بالدليل الدامغ للأمير فاسيلي على وهن قضيته .

— حقاً يا كاتيش ..! ألا تستطيعين أن تفهمي ؟ وأنت على هذا القدر من الذكاء . فكيف لا ترين أنه إذا كان الكونت قد كتب خطابا للامبراطور يلتمس فيه أن يقر بنوة بيير الشرعية ، ترتب على ذلك أن بيير لن يعود بيير ، بل يصبح الكونت بزوخوف ، وعندئذ يرث كل شيء حسب الوصية ..؟ فإن لم تهدم الوصية والخطاب ، فلن يكون لك إلا عزاء أنك قد أديت الواجب . إلى آخره . هذا مؤكد .

قالت الأميرة وقد اتخذت ذلك المظهر الذي تبدو عليه النساء ، حينما يفترضن أنهن يقلن شيئاً بارع الذكاء ، لاذع الوقع:

— إنني أعرف أن الوصية قد كتبت ، ولكني أعرف أيضاً أنها باطلة . وأنت يا ابن العم فيما يظهر ، تعتبرني في غاية الغباء .

فقال الأمير فاسيلي نافذ الصبر :

— يا أميرتي العزيزة كاترين سيميونفنا ، لم آت إليك لنتشاحن ، بل لنتحدث عن مصالحك ، كما يتحدث المرء إلى إحدى ذوي قرباه الطيبات المخلصات . وأقول لك للمرة العاشرة ، أنه إذا كانت الوصية التي كتبت لصالح بيير ، والخطاب الموجه للامبراطور ، توجدان بين أوراق الكونت ، فأنت يا بنيتي العزيزة ، وأختاك ، لن ترثن شيئا ..! فإن لم تصدقيني ، فصدقي الخبير بهذه الأمور . فقد فرغت للتو من حديث

مع دمترى أونيقريتش (محامى العائلة) وهو يقول نفس الشىء .

عندئذ كان من الواضح أن تغيراً مباغتاً حلّ بآراء الأميرة . فابيضّت شفتاها الرقيقتان ، وإن لم تتغير عيناها ، وعندما أخذت تتكلم كان صوتها يمرّ بنُقلات لم تكن لتنتظرها ، كما هو واضح ، وقالت :

— هذا شىء عظيم ..! لم أكن أبغى شيئاً أبداً ، ولست أريد الآن .

ودفعت الكلب الصغير عن حجرها ، وسوّت رداءها . وهتفت :

— هذا عرفان الجميل ... هذا امتنانه لأولئك الذين بذلوا كل شىء فى سبيله . ! هذا رائع ..! عظيم ..! لست أريد شيئاً أيها الأمير .

فأجاب الأمير ڤاسيلى :

— نعم ، ولكنك لست الوحيدة هناك أختاك ...

إلا أن الأميرة لم تلق إليه سمعاً :

— نعم .. كنت أعرف ذلك من زمن طويل ، ولكنى أنسيته . كنت أعرف أنه حرىّ بى ألا أنتظر شيئاً ، اللهم إلا الدناءة ، والخادعة ، والغيرة ، والتآمر ، والجحود — أظلم الجحود — فى هذه الدار ...

فقال الأمير ڤاسيلى ملحاحاً ، وخداه تتزايد رجفتهما :

— أتعرفين ، أو لا تعرفين أين الوصية ؟

— نعم ، كنت غبية حمقاء . ! كان ما يزال عندى إيمان بالناس ، ومحبة لهم ، وبذلت نفسى . ولكن لا ينجح إلا الأدنياء السفلة ..! إنى أعرف أصحاب المؤامرة ..!

وهمت الأميرة بالنهوض ، لكن الأمير أمسك بيدها . كانت تبدو كمن فقد فجأة إيمانه بالجنس البشرى بأسره وحدجت زميلها بنظرة مُغضبة .

— لم يفت الوقت ياعزيزتى . ويجب أن تتذكرى يا كاتيش أن ذلك كله إنما جاء عرضاً فى لحظة غضب أو مرض ، ثم نُسى بعد ذلك . إن واجبنا يا عزيزتى أن نقوّم هذا الخطأ ، أن نسهل عليه لحظاته الأخيرة ،

بألا ندعه يقترف هذا الظلم ، وألا نتركه يموت وهو يحس أنه يشقى أولئك الذين ...

فأكملت الأميرة ، وهى تهم ثانية بالنهوض لولا أن الأمير كان يمسكها :

ـــ الذين بذلوا كل شيء من أجله ، وإن كان لم يستطع أبداً أن يقدر لذلك قدره .

ثم أضافت وهى تتنهد :

ـــ لا يا بن العم . سوف أذكر دائماً أن على المرء فى هذه الدنيا ألا ينتظر ثواباً ، أنه لا شرف ولا عدالة فى هذه الدنيا . وعلى المرء فى هذه الدنيا أن يكون لئيماً قاسياً .

ـــ لا .. لا .. تعقلى ..! إنى أعرف طيبة قلبك .

ـــ لا ، إن لى قلباً شريراً .

فردد الأمير :

ـــ إنى أعرف قلبك . وأقدر صداقتك ، وأود لو أن رأيك عنى يماثل طيب فكرتى عنك . لا يكربك الأمر . ولنتكلم بتعقل قبل أن يفوت الوقت ، سواء بقى لنا يوم أو ساعة واحدة ... خبرينى بكل ما تعرفين عن الوصية ، وأين هى بالأخص . لابد أنك تعرفين . سنأخذها على الفور ونريها للكونت فلا شك أنه قد نسيها ، وسوف يريد أن يعدمها . وأنت تدركين أن لا غرض لى إلا أن أنفذ رغباته بأمانة ودقة . ذلك كل غرضى من وجودى هنا . إنما جئت لأساعده ، وأساعدكم .

فهتفت الأميرة :

ـــ إنى أرى الآن كل شيء ...! وأعرف من ذا الذى كان ينسج خيوط المؤامرة . إنى أعرف !

ـــ ليست هذه المسألة يا عزيزتى .

إنها تلك التى توليتها أنت بالرعاية ، تلك الأميرة دروبيتسكايا الحلوة ،

آنا ميخايلوفنا تلك التى ما كنت لأقبلها خادمة بالبيت . تلك المرأة الدنيئة الفاجرة ..!

— فلا نفقد الوقت ..!

— آه .. لا تكلمنى . ! تسللتْ هى فى الشتاء الماضى هنا . وقالت للكونت عنا أشياءً شائنة زرية ، وخاصة عن صوفى — لا أستطيع أن أقولها — حتى مرض الكونت جداً ولم يكن يسمح لنا بالدخول عليه أسبوعين . إننى أعرف أنه كتب تلك الورقة الدنيئة الشائنة عندئذ ، ولكننى ظننت ذلك شيئاً باطلا ، لغواً .

— ها نحن وصلنا أخيراً ، فلماذا لم تخبرينى عنه قبل الآن ؟

فقالت الأميرة متغافلة عن سؤاله :

— إنها فى الحفظة المطعّمة التى يبقيها تحت مخدته . إننى أعرف الآن ! نعم ، لو أن لى خطيئة ، خطيئة كبيرة ، فهى حقدى على تلك المرأة الدنيئة ..!

كانت الأميرة الآن توشك أن تصرخ مولولة بالكلمات ، وقد انتسخ حالها كل الانتساخ :

— ولماذا تأتى هنا متسللة متملقة مداهنة ؟ ولكنى سوف أقولها لها ..! سيأتى الوقت ..!

الفصل الثانى والعشرون

بينما كانت هذه الأحاديث تجرى مجراها فى غرفة الاستقبال، وفى غرفة الأميرة ، أقبلت عربة بها بيير — وقد أُرْسل فى طلبه — وآنا ميخايلوفنا — وقد رأت لزاماً عليها أن تصحبه — ودخلت العربة إلى فناء دار الكونت بيزوخوف . وكانت العجلات تدور هيّنة ناعمة على الهشيم المفروش تحت النوافذ ، عند ما التفتت آنا ميخايلوفنا تروح عن زميلها

بكلمات رقيقة ، فإذا بها تراه وقد نام فى ركن العربة ، فأيقظته . واستنهض بيير نفسه ، وتبع آنا ميخايلوفنا خارجاً من العربة ، وأخذ عندئذ فحسب يفكر فى اللقاء الذى ينتظره ، بأبيه المحتضر . ولحظ أنه لم يؤت بهما إلى المدخل الأمامى بل إلى باب خلفى . وحينما كان يهبط درجات العربة هرول رجلان — يبدو عليهما مظهر التجار — وجريا يستخفيان بأنفسهما فى ظل الجدار . وتوقف بيير لحظة ، فلحظ عدداً آخر من الرجال ، على نفس الشاكلة ، يستخفون فى ظل البيت على الجانبين. إلا أنه لا آنا ميخايلوفنا، ولا الخادم ، ولا الحوذى ، ولم يكونوا جميعاً يملكون إلا أن يروا هؤلاء الناس ، كانوا يلقون إليهم بالاً . فانتهى بيير إلى أنه « يبدو أن ذلك كما ينبغى » واقتفى آنا ميخايلوفنا . ورقيت آنا ميخايلوفنا السلم الحجرى المعتم الإضاءة ، فى هرولة ، وهى تنادى بيير أن يتبعها ، فقد تخلف وراءها . وعلى أنه لم يكن يرى ضرورة أن يذهب للكونت إطلاقاً ، ولم يفهم لم كان عليه أن يذهب ، فوق ذلك ، من السلم الخلفى ، فقد انتهى إلى أن ذلك كله ضرورى كل الضرورة ، مما رأى على آنا ميخايلوفنا من مظهر الثقة والعجلة. وفى منتصف السلم أوشك أن يطوح بهما رجالٌ أقبلوا ينزلون السلم جرياً ، ويحملون دلاءً ، وأحذيتهم العالية تقرقع وتصطفق . والتصق هؤلاء الرجال بالحائط حتى يفسحوا سبيلا لبيير وآنا ميخايلوفنا ، ولم تبد عليهم أدنى دهشة لرؤيتهما هناك .

سألت آنا ميخايلوفنا أحدهم :

— أهذا هو الطريق إلى جناح الأميرات ؟

فأجاب خادم ، بصوت مرتفع جسور ، كما لو كان كل شىء الآن مباحاً :

— نعم . الباب الذى يقع إلى اليسار يا سيدتى .

وسأل بيير ، عند ما بلغ بسطة السلم :

— لعل الكونت لم يرسل فى طلبى . يحسن أن أذهب لغرفتى .

فكفت آنا ميخايلوفنا ، وانتظرته حتى يصمد . وقالت وهي تلمس ذراعه كما فعلت مع ابنها عند ما حدثته بعد ظهر ذلك اليوم :

— آه .. يا صديقي . ! صدقني أنى لا أقلّ عنك ألماً ، ولكن كن رجلا ..!

فسأل وهو يرنو إليها بطيبة ورحمة ، من فوق نظارته :

— ولكن حقاً .. ألا يحسن أن أمضي أنا ؟

— آه يا صديقي العزيز ..! إنسى ما قد يكون قد لحقك من سيئات وتدبّر ، إنه أبوك .. ولعله في النزع الأخير .

وتنهدت :

— لقد أحببتك ، من الأول ، كابني . اعهد بنفسك إليّ يا بيير ، لن أغفل عن مصالحك .

فلم يفهم بيير كلمة واحدة ، وإن كان قد قوي يقينه بأن ذلك كله كان لزاماً أن يقع ، فاقتفى آنا ميخايلوفنا ، بوداعة ، وكانت تلك عندئذ تفتح أحد الأبواب .

كان هذا الباب يفضي إلى ردهة خلفية ، يجلس في ركن فيها عجوز هو أحد خدم الأميرات ، يغزل جورباً . لم يكن بيير قد دخل قط إلى هـذا الجانب من البيت . بل لم يكن يعرف لهذا الجناح وجوداً بالمرة . ووجهت آنا ميخايلوفنا الخطاب إلى وصيفة تسرع حاملة إبريقاً على صينية ، ودعتها « يا عزيزتي » ، و « يا حلوة » ، وسألتها عن صحة الأميرات ، ثم قادت بيير في ممرّ حجري كان الباب الأول الى اليسار يؤدي إلى جناح الأميرات . وكانت الوصيفة التي تحمل الابريق ، قد نسيت ، في عجلتها ، أن تغلق الباب — كان كل شيء في البيت يجري في عجلة حينذاك — وعند ما مر بيير وآنا ميخايلوفنا لم يملكا إلا أن رمقا الغرفة ، بحركة عفوية . كان الأمير ڤاسيلي وكبرى الأميرات جالسين قريبين وثيقي القرب من أحدهما

الآخر ، يتحدثان . فلما رآهما الأمير ڤاسيلي عمران ، تراجع ، نافد الصبر بجلاء ، في حين هبّت الأميرة وصفقت الباب بكل قواها ، بحركة مستميتة .

كانت تلك الحركة أبعد شيء عما هو معهود عنها من رباطة جأش ، وكان الخوف المرتسم على وجه الأمير ڤاسيلي أبعد شيء عن وقاره ، حتى وقف بيير ، ورمق دليله بتساؤل من فوق نظارته . ولم تبدِ آنا ميخايلوڤنا شيئاً من دهشة ، بل ابتسمت ابتسامة هينة ، وتنهدت ، كما لو كانت لتقول أن ليس في ذلك ماهو أكثر مما كانت تنتظر

وقالت ، مجيبة على نظرته :

— كن رجلا ياصديق . سوف أرعى مصالحك .

ومضت وقد سارعت خطاها ، في الممر .

ولم يستطع بيير أن يتبين فيم ذلك كله ، وما معنى « رعاية مصالحه » بالأخص ، فقرّ رأيه أن ذلك كله كان لزاماً أن يقع . ودخلا من الممر إلى غرفة فسيحة معتمة الإضاءة تجاور غرفة استقبال الكونت . كان ذلك جناحاً فاخراً ، باذخاً ، على برده ، لا يعرفه بيير إلا من مدخله الأمامي . ولكن في تلك الغرفة كان يوجد حمام خال قد انسكبت منه المياه على البساط . وصادفهما شماس يحمل مبخرة ، وخادم خرج على أطراف أصابعه دون أن يجعل إليهما بالا . ودخلا إلى غرفة الاستقبال التي يعرفها بيير ، ولها نافذتان لشرفة تنفتح إلى غرفة خزين الطعام ، وفيها تمثال نصفي كبير ولوحة كاملة القامة للامبراطورة كاترين العظيمة . كان نفس الأشخاص مازالوا جالسين هنا ، في نفس الوضع تقريباً ، يتهامسون . وصمتوا جميعاً والتفتوا ينظرون إلى آنا ميخايلوڤنا ، وقد بدت شاحبة خددت وجهها الدموع ، وهي تدخل الغرفة ، وإلى جسم بيير الضخم الممتلىء ، وقد تبعها بوداعة ، خافضاً رأسه .

كان وجه آنا ميخايلوفنا يفصح عن إحساس بأن اللحظة الحاسمة قد دنت واتخذت الآن مظهر سيدة محنكة من بطرسبرج ، وأبقت بيير وثيق القرب منها . ودخلت الغرفة بجرأة أكثر من جرأتها فى دخولها بعد الظهر . كانت تشعر أنها وهى تأتى معها بالشخص الذى يريد الرجل المحتضر أن يراه ، فقد كان دخولها ، هى ، أمراً مكفولا . وألقت نظرة سريعة إلى كل من كان بالغرفة ، ولحظت قسيس الكونت الذى يلقى إليه عادة باعترافه ، فانسابت تسرى إليه ، تمشى مشية كالهرولة ، ولم تنحن على وجه الدقة ، وإن بدا أنها قد صغرت قداً ، لجأة ، ووقفت تتلقى فى توقير ، بركة أحد القسيسين أولاً ، ثم الثانى .

وقالت لأحد الكاهنين :

— الحمد لله أنكم جئتم قبل أن يفوت الوقت ، فكم كان القلق يضنينا ، نحن ذوى قرباه ، جميعاً .

ثم أضافت بصوت أخفض :

— هذا الفتى هو ابن الكونت . يالها من لحظة رهيبة ..!

ولما قالت ذلك ، مضت إلى الطبيب ، وقالت :

— يا دكتور ، هذا الفتى هو ابن الكونت . أهناك أى أمل ؟

فألقى الطبيب بنظرة سريعة إلى أعلى ، وهز كتفيه صامتاً . وبنفس الحركة رفعت آنا ميخايلوفنا كفيها ، وعينيها ، حتى أوشكت أن تغمضهما ، وتنهدت ، وابتعدت عن الطبيب مقبلة على بيير . وقالت بصوت فيه رنة احترام خاص ، وحزن رقيق حانٍ :

— ثق فى رحمة الله ..!

وأومأت إلى أريكة صغيرة ليجلس عليها وينتظرها ، واتجهت صامتة صوب الباب الذى يرقبه الجميع ، فصر الباب أهون صرير ، وهى تتوارى من خلفه .

وكان بيير قد قرّ عزمه أن يطيع مرشدته ودليلته طاعة عمياء ، فتحرك نحو الأريكة التى أومأت إليها . وما أن توارت آنا ميخايلوفنا حتى لحظ أن عيون كل من بالغرفة قد اتجهت إليه ، وفيها شىء أكثر من الفضول والعطف . ولحظ أنهم يتهامسون ، ويرمونه بنظرات لها مغزاها ، فى شىء كالإجلال والروع ، بل الخضوع الخانع . وقد لقى الآن احتراماً لم يلق مثله أبداً من قبل . ونهضت سيدة غريبة ، تلك التى كانت تتحدث إلى القسيسين ، وقدمت له مقعدها . والتقط ياور قفازاً أسقطه بيير ، ورده إليه . ولاذ الأطباء بصمت التوقير حينما مر بهم ، وتحركوا يفسحون له الطريق . وأراد بيير أولا أن يتخذ مقعداً آخر ، حتى لا يكون مدعاة لضيق السيدة ، وأن يلتقط القفاز بنفسه ، ويدور حول الأطباء الذين لم يكونوا ، على أى حال ، فى طريقه ، لـكنه أحس ، دفعة واحدة ، أن ذلك لم يكن ليصح ، وأنه الليلة شخص مسوقٌ إلى أداء شىء كأنه طقوس رهيبة ينتظر منه الجميع أداءها ، وأنه ملتزمٌ بأن يقبل خدماتهم . فأخذ القفاز ، صامتاً ، من الياور ، وجلس فى كرسى السيدة . وقد وضع يديه الضخمتين ، متعادلتين ، على ركبتيه ، فى ذلك الوضع الساذج الذى نجده فى التماثيل المصرية ، واستقر فى عزمه أن كل شىء كما ينبغى أن يكون ، وأنه لا يجوز له أن يفعل الليلة ما تمليه عليه آراؤه ، بل أن يسلم نفسه ، كلية ، إلى إرادة أولئك الذين يوجهونه .

ولم تمض دقيقتان حتى دخل الغرفة الأمير فاسيلى ، شامخ الرأس فى جلال . كان يرتدى جاكتته الطويلة ، والنجوم الثلاثة على صدره . ولاح أنه قد رقّ عوداً ونحل ، منذ الصباح ، وبدت عيناه أوسع مما عهد فيهما ، عندما التفت حواليه وأخذ بصره بيير . وأقبل عليه ، وأخذ يده — ذلك شىء لم يفعله قط — وجذبها إلى تحت ، كما لو كان يريد أن يتحقق ما إذا كانت هذه اليد مثبتة ، وثيقة الصلة بسائر الذراع . وقال :

— تشجع ، تشجع ياصديق ..! لقد طلب أن يراك ، هذا حسن .!

واستدار ليمضى .

وخطر لبيير أن من الضرورى أن يسأل « كيف ...» ثم تردد ، فلم يكن يعرف أيليق أن يدعو الرجل المحتضر «الكونت» ، ومع ذلك فقد خجل أن يدعوه « أبى » .

— جاءته نوبة أخرى منذ نحو نصف ساعة . تشجع ياصديق ...

كان بيير قد اختلطت عليه الأمور ،حتى لم يفهم ماذا يقصد الأمير بكلمة «نوبة » ، فنظر إليه فى حيرة ، ولم يفهم ، إلا بعد فترة ، أن نوبة تعنى صدمة من المرض . وقال الأمير ڤاسيلى للورين شيئاً ، فى مروره به ، ونفذ من الباب على أطراف قدميه . لم يكن يستطيع أن يحسن المشى على أطراف قدميه ، وكان جسمه جميعاً يرتج فى كل خطوة . وتبعته كبرى الأميرات ، والقسيسان ، والشمامسة ، ودخل من الباب أيضاً بعض الخدم . وتناهى من الباب صوت أشياء تُقلقل ثم جرت ، فى النهاية ، آنا ميخايلوڤنا خارجة ، وعلى وجهها نفس التعبير ، شاحبة الوجه وإن كانت مصممة العزم فى أداء الواجب ، ولمست بيير لمسة هينة على ذراعه وقالت :

— إن رحمه الله لا تنفد ..! وسوف يرشمونه الآن بالزيت المقدس . تعال .

دخل بيير من الباب ، وهو يخطو على البساط الناعم ، ولاحظ أن السيدة الغريبة ، والياور ، وبعض الخدم ، قد تبعوه جميعاً ، كما لو لم تعد الآن حاجة للاذن بدخول الغرفة .

الفصل الثالث والعشرون

كان پيير يعرف حق المعرفة هذه الغرفة الفسيحة ، التي تقسمها أعمدة وقوس ، وقد علقت على جدرانها الأبسطة الفارسية . وكان الجانب الذي

يقع خلف الأعمدة من الغرفة ، وإلى إحدى ناحيتيه سرير مرتفع من «الموجى» له ستائر من الحرير ، وإلى الناحية الأخرى خزانة هائلة تحتوى الأيقونات ، ساطع الإضاءة بنور أحمر ، ككنيسة روسية فى قداس المساء . وكان يقوم تحت الأيقونات اللامعة ، كرسىّ طويل من كراسى المرضى ، رأى فيه پير — على الوسائد الناعمة الثلجية البياض ، وقد كان من الواضح أنها حديثة العهد جداً بالاستبدال — شخص أبيه الجليل المألوف ، الكونت بيزوخوف ، وقد غطاه حتى وسطه لحافٌ أخضر زاه ، وعلى جبهته العريضة ذلك العُرف الأشيب من الشعر ، يذكّر المرء عُرفَ الأسد ، والحدود العميقة التى تمتاز بالنبالة ، فى وجهه المحمرّ الوسيم . وكان يرقد تحت الأيقونات مباشرة ، ويداه الكبيرتان الغليظتان إلى خارج اللحاف ، وقد رفعت فى اليد اليمنى التى كانت راحتها إلى أسفل ، شمعة بين البنان والإبهام ، ووقف خادمٌ عجوز محنياً من خلف الكرسى يثبتها فى وضعها ذاك . ووقف إلى جانب الكرسى القسيسان ، وشعرهم الطويل مسبلٌ على أرديتهم الباذخة التألقة ، وفى أيديهم شموع موقدة ، يؤدّيان القداس ببطء وجلال . ووقفت الأميرتان الصغيرتان إلى خلفهما بقليل تضمان المناديل إلى عيونهما ، ووقفت أمامهما مباشرة ، الأخت الكبرى ، كاتيش ، تحدّ البصر إلى الأيقونات بنظرة ثابتة ، مصممة تفيض شرّة . كما لو كانت تعلن على الملأ أنها لن تضمن ماقد يصدر عنها من سلوك لو أنها حادت بنظرها . ووقفت آنا ميخايلوفنا ، وعلى وجهها تعبير وديع أسيان كله صفحٌ ومغفرة ، بجانب الباب بالقرب من السيدة الغريبة . وكان الأمير فاسيلى أمام الباب ، بالقرب من كرسى المريض ، وفى يده اليسرى شمعة ، يُسند ذراعه اليسرى إلى مؤخرة كرسى من المخمل أداره ، لهذا الغرض ، وكان يرسم علامة الصليب بيده اليمنى ، ويرفع عينيه كلما مسّت يده جبهته . وقد اتخذ وجهه نظرة ورع وتقى ، وتسليم بإرادة الله . كما لو كان يقول : إن لم تفهموا هذه المشاعر ، فأنتم إذن قد ستتم مصيراً ..!

ووقف خلفه الياور ، والطبيبان ، والخدم من الرجال . كان الرجال والنساء قد انفصلوا بعضهم عن البعض . كما يحدث فى الكنيسة . وكانوا جميعاً يرسمون علامة الصليب . وكانت تلاوة القدّاس الكنسى ، والترانيم الخفيضة بأصوات عميقة منخفضة القرار ، والتنهدات أحياناً ، واحتكاك الأقدام ، هى كل ما يُسمع من أصوات . ومضت آنا ميخايلوفنا ، بادية الإحساس بالأهمية حتى ظهر إحساسها بأنها تعرف حق المعرفة ما هى بسبيله ، فعبرت الغرفة إلى حيث كان يقف بيير ، وأعطته شمعة . فأوقدها وأخذ يرسم علامة الصليب باليد التى يمسك بها الشمعة ، وقد تشتت انتباهه بملاحظة أولئك الذين يحيطون به .

وكانت صوفى ، الأميرة الصغرى المورّدة المحبة للضحك ، ذات الشامة ، ترقبه . فابتسمت ، وأخفت وجهها بمنديلها ، وبقيت تخفيه برهة ، ثم نظرت ثانية ، فرأت بيير ، وأخذت تضحك ثانية . كان واضحاً أنها لم تكن لتستطيع أن تنظر إليه دون أن تضحك . لكنها لم تكن لتستطيع أن تكف عن النظر إليه : فحتى تكون بمنجاة من الإغراء ، انسلّت بهدوء خلف أحد الأعمدة . وتوقفت أصوات الكاهنين بغتة فى وسط القدّاس ، وتهامسا ، ونهض الخادم العجوز الذى كان يمسك يد الكونت ، وقال للسيدات شيئاً . خطت آنا ميخايلوفنا إلى الأمام ، وانحنت على الرجل المحتضر ، وأومأت إلى لورين من خلفه لم يكن الطبيب الفرنسى يمسك شمعة ، كان مستنداً إلى أحد الأعمدة فى وضع ينم عن الاحترام ، ويوحى بأنه وهو أجنبى ، وبرغم كل اختلاف العقائد ، يدرك ملء أهمية الطقوس التى تؤدى الآن ، بل هو يحبّذها . فاقترب من الرجل المريض بخطى لا يصدر عنها صوت ، خُطى الرجل فى عنفوان الحياة ، ورفع ، بأصابعه الرقيقه البيضاء ، اليد الخاوية من على اللحاف الأخضر ، واستدار إلى جنب وتحسس النبض ، وأخذ يفكّر لحظة . وأُعطى المريض شرابا ، ووقعت حوله ضجة وحركة . ثم عاد

الناس إلى أماكنهم ، واستمر القداس . وفى خلال هذه الوقفة لاحظ پيير أن الأميرڤاسيلى ترك الكرسى الذى كان يستند إليه ، وعظهر ينم عن أنه يعرف ما هو بسبيله فإذا لم يفهم الآخرون فذاك شأنهم ، لم يذهب إلى الرجل المحتضر ، بل تجاوزه ولحق بكبرى الأميرات ، وتحرك معها إلى ذلك الجانب الذى يقع فيه السرير المرتفع بأستاره الحريرية . وعندما تركا السرير خرج الأمير ڤاسيلى والأميرة من باب خلفى ، ثم عادا الواحد بعد الآخر ، قبل أن يختتم القداس . ولم يلق پيير بالا إلى هذا أكثر مما كان يحمل باله إلى سائر ما يدور ، فقد قرّ عزمه نهائياً ، أن كل مايراه يحدث حوله الليلة إنما كان بطريقة ما ، شيئاً جوهريا .

أقصرت ترانيم القداس ، وسمع صوت القسيس يهنىء الرجل المحتضر ، باحترام ، على تلقيه السر المقدس . كان المحتضر يرقد بلاحراك ولا حياة ، شأنه من قبل . وأخذوا جميعاً يتحركون حواليه . وكانت الخطوات والهمسات مسموعة ، ومن أظهرها همسات آنا ميحايلوڤنا ووقع خطاها .

سمعها پيير تقول :

— يجب بالتأكيد أن يُنقل إلى السرير ، هذا يستحيل هنا ...

كان المريض محوطا بالأطباء والأميرات والخدم ، حتى لم يعد پيير يستطيع أن يرى الوجه الأصفر المحمر والعرف الأشيب — ولم يكن قد رفع عنه بصره لحظة واحدة طوال القداس ، وإن كان يرى وجوهاً أخرى فى نفس الوقت . واستنبط من الحركات الحذرة التي يأتيها المزاحمون حول كرسى المريض ، أنهم قد رفعوا الرجل المحتضر وكانوا ينقلونه .

وسمع أحد الخدم يقول فى همس مذعور :

— إمسك ذراعى وإلا أسقطته ..!

وهتفت أصوات متباينة :

— إمسك من تحت ..! من هنا ..!

وتسارعت أنفاس الحاملين ، وخطاهم التى تحتك بالأرض ، كما لو كان الثقل الذى يحملونه ينوء بهم .

وعندما مروا به . وكانت منهم آنا ميخايلوفنا ، لمح بين رؤوسهم وظهورهم : لحظة عابرة ، صدر الرجل المريض ، عاريا ، متين الوثاق ، وكتفيه القويتين وقد رفعهما من يحملونه من الإبطين ، ورأسه الأشيب الجَعْد الذى يشبه رأس الأسد . هذا الرأس بجبينه العريض وعظام وجنتيه ، وفمه القسيم الشهوى ، والتعبير الجليل البارد الذى يتخذه ، لم يشوّهه دنوّ الموت . كان نفس الرأس الذى يتذكره بيير منذ ثلاثة شهور ، عندما أرسله الكونت إلى بطرسبرج . إلا أن هذا الرأس كان يهتزّ الآن ، بلا حول ، مع حركات حامليه الهوجاء ، وكانت النظرة الباردة التى لا حياة فيها تقع لا على شىء .

وبعد لجب واضطراب دام بضع دقائق حول السرير المرتفع ، تشتت أولئك الذين كانوا يحملون المريض . ومست آنا ميخايلوفنا يد بيير وقالت :

— تعال .

فذهب بيير معها إلى السرير الذى أُرقد عليه المريض ، فى وضع رصين يتفق مع الحفل الذى تمّ للتوّ . كان يرقد وقد أسند رأسه عالياً ، إلى الوسائد . ووضعت يداه على أبعاد متماثلة ، فوق اللحاف الحريرى الأخضر ، وراحتاها إلى الداخل . وعندما أقبل بيير كان الكونت يحدق إليه مواجهة ، وإن كان ذلك بنظرة ليس فى وسع البشر الفانين فهم معناها . فإما لم تكن هذه النظرة تعنى شيئاً ، ولكن طالما كان للمرء عينان ، فلزامٌ أن تنظر إلى شىء ما — أو كانت تعنى الكثير ، الكثير جداً . وتردد بيير ، فلم يكن يعرف ماذا هو فاعل ، ورمق دليلته بنظرة تساؤل . فأومأت آنا ميخايلوفنا بنظرة متعجلة من عينيها ، ورفعت يد الرجل المحتضر ، وحركت شفتيها كما لو كانت ترسل قبلة . مدّ بيير عنقه ، بحرص ، حتى لا يمسّ اللحاف ، ولبّى ما اقترحت عليه ، فضغط شفتيه إلى اليد الممتلئة الكبيرة العظام .

ولم تتحرك اليد ، ولا عضلة واحدة فى وجه الكونت . ونظر پيير مرة أخرى بتساؤل إلى آنا ميخايلوڤنا ، ليرى ماذا عليه أن يفعل بعد . فأومأت آنا ميخايلوڤنا ، بعينيها ، إلى كرسى كان يقوم جنب السرير . وجلس پيير ، بطاعة ، وعيناه تتساءلان عما إذا كان يفعل الشىء الصواب . فأنغضت آنا ميخايلوڤنا رأسها بالموافقة . واتخذ پيير ، مرة أخرى ، ذلك الوضع المتعادل الساذج الذى تتخذه التماثيل المصرية ، ومن الواضح أنه يلقى كرباً من جسمه البدين الذى لا خفة فيه ، إذ يشغل حيزاً كبيراً ، فراح يبذل قصاراه أن يبدو كأصغر ما يطيق . ونظر إلى الكونت ، كان الكونت ما يزال يحدّق بالنقطة التى كان يشغلها وجه پيير قبل أن يجلس . كانت آنا ميخايلوڤنا ، بما اتخذت من موقف ، تفصح عن حسها بما فى هذه اللحظات الأخيرة بين الأب والابن من أهمية مؤسية فاجعة . ودام ذلك نحو دقيقتين ، خيل لپيير أنها ساعة . وفجأة ، أخذت عضلات وجه الكونت العريضة ، وخطوطه ، ترتعش . وزادت الرعشة ، وشدّ الفم الوسيم إلى جانب — عندئذ فقط تحقق پيير مدى دنوّ أبيه من الموت — وصدر من ذلك الفم المشوّه صوت أجش غير مستبين . نظرت آنا ميخايلوڤنا بانتباه إلى عين المريض ، وهى تحاول أن تحدس ماذا يريد ، وأشارت أولا إلى پيير ، ثم إلى شراب ما ، ثم همست باسم الأمير ڤاسيلى بتساؤل ، ثم أشارت إلى اللحاف . فبدا على وجه المريض وعينيه نفاد الصبر . وبذل جهداً أن ينظر الى الخادم الذى كان يقف على الدوام إلى رأس السرير .

همس الخادم :

— يريد أن يُنقل على الجنب الآخر .

ونهض ليدير جسم الكونت الثقيل ناحية الحائط .

ونهض پيير ليساعده .

وبينما كان الكونت يدار إلى الجنب الآخر ، سقطت إحدى ذراعيه

إلى الخلف ، بلا حول ، وبذل جهداً لا جدوى فيه فى أن يجـذبها إلى الأمام . وسواءً لاحظ نظرة الرعب التى كان پيير يرمق بها هـذه الذراع الميتة ، أو عبرت بذهنه المحتضر فـكرة أخرى ، فقد رمق الذراع العاصية، ثم وجه پيير الذى حلّ به الرعب ، ثم الذراع ثانية ، وظهرت على وجهه ابتسامة واهنة مؤسية . لاتتفق إطلاقاً مع ملامح وجهه . وبدا أن ابتسامته هى نفسها ابتسامة سخرية بقلة حيلته وعجزه . وأحس پيير ، لمرأى هـذه الابتسامة ، برجفـة مباغتة فى صدره ودغـدغة فى أنفه ، وغامت عيناه بالدموع .

أُدير المريض على جنبه ، ووجهه إلى الحائط . فتنهّد .

قالت آنا ميخايلوفنا ، وقد لاحظت إحدى الأميرات آتية لتأخـذ دورها فى الرعاية :

ـــ إنه ينام . فلنذهب .

وخرج پيير .

الفصل الرابع والعشرون

لم يعد الآن فى غرفة الاستقبال إلا الأمير ڤاسيلى وكبرى الأميرات ، يجلسان تحت صورة كاترين الكبيرة ، ويتحدثان باهتمام . وما أن رأيا پيير وزميلته حتى صمتا ، وخيّل لپيير أنه رأى الأميرة تخفى شيئا ، وهى تهمس :

— لا أطيق رؤية هذه المرأة .

قال الأمير ڤاسيلى لآنا ميخايلوڤنا :

— أمرت كاتيش بتقديم الشاى فى غرفة الاستقبال الصغيرة . اذهبى وتناولى شيئا ياعزيزتى المسكينة آنا ميخايلوڤنا ، وإلا ما استطعت الاحتمال .

ولم يقل شيئاً لپيير ، بل ضغط ذراعه ، تحت الكتف ، بعطف .

وذهب پيير مع آنا ميخايلوفنا إلى غرفة الاستقبال الصغيرة .

كان لورين يقول ، بحيوية مكتومة :

— ليس أدعى إلى الانتعاش ، بعد ليلة مؤرقة ، من فنجان من هذا الشاى الروسى اللذيذ .

وقد وقف يحتسى الشاى من فنجان صينى ، رقيق لا يد له ، أمام مائدة صفّت عليها أدوات الشاى ، وعشاء بارد ، فى الغرفة الدائرية الصغيرة . وقد اجتمع حول المائدة كل من كان فى بيت الكونت بيزوخوف تلك الليلة ، طلباً لتقوية أنفسهم . كان پيير يتذكر حق الذكر غرفة الاستقبال الدائرية الصغيرة هذه ، وموائدها الصغيرة . فى حفلات الرقص التى كانت تقام بالبيت ، كان پيير — ولم يكن يعرف الرقص — يحب أن يجلس فى هذه الغرفة يتأمل السيدات عند مرورهن ، بثياب الرقص ، والماس واللآلى على أكتافهن العارية ، ينظرن إلى أنفسهن فى المرايا الساطعة الإضاءة تعكس صورتهن مرات عديدة . وها هى ذى الآن ، هذه الغرفة نفسها تضيئها شمعتان ، إضاءة معتمة . وعلى إحدى الموائد تناثرت معدات الشاى وصحاف العشاء فى غير نظام ، وحشدٌ منوعٌ من الناس يجلسون فى منتصف الليل . لا ليمرحوا ويبتهجوا ، بل يتهامسون بشكل مقبض كئيب ، وتشى كل كلمة وكل حركة منهم بأن أحداً منهم لاينسى ما يحدث . وما يوشك أن يحدث ، فى غرفة النوم . ولم يتناول پيير شيئاً ، على شدة رغبته فى ذلك . ونظر الى مرشدته متسائلا ، فرآها تذهب ثانية ، على أطراف قدميها . إلى غرفة الاستقبال حيث تركا الأمير ڤاسيلى وكبرى الأميرات . فانتهى پيير إلى أن ذلك أيضاً كان شيئاً جوهرياً ، وبعد انتظار قليل قام فتبعها . كانت آنا ميخايلوفنا تقف إلى جانب الأميرة ، تتكلمان كلتيهما فى همسات جياشة بالاضطراب .

قالت صغرى المتكلمتين ، وواضحٌ أنها ماتزال فى نفس حالة الانفعال التى كانت تنتابها عند ما صفقت باب غرفتها :

— إسمحي لي يا أميرة ، أن أعرف بنفسي ، ماهو ضروري ، وما هو غير ضروري .

فأجابت آنا ميخايلوفنا بلطف، وإن كان ذلك على نحو له أثره وخطره ، وهي تسدّ الطريق إلى غرفة النوم ، وتحول دون مرور الأخرى :

— ولكن يا أميرتي العزيزة ، ألن يكون ذلك كثيراً على عمّي المسكين في لحظة يحتاج فيها إلى الراحة ؟ حديث دنيوي في لحظة قد أعدت فيها روحه بالفعل لـ...

كان الأمير ڤاسيلي جالساً في كرسي مريح . وقد اتخذ وضعه المألوف ، إحدى ساقيه مرفوعة عالياً على الساق الأخرى . وكانت وجنتاه متهدلتين حتى بدا عليهما ثقل واضح ، وكانتا ترتعشان رعشات عنيفة ، ولكنه اتخذ مظهر رجل قليل الاهتمام بما تقول السيدتان .

— هيا ياعزيزتي آنا ميخايلوفنا ، دعي كاتيش تفعل مايبدو لها . فأنت تعرفين كم يحبها الكونت .

قالت صغرى السيدتين ، ملتفتة إلى الأمير ڤاسيلي وهي تشير إلى محفظة مطعمة تمسكها في يدها :

— لست أعرف ، حتى مايوجد ، في هذه الورقة . كل ما أعرفه أن وصيته الحقيقية في درج مكتبه . وهذه ورقة كان قد نسيها .

وحاولت أن تتجاوز آنا ميخايلوفنا، فوثبت الأخيرة لتسد طريقها .

وقالت آنا ميخايلوفنا ، وهي تمسك بالمحفظة مسكة محكمة وثيقة ، حتى كان جلياً أنها لن تدعها بسهولة :

— إنني أعرف يا أميرتي العزيزة الطيبة يا أميرتي العزيزة ، إنني أرجو وأتوسل إليك أن تشفقي عليه ..! أتضرع إليك ...

لم تجب الأميرة . وكان كل ما يُسمع من صوت ، هو صوت جهدهما المبذول في الصراع للحصول على المحفظة . وإن كان واضحاً أن الأميرة

لو تكلمت ، فلن تكون كلماتها طيبة الوقع على آنا ميخايلوفنا . وعلى أن الأخيرة كانت تتشبث بالمحفظة ، و بموقعها ، تشبثاً لا هوادة فيه . فلم يفقد صوتها شيئاً من نعومته . وصلابته المعسولة .

— بيير ، ياعزيزى ، تعال هنا أظنه لن يكون فى غير موضعه ، فى نقاش عائلى ، أليس كذلك أيها الامير ؟

فصرخت الأميرة بغتة صرخة مدوّية ، حتى سمعها من كان فى غرفة الاستقبال ، وأجفلوا :

— لماذا لا تتكلم يا ابن العم ؟ لماذا تبقى صامتاً ، عند ما يسمح الله لمن لا أدرى مَنْ ، بأن تتدخل وتقحم نفسها ، وتخلق فضيحة على عتبة رجل يموت ..؟

ثم قالت بفحيح يسيل ضراوة :

— يا متآمرة ..!

وشدّت المحفظه بكل قوتها .

ولكن آنا ميخايلوفنا تقدمت خطوة أو خطوتين ، لتبقى قبضتها محكمة على المحفظة ، وغيّرت قبضتها .

نهض الأمير فاسيلى .

وقال بدهشه ولوم :

— أوه ..! هذا سخف ..! هيا ، اتركا هذا . إنى أقول لكما .

فتركت الأميرة المحفظة .

— وأنتِ أيضاً ..!

إلا أن آنا ميخايلوفنا لم تطعه .

— اتركى هذا أقول لك ..! سآخذ المسئوليه على عاتقى . سأذهب بنفسى وأسأله ، أنا ..! أيكفيك هذا ؟

فقالت آنا ميخايلوفنا :

— ولكن ، أيها الأمير ، بعد مثل هذه الطقوس المقدسة ، اسمح له بلحظة راحة . !

ثم قالت وهى تلتفت لپيير وقد اقترب جداً ، وأخذ يحدق بدهشة فى وجه الأميرة المغضب الذى فقد كل وقار ، وفى خدّى الأمير ڤاسيلى المرتعشتين :

— وأنت ياپيير ، قل لهم رأيك .

قال الأمير ڤاسيلى بصرامة :

— تذكرى أنك ستكونين مسئولة عن النتائج . أنت لاتعرفين ماذا تفعلين ..!

وهتفت الأميرة ، وهى تندفع على غير انتظار ، إلى آنا ميخايلوڤنا ، وتخطف منها المحفظة :

— أنت يا امرأةً دنيئة ..!

فأحنى الأمير ڤاسيلى رأسه وبسط يديه .

وفى تلك اللحظة انفتح الباب الرهيب الذى ظل پيير يرقبه طويلا ، والذى كان ينفتح بكل هدوء ، انفتح الآن بعنف وضجة، وصفق الحائط، واندفعت وسطى الأميرات الثلاث خارجة تعتصر كفيها ، وهتفت بحرقة :

— ماذا تفعلون ؟ إنه يموت ، وأنتم تتركونى معه ..!

فأسقطت أختها المحفظة. وانحنت آنا ميخايلوڤنا ، والتقطت بسرعة المحفظة موضوع الصراع ، وجرت إلى غرفة النوم . وتمالكت كبرى الأميرات ، والأمير ڤاسيلى ، نفسيهما ، وتبعاها . وبعد دقائق قليلة خرجت الأخت الكبرى ، ووجهها شاحب صلب، وهى تعض شفتها السفلى مرة أخرى. ونمّ وجهها ، لمرأى پيير ، عن حقد لا يُدفع .

وقالت :

— نعم . تستطيع الآن أن تكون مسروراً .! هذا ما كنت تنتظره .

وانفجرت باكية ، وأخفت وجهها بمنديلها ، واندفعت خارجة من الغرفة .

وجاء بعدها الأمير فاسيلي . تعثرت خطاه مترنحاً حتى بلغ الأريكة التي كان يجلس عليها ، وانحطّ فيها ، وهو يغطي وجهه بيده . ولاحظ بيير أنه شاحب ، فكه يرتعش ويرتجف كما لو كانت قد انتابته قشعريرة .

وقال ، وهو يأخذ بيير من مرفقه :

— آه يا صديق ..!

وكان في صوته إخلاص وضعف لم يلحظهما بيير فيه أبداً من قبل .

— كم نرتكب الخطايا نحن كثيراً . كم نخادع ، وكل ذلك لِمَ ؟ لقد قاربت الستين يا صديقي العزيز .. أنا أيضاً .. كل شيء سينتهي بالموت ، كل شيء ..! والموت فظيع رهيب . . .

وانفجر باكيا .

وخرجت آنا ميخايلوفنا أخيراً . واقتربت من بيير بخطى بطيئة ، هادئة ، وقالت :

— بيير ..!

فنظر إليها بيير نظرة تساؤل . فقبلته على جبهته ، وبللته بدموعها . وبعد لحظة صمت قالت :

— لم يعد معنا الآن . . .

فنظر إليها بيير من فوق نظارته .

— تعال . سأذهب معك . حاول أن تبكِ . لا شيء أدعى لتخفيف الحزن من الدموع .

وسبقته إلى غرفة الاستقبال المعتمة ، وارتاح بيير إلى أن أحداً لم يكن بمقدوره أن يرى وجهه . تركته آنا ميخايلوفنا ، وعند ماعادت وجدته قد استغرق في النوم . ورأسه على ذراعه .

وفي الصباح قالت آنا ميخايلوفنا لبيير :

— نعم يا عزيزي . هذه خسارة فادحة لنا جميعاً ، ولك بالأخص . لكن سوف يساعدك الله : فأنت شاب ، وتتحكم الآن ، فيما أرجو ، في ثروة طائلة . لم تفتح الوصية بعد . وأنا من الخبرة بك حتى لأعرف أن ذلك لن يُدير رأسك ، لكنه يفرض عليك واجبات ، ويجب أن تكون رجلا .

صمت بيير .

— لعلني أقول لك ، فيما بعد ، يا ولدي العزيز ، إنني لو لم أكن هنا فالله يدري ماذا كان ليحدث . ! هل تعرف ، كان عمي قد وعدني ، أول أمس فقط ، أنه لن ينس بوريس . لكن لم يتح له الوقت ، وآمل ، يا صديقي العزيز ، أنك ستنفذ رغبة والدك ؟

لم يفهم بيير شيئاً من ذلك كله ، وتضرج وجهه خجلا ، ونظر بصمت إلى الأميرة آنا ميخايلوفنا .

عادت آنا ميخايلوفنا بعد حديثها مع بيير ، إلى دار آل روستوف ، وأوت إلى الفراش . وعند ما استيقظت في الصباح أنهت إلى آل روستوف ، وإلى كل معارفها ، تفاصيل موت الكونت بيزوخوف . قالت أن الكونت مات كما كانت لتودّ هي نفسها أن تموت ، وأن نهايته لم تكن تمسّ القلب فحسب ، بل أن فيها لعبرة أي عبرة . أما اللقاء الأخير بين الأب والابن ، فقد كان مؤثراً ، حتى أنها لا يسعها أن تفكر فيه دون أن تبكي ، ولم تكن تعرف أيهما كان أروع سلوكاً في تلك اللحظات الرهيبة — الأب الذي تذكر كل شيء وكل الناس ، حتى النهاية ، وقال هذه الكلمات المؤسية لابنه ، أو بيير ، وقد كان مرآه مدعاةً للرحمة ، فشد ما كان الحزن قد هدّه ، مهما بلغ من جهده أن يخفي ذلك حتى لا يُحزن أباه وهو يموت .

قالت :

— ذلك مؤلم ، ولكنه يعود على المرء بالخير . إن مما يسمو بالروح
أن يرى المرء مثل هؤلاء الرجال ، الكونت العجوز وابنه الجدير بكل
خير .

وتكلمت باستياء عن سلوك كبرى الأميرات والأمير ڤاسيلي ، لكنها
كانت تتكلم عن ذلك همساً ، كما لو كان ذلك سراً خطيراً .

الفصل الخامس والعشرون

كان وصول الأمير أندرو الشاب وزوجته منتظراً بين يوم وآخر في « ليسى جورى » ضيعة الأمير نيكولاس أندريفتش بولكونسكى . على أن ذلك لم يكن لينال من نظام الحياة الرتيب في دار الأمير الشيخ . كان الجنرال الأمير نيكولاس أندريفتش — ويطلق عليه في المجتمع لقب «ملك روسيا» — منذ أن نفاه الأمبراطور پول إلى ضيعته في الريف، يعيش فيها على الدوام مع ابنته ماري ورفيقتها المدموازيل بوريين . وعلى أنه كان في ظل العهد الجديد حراً ، إذا شاء ، أن يعود إلى العاصمتين، فقد آثر أن يعيش في الريف ، وكان يقول أنه إذا شاء أحد أن يراه ، ففي وسعه أن يقطع المائة ميل التي تقع بين موسكو و«ليسى جورى» ، أما هو فلا حاجة به لشخص أو شيء . وكان من دأبه أن يقول أنه ليس هناك إلا مصدران للشر في الإنسان : الخمول والخرافة ، وليس هناك إلا فضيلتان : النشاط والفطنة . وقد أخذ على عاتقه ، بنفسه ، مهمة تربية بنته وتثقيفها ، وأحب أن ينمّي فيها هاتين الفضيلتين الجوهريتين ، فكان يدرّس لها الجبر والهندسة حتى بلغت العشرين ، ورتّب لها حياتها حتى يشغل وقتها جميعاً . أما هو فقد كان دائماً مشغولا : يكتب مذكراته ، ويحلّ مسائل في الرياضيات العليا ، ويصنع صناديق سعوط على مخرطة نجّار ، ويشتغل في الحديقة ، أو يشرف على ما يدور دائماً في ضيعته من أعمال البناء . ولما كان النظام

شرطاً أولياً لتيسير النشاط ، فقد حمل النظام فى داره إلى أعلى ذرى الدقة والضبط . كان يجلس إلى مائدة الطعام ، دائماً ، فى نفس الظروف والملابسات على أدق وجه ، فلم يكن ذلك فى ساعة محددة فحسب ، بل فى دقيقة معينة لا تتغير . وكان الأمير فى معاملته لمن يحيطون به ، من بنته إلى أقنانه ، حاداً ، دقيقاً على نحو لا يحول ، وعلى أنه لم يكن رجلا جافى القلب ، فقد كان يلهم قدراً من الخشية والاحترام قلما يبعثه الرجال الغلاظ القلوب . وعلى الرغم من أنه كان على المعاش ، ولم يعد له نفوذ فى الحياة السياسية ، فقد كان كل موظف من كبار الموظفين يعين فى المقاطعة التى تقع فيها ضيعة الأمير ، يرى من واجبه أن يقوم بزيارته ، ويجلس بالانتظار بالردهة السامقة ، كما يجلس المهندس المعارى تماماً ، أو البستانى ، أو الأميرة مارى ، حتى يُقبل الأمير فى الميعاد المحدد ، بالضبط . كان كل من يجلس فى هذه الردهة يخامره نفس الشعور بالإجلال ، بل الخوف ، إذا ينفتح باب المكتب الشاهق الارتفاع ، ويكشف عن شيخ يميل اصغر القامة ، بشعره المستعار المذرور بالبودرة ، ويديه الضاويتين الصغيرتين ، وحاجبيه الرماديين الكثيفين اللذين يحجبان ، أحياناً ، إذا عبس ، وميض عينيه المتألقتين بوهج الفتاء والدهاء .

وفى صباح اليوم الذى كان ينتظر فيه مقدم الأميرين الشابين ، دخلت الأميرة مارى إلى الردهة ، كالمعتاد ، فى الوقت المحدد لتحية الصباح ، وهى ترسم علامة الصليب بوجل ، وتقول صلاة فى صمت . كانت تأتى كل صباح على هذا النحو ، وفى كل صباح كانت تصلى أن تنقضى المقابلة على خير .

وكان يجلس بالردهة خادم شيخ له شعر مستعار مذرور بالبودرة ، فنهض هادئاً ، وقال فى همس :

— تفضلى بالدخول .

كان يأتى من الباب طنين المخرطة الرتيب . وفتحت الأميرة الباب ،

فى إشفاق وخشية ، وتحرك الباب سهلا يسيراً من غير صوت . وكفت عند المدخل لحظة . كان الأمير يشتغل على المخرطة ، وبعد أن رمقها بنظرة واصل عمله .

كانت غرفة المكتب مليئة بأشياء لا تَنِى تُستخدم باستمرار ، فما هو واضح . فالمائدة الكبيرة المغطاة بالكتب والرسوم ، وخزانة الكتب العالية الزجاجية الواجهة ، مفاتيحها موضوعة فى الأقفال ، والمكتب المرتفع الذى يستخدم للكتابة وقوفاً . وعليه كراسة مفتوحة ، والمخرطة بما حولها من أدوات وعدد فى متناول اليد . ونشارة الخشب متناثرة حوالها . كل ذلك ينم عن نشاط منتظم ، منوّع ودائب . وكانت حركة القدم الصغيرة المنتعلة حذاء تترياً عالياً موشّى بنطارز من الفضة . وضغط اليد الناحلة المفتولة ضغطاً حازماً . تكشف عن أن الأمير ما زال يملك ذلك الأيْد ، وذلك الجلد اللذين تتسم بهما الشيخوخة العفيّة الشديدة . وأدار المخرطة بضع دورات ، ثم رفع قدمه عن البدّال ، ومسح إزميله وأسقطه فى جراب من الجلد معلّق بالمخرطة ، واقترب من المائدة فدعا إليه ابنته . لم يكن يبارك أولاده أبداً ، فمدّ لها خدّه الشائك بالشعر — لم يكن قد حلق ذقنه بعد — ونظر إليها بحنان وانتباه ، وقال بصرامة :

— على خير حال ؟ حسناً إذن فاجلسى .

وأخذ الكراسة التى تضم دروساً فى الهندسة كتبها بنفسه ، وجذب بقدمه كرسياً .

ووقع على الصفحة التى يريدها ، بسرعة ، وحك بإظفره الصلب علامة من إحدى الفقرات إلى فقرة أخرى ، وقال :

— هذا للغد ..!

فانحنت الأميرة فوق الكراسة الموضوعة على المائدة .

وقال الشيخ فجأة . وهو يخرج من حقيبة معلقة فوق المائدة خطاباً

معنوناً بخط نسوي ، ورماه إلى المائدة :

— انتظري قليلا ، هذا خطاب لك .

فظهرت ، لمرأى الخطاب ، بقع حمراء متضرجة على وجه الأميرة . وأخذته مسرعة ، وأحنت رأسها فوقه .

سألها الأمير ، بابتسامة فيها برود ، افترت عن أسنانه الصفرة التي ما تزال سليمة :

— مِن هيلويز ؟

وأجابت الأميرة، وهي ترمق أباها في خجل، وتبتسم ابتسامة خَجْلى :

— نعم ، من جولي .

وقال الأمير في صرامة :

— سأتجاوز خطابين آخرين ، ولكني سأقرأ الثالث . إنني أخشى أنكما تكتبان لإحداكما الأخرى، هراء كثيراً . سأقرأ الخطاب الثالث ..!

فقالت الأميرة ، وقد اشتد تضرج وجهها ومدت له الخطاب :

— إقرأ هذا إذا أحببت يا أبي .

فصاح بها الأمير بغتة . وهو يدفع الخطاب بعيداً :

— الثالث ، قلت الثالث ..!

وارتفق المائدة ، وجذب نحوه الكراسة التي تحتوي رسوماً هندسية .

وانحنى على الكراسة ، قريباً من ابنته ، وقد وضع ذراعه على ظهر الكرسي الذي تجلس عليه ، حتى أحست نفسها تُحْدق بها من كل ناحية رائحة حرّيفة من شيخوخته وطباقه ، وقد طالت بها معرفتها ، و قال :

— حسناً ياسيدتي . هذه المثلثات متساوية . لاحظي من فضلك الزاوية ا ب ج ...

ونظرت الأميرة نظرة مفزّعة إلى عيني أبيها التألقتين ، قريبتين منها

وكانت البقع الحمراء على وجهها تتوهج وتخبو ، وكان واضحاً أنها لاتفهم شيئاً ، وكانت شديدة الفزع من أن يحول خوفها دون أن تفهم شيئاً من شرح أبيها ، مهما كان من وضوحه . وسواء كان ذلك ذنب المدرّس أو التلميذة ، فقد كان نفس الشيء يحدث كل يوم . كانت عينا الأميرة تعتم وتخبو ، ولا يعود في وسعها أن ترى ولا أن تسمع شيئاً ، بل لا تعود تحس إلا وجه أبيها الصارم الذابل قريباً إليها ، وأنفاسه ، ورائحته ، ولا يسعها إلا أن تفكر في شيء واحد ، هو كيف تسارع بالذهاب إلى غرفتها حتى تتبين المسألة في هدوء . واستشاط الشيخ غضباً ، فكان يحرّك كرسيّه ، في ضجة شديدة ، إلى الأمام ، ثم إلى الخلف ، ويبذل جهده أن يتمالك نفسه ، ولكنه ، دائماً على وجه التقريب ، كان يعنف بها ، ويقرّعها ، بل يطوّح بالكراسة بعيداً في بعض الأحيان .

أجابت الأميرة إجابة جانبها الصواب .

فهتف الأمير ، وقد دفع بالكراسة إلى جنب ، وأشاح عنها في حدّة خلق :

— بالله ما أشد غباءها ..!

ثم نهض على الفور ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم مسّ شعر ابنته مساً هيناً رفيقاً ، وجلس ثانية .

وجذب كرسيه وواصل شرحه .

وعندما أخذت الأميرة ماري الكتاب ، وأقفلته ، وفيه درس اليوم التالي ، وكانت توشك أن تبرح الغرفة ، قال :

— لا ينفع هذا أيتها الأميرة . الرياضيات شيء هام جداً ياسيدتي ..! لن أقبل أن تصبحي مثل سيداتنا الحمقاوات . عوّدي نفسك عليها . وسوف تحبينها .

وربت خدها .

— سوف أزيل من رأسك كل حماقة .

والتفتت لتمضى ، لكنه كفها بحركة منه ، وتناول كتاباً غير مفتوح من المكتب العالى .

— هذا شىء من نوع « مفتاح الأسرار » أرسلته لك هيلويز تلك صاحبتك . كتاب دين ..! لست أتدخل فى عقيدة أحد .. ولكنى ألقيت نظرة على الكتاب . خذيه . حسناً اذهبى الآن . اذهبى .

وربت كتفها ، وأقفل الباب بنفسه خلفها .

عادت الأميرة مارى إلى غرفتها ، وعلى وجهها ذلك التعبير الحزين الخائف الذى لا يزايلها إلا نادراً . فيحيل وجهها السقيم العارى من الجمال أشد عرياً من كل مسحة منه . وجلست إلى مائدة الكتابة فى غرفتها ، وقد قامت فوقها بضع لوحات دقيقة . وتناثرت عليها الكتب والأوراق . كانت الاميرة لا تعرف شيئاً من نظام ، بقدر ما كان أبوها شديد الالتزام له . فوضعت كراسة الهندسة ، وفتحت خطابها بلهفة . كان الخطاب من أوثق أصدقاء طفولتها بها قربى ، چولى كاراجين نفسها ، تلك التى كانت فى حفلة آل روستوف .

وكان خطاب چولى بالفرنسية :

« صديقتى العزيزة الغالية . ما أخوف الفراق وأقساه ..! ومهما قلت لنفسى أن الشطر الأكبر من وجودى ومن سعادتى إنما هو فيك ، وإن قلبينا مرتبطان بأواصر لا تنفك عراها على بُعد الشقة بيننا ، فقلبى يثور على القدر ، ولايسعنى مع مايحيط بى من مباهج وتسليات ، أن أقهر أسىً دفيناً أستشعره فى أعماق قلبى منذ افترقنا . فلماذا لا يكون شملنا موحداً ، كما كان فى الصيف الماضى ، فى غرفتك الواسعة . على الأريكة الزرقاء ، أريكة تبادل الأسرار ؟ ولماذا لا أستطيع ، كما كنت أفعل منذ شهور ثلاثة ، أن أستمدّ قوة معنوية جديدة من نظرتك التى ما أحلاها ، ما أهدأها ،

وما أنفذها . تلك النظرة التى شدّ ما أحببتها ، والتى يخال لى أنى أراها أمامى إذ أكتب إليك .»

فلما بلغت الأميرة مارى هذه الفقرة تنهدت ، ورفعت المرآة القائمة إلى عينها . وعكست لها المرآة قداً هزيلا خلواً من الرشاقة ، ووجها منحوفا . وكانت عيناها — وهما دائما حزينتان — تنظران الآن بلا أمل البتة إلى صورتها فى المرآة . وخطر لها وهى تشيح بوجهها وتواصل القراءة « إنها تتملقنى » . على أن چولى لم تكن تتملق صديقتها : كانت عينا الأميرة واسعتين عميقتين وضيئتين — كان يبدو أحيانا أن أشعة من نور دفئ تتدفق منهما — وكانتا من الجمال حتى ليكسباها ، فى الغالب الكثير من الأحيان ، وعلى عرى وجهها من الجمال ، جاذبية أقوى من جاذبية الجمال . إلا أن الأميرة لم تر أبداً ذلك التعبير الجميل فى عينها . تلك النظرة التى تبدو فيها عند ما لا تفكر فى نفسها . كان وجهها ، شأنها فى ذلك شأن الناس جميعاً ، يتخذ تعبيراً غير طبيعى حالما تنظر فى مرآة . وواصلت قراءة الخطاب :

«موسكو كلها لاحديث لها إلا عن الحرب . وأحد أخوىّ فى الخارج فعلا ، أما الآخر ففى الحرس ، وقد اتخذ طريقه إلى الجبهة . وقد غادر امبراطورنا العزيز بطرسبرج ، ويقال أنه ينوى أن يعرض حياته الثمينة لأخطار الحرب . عسى أن تكون مشيئة الله أن يتولى الملاك الذى أرسله إلينا الإله القوىّ العزيز، فى شخص عاهلنا ، سحق هذا المسخ الكورسيكى الذى يقض مضجع أوربا . وقد حرمتنى هذه الحرب ، دعى عنك أخوىّ ، من صلة هى أعز الصلات إلى قلبى . وأقصد بذلك نيكولاس روستوف، فهو لم يملك ، فى حماسه ، أن يطيق البقاء دون أن يفعل شيئاً ، فترك الجامعة حتى يلتحق بالجيش . إنى أعترف لك ياعزيزتى مارى ، أن ذهابه للجيش، على صغر سنه جداً ، كان مدعاة أسى كبير عندى . فما أعظم نبل هذا الشاب

الذي حدثتك عنه في الصيف الماضي ، وما أشد شبابه ، شباباً حقاً ما أندر ما نلقاه في هذا الجيل حيث نعيش وسط شيوخنا الذين في سن العشرين . وما أعظم صراحته ، على الأخص ، وطيبة قلبه ، إنه نقي وشاعري حق لكانت علاقتي به ، مهما كانت عابرة عرضية ، من أعذب مباهج قلبي البائس الذي كم عانى أشد العناء . وسوف أحكي لك يوماً كيف كان وداعنا ، وكل ماقال عند ذهابه . فمازال ذلك كله حديث العهد جداً . آه ياصديقتي العزيزة ، أنت سعيدة إذ لا تعرفين هذه الافراح وهذه الآلام على شدة تباريحها . أنت سعيدة ، فالآلام عادة أقوى من الأفراح .. ! إنني أعرف حق المعرفة أن الكونت نيكولاس أحدث سناً من أن يكون في الوسع أن يصبح عندي ، أبداً ، أكثر من صديق ، إلا أن هذه الصداقة العذبة ، هذه العلاقه التي شدَّ ما هي طاهرة وشاعرية ، إنما كان قلبي بحاجة إليها . ولكن فلنكف عن هذا الحديث . إن أعظم خبر يشغل اليوم موسكو كلها ، هو موت الكونت بيزوخوف الشيخ ، وميراثه . تصوّري أن الاميرات الثلاث لم ينلن الا النزر اليسير جداً ، ولم يحصل الأمير فاسيلي على شيء ، وأن بيير ورث كل شيء . وأنه ، فوق ذلك ، قد اعتُرف ببنوّته الشرعية ، ومن ثم فهو الكونت بيزوخوف ، وصاحب أكبر ثروة في روسيا . ويقال أن الأمير فاسيلي لعب دوراً خسيساً جداً في هذه الحكاية كلها ، وأنه عاد إلى بطرسبرج في غاية الغيظ والحنق .

واعترف لك أنني لا أفهم إلا القليل جداً من كل مسائل الميراث والوصايا هذه ، وكل ما أعرف أنه منذ أصبح الشاب الذي كنا نعرفه جميعا باسم مسيو بيير . هو الكونت بيزوخوف ، وصاحب ثروة من أكبر الثروات في روسيا ، فانني أتسلى كثيراً بملاحظة التغيرات التي طرأت على لهجة وسلوك الأمهات المثقلات بعبء ، بنات في سن الزواج ، وتغيرات الآنسات أنفسهن بإزاء هذا الشخص الذي كان يبدو لي دائماً ، وأقولها

بين قوسين ، شخصاً بائساً جداً . ولما كان الناس يتسلون ، منذ سنتين ، بأن يجدوا لي أزواجاً لا أعرف معظمهم ، فإن خاطبات موسكو يعتبرنني الكونتيسة بيزوخوف . ولكنك تعرفين بلا شك أنه لايهمني في كثير أو قليل أن أكونها . وعلى ذكر الزواج ، أتعرفين أن « عمة الكل » آنا ميخايلوفنا ، عهدت إليّ أخيراً جداً ، تحت أشد مواثيق الكتمان ، بمشروع لزواجك . وهو لا أكثر ولا أقل من ابن الأمير فاسيلي ، أناتول ، ويراد له أن تنتظم حاله بزواجه من سيدة ثرية ممتازة . ولست أعرف كيف ترين هذا الأمر ، ولكنني ظننت من واجبي أن أحيطك علماً . ويقال أنه وسيم جداً ، وشديدالطيش ، هذا كل مااستطعت أن أعرفه عنه.

ولكن كفى ثرثرة من هذا القبيل . فقد أتممت ورقة ثانية من خطابي ، وقد أرسلت ماما في طلبي لنذهب نتعشى عند آل أبراكسين . إقرئي كتاب التصوف الذي أرسله لك ، فانه يلقى نجاحاً هائلا هنا . وعلى أن في هذا الكتاب أشياء يصعب فهمها بالعقل الانساني الضعيف ، فهو كتاب جدير بالاعجاب ، تبعث قراءته الهدوء في النفس وتسمو بها . إلى اللقاء . احترامي لوالدك وتحياتي للمدموازيل بورين . أقبلك وأحبك .

جولي

ملحوظة : اكتبي لي أخبار أخيك وزوجته الصغيرة الساحرة .

جعلت الأميرة تتأمل لحظة ، وابتسمت شاردة الفكر ، فاستنار وجهها بعينيها الوضيئتين ، واكتسب مسحة جديدة كل الجدة . ثم نهضت فجأة ومضت إلى المائدة بخطاها الثقيلة . وتناولت ورقة ، مرت يدها سريعة عليها . وكان الردّ الذي كتبته ، بالفرنسية أيضاً ، هو :

« صديقتي العزيزة الغالية . كان خطابك المؤرخ ١٣ مدعاة سرور بالغ لي . فانت تحبينني إذن ، ماتزالين ، يا عزيزتي جولي . بشاعريتك

المعهودة . والفراق الذى تصفينه بكل هذه الأوصاف السيئة ، لم يترك أثره المعتاد عندك ..؟ أنك تتشكين من الفراق ، فماذا ينبغى أن أقول ، أنا ، لو أننى جسرت على الشكوى ، وقد حرمت من كل أعزائى ؟ آه .. لو لم يكن لدينا الديانة تعزينا ، لكانت الحياة شقية حقاً. لماذا تفترضين لدىّ نظرة قاسية عندما تحدثيننى عن عاطفتك لهذا الشاب ؟ لست متزمة أنا ، فى هذه الناحية، إلا فيما يختص بى وحدى . إننى أفهم هذه العواطف عن الآخرين ، فإن لم أكن مستطيعة أن أجدها ، إذ لم أشعر بها أبداً ، فإننى لا أدينها . ويبدو لى فقط أن الحب المسيحى ، حب الغريب ، وحب الأعداء ، أكثر جدارة وأعذب وأجمل من العواطف التى تثيرها عيون فتى فى قلب فتاة شاعرية محبّة مثلك .

جاءنا خبر وفاة الكونت بزوخوف قبل مجىء خطابك ، وتأثر له أبى جداً . فهو يقول أنه كان الممثل الأخير للحقبة الجيدة ، وقد جاء الآن دوره ، ولكنه سيفعل كل ما فى وسعه حتى يجىء دوره متأخراً بقدر الإمكان . حفظنا الله من هذا الكارثة الكبرى ..! ولست أستطيع أن أشاطرك رأيك فى بيير، فقد عرفته فى طفولته . وكان يبدو لى دائماً أن له قلباً رائعاً ، وهى الخصلة التى أقدرها أكبر التقدير فى الناس . أما عن ميراثه ، والدور الذى لعبه الأمير ڤاسيلى ، فهذا شىء مؤلم لكليهما . آه يا صديقتى العزيزة ، إن قول مخلصنا الإلهى من أنه أسهل للجمل أن يمر من سمّ الخياط من أن يرث الأغنياء ملكوت السموات، هذا القول حق بشكل مخيف ، إننى أرثى للأمير ڤاسيلى ، وآسف ، أكثر ، لبيير . فعلى صغره وعبء ثروته ذاك ، كم عليه أن يمرّ بالغوايات . . ! ولو سئلت ما أكثر ما أريد فى العالم لكان ذلك أن أكون أشدّ المتسولين فاقة وأكثرهم عوزاً . ألف شكر يا صديقتى العزيزة ، على الكتاب الذى أرسلته لى . والذى يثير كل هذه الضجة عندكم . إلا أنك ما دمت تقولين إنه ،

من ضمن الكثير من الأشياء الحسنة ، توجد فيه أشياء لايستطيع العقل الإنساني الضعيف أن يفهمها ، فيلوح لي مما لاطائل وراءه أن أشغل نفسي بقراءة شيء لا يفهم ، ومن ثم فلا يمكن أن تكون له أية ثمرة . إنني لم أستطع أن أفهم أبداً حب بعض الناس أن يشوشوا أفهامهم بالتعلق بالكتب الصوفية التي لاتثير إلا الشكوك في عقولهم . وترفع من حدة خيالهم ، فتكسبهم مغالاة مناقضة تماماً للبساطة المسيحية . فلنقرأ الرسائل والإنجيل . ولا نحاول أن ننفذ إلى ما تحتويها من أسرار ، إذ كيف نجرؤ . نحن الخطاة البائسين ، أن نزعم لأنفسنا معرفة الأسرار المقدسة الهائلة للعناية الإلهية ، طالما نحن نحمل هذا الرفات الجسدي الذي يقيم بيننا وبين الإله الأزلي حجابا لا نفاذ منه ؟ فلنقتصر على دراسة المبادىء السامية التي تركها لنا مخلصنا الإلهي لنقيم بها سلوكنا في هذا العالم الأرضي ، ولنعالج أن نطيعها وأن نقتفيها ، ولنقتنع أنه كلما أقللنا من رفع شأن عقلنا البشري الضعيف حسن ذلك عند الله . ولننبذ كل معرفة لم تأت من عنده ، فكلما أقللنا من السعي في تعمق ماشاء أن يكشف عنه لمعارفنا . عجل بأن يهب لنا معرفته . عن طريق روحه الالهي .

لم يحدثني أبي عن الخطيب . ولكنه قال لي فحسب أنه تلقى خطابا من الأمير فاسيلي ، وأنه ينتظر زيارة منه . أما عن مشروع الزواج الذي يتعلق بي . فإنني أقول لك ياصديقتي العزيزة الغالية أن الزواج عندي نظام مقدس ، ينبغي أن نتبعه . ومهما كان ذلك مؤلما عندي فلو فرض علي الله القوي العزيز واجبات الزوجة والأم ، فسأسعى أن أفي بهذه الواجبات بكل مايسعني من أمانة . دون أن يشغلني تمحيص عواطفي بازاء ذلك الذي يمنحنيه الله زوجا .

وقد تلقيت خطابا من أخي ، يعلن فيه قدومه إلى «ليسي جوري» مع زوجته ، وسوف يكون ذلك سروراً قصير الأمد . إذ سوف يبارحنا

ليشترك في هذه الحرب التعسة التي يجروننا إليها . والله يعلم كيف ، ولماذا . ولاحديث للناس إلا عن الحرب ، لاعندكم فقط ، في مركز الأعمال والمجتمعات . بل هنا أيضا ، في وسط الهموم الريفية وهدوء الطبيعة — الذي يراه أهل المدينة سمة من سمات الريف — تتناهى إلينا أخبار الحرب ، ونحس بها إحساسا مؤلما . ولايتحدث أبي إلا عن الزحف ، والزحف المضاد ، وهي أمور لا أفهم منها شيئا . وعندما كنت أقوم ، أول أمس ، بنزهتي المعتادة في شارع القرية ، شهدت مشهداً يمزق القلب .. كان ذلك ركبا من المجندين من عندنا يُرسلون إلى الجيش ... كان ينبغي أن ترى حال أمهاتهم وزوجاتهم وأطفالهم . أولئك الرجال الذين يرحلون ، وأن تسمعي بكاء هؤلاء وأولئك ..! حتى لكأن الإنسانية قد نسيت ناموس مخلّصها الإلهي ، الذي كان يدعو للحب ومغفرة الإساءة ، وأنها جعلت أعظم ما هي جديرة به ، هو فن التقاتل .

إلى اللقاء ، يا صديقتي العزيزة الطيبة ، فليحفظك مخلصنا الإلهي ، وأمه المقدسة بعنايتهما وقدرتهما القدسية .

ماري

قالت مدموازيل بورين باسمة ، بصوتها اللدن اللطيف ، تأتي كلماتها سريعة دراكا ، وهي تلثغ في حروف الراء :

— آه .. أنت ترسلين خطابا يا أميرة ؟ لقد أرسلت خطابي أنا فعلا . فجاءت مدموازيل بورين ، إلى العالم الأسيان الجادّ المغتم الذي تعيش فيه الأميرة ماري ، بجوّ جدّ مختلف من المرح وخفة القلب ، وقلة الهمّ ، والرضا عن النفس .

وأضافت وقد خفت صوتها . وكان واضحا أنها تصغي لكلامها نفسه بمتعة ، إذ تتكلم مغالية في لثغتها بالراء :

— يجب أن أحذّرك يا أميرة . كان الأمير يقرّع ميشال إيفانوفيتش .

وهو فى مزاج شديد الكدر ، وكئيب جداً . فاستعدى .

أجابت الأميرة مارى :

— آه ياصديقتى العزيزة . لقد طلبت منك ألا تحذرينى أبداً من مزاج أبى . فلست أسمح لنفسى بأن أصدر عليه حكما ، ولا أقبل أن يفعل الآخرون .

ورفعت الأميرة ساعتها ، فرأت أنها تأخرت خمس دقائق عن ميعاد بدء مرانها على البيانو ، فمضت إلى غرفة الجلوس ، وفى عينيها نظرة قلق . كان من ضمن تخطيط اليوم، أن الأمير يستريح ، والأميرة تعزف على البيانو، بين الساعة الثانية عشر والساعة الثانية بعد الظهر .

الفصل السادس والعشرون

كان الوصيف الأشيب الشعر . يجلس ناعسا ، يصغي إلى شخير الأمير في غرفة مكتبه الواسعة. وجاء من الجانب البعيد للبيت، من خلال الأبواب المغلقة ، صوت فقرات صعبة — تكرر عشرين مرة — من إحدى سوناتات دوسيك .

وعند . . أقبلت إلى الشرفة عربة مغلقة ، وأخرى ذات غطاء. وخرج الأمير أندرو من العربة ، وعاون زوجتــه الصغيرة على النزول ، وتركها تمر إلى البيت قبله . وأخرج تيخون العجوز رأسه ، بشعره المستعار، من باب الردهة ، وقال هامسا أن الأمير نائم ، ثم أغلق الباب متعجلا . كان تيخون يعرف أنه لا مقدم الابن ، ولا أى حدث آخر غير مألوف يجوز أن يسمح بالاخلال من النظام المقرر لليوم . وكان الأمير أندرو يعرف ذلك ، فيما يبدو ، معرفة تيخون له ، فنظر إلى ساعته كما لو كان يتحقق مما إذا كانت عادات أبيه قد تغيرت ، منذ كان في الدار لآخر مرة ، فلما اطمأن إلى أن تغيراً ما لم يلحق بها ، التفت إلى زوجته . وقال :

— سينهض بعد عشرين دقيقة ، فلنذهب إلى غرفة مارى .

كانت الأميرة الصغيرة قد امتلأ جسمها ، في هذه الأثناء ، وإن كانت عيناها ، وشفتها القصيرة الباسمة المكسوة بالزغب ترتفع ، عند ما تتكلم ، على ما هي كانت عليه دائما من المرح والحلاوة .

قالت لزوجها ، وهي تدير النظر حوالبها ، بمظهر الناس عندما يهنئون مضيفهم في حفلة رقص :

— ولكن هذا قصر ..! هيا بنا سريعا ، سريعا ..!

وألقت نظرة حولها ، وابتسمت لتيخون ، ولزوجها ، وللخادم الذي كان يصحبهما .

— أهذه ماري تتمرن على البيانو ؟ فلنذهب بهدوء ، ونفاجئها .

فتبعها الأمير أندرو ، وعلى وجهه تعبير فيه كياسة ومجاملة ، وحزن .

وقال وهو يمر بالخادم العجوز الذي قبّل يده :

— تقدم بك السن ياتيخون .

وقبل أن يبلغا الغرفة التي كانت تأتي منها نغمات البيانو ، اندفعت الفرنسية الحلوة الشقراء ، مدموازيل بوريين ، وقد تجاوز بها الفرح كل حد ، فيما يلوح .

وهتفت :

— آه .. يا لسعادة الأميرة ..! أخيرا ..! يجب أن أبلغها .

وقالت الأميرة الصغيرة وهي تقبّلها :

— لا ، لا . من فضلك ... أنت مدموازيل بوريين . إنني أعرفك عن طريق صداقة أخت زوجي لك . ألم تكن تنتظرنا ؟

ومضوا إلى باب غرفة الجلوس ، حيث كانت تأتي نغمات فقرة السوناتا التي طال ترددها . ووقف الأمير أندرو وأتى بحركة من ينتظر شيئا غير لطيف .

دخلت الأميرة الصغيرة إلى الغرفة . فانقطعت الفقرة الموسيقية في الوسط

وسمعت صرخة ووقع خطى الأميرة ماري الثقيلة ، وصوت القبل . ولما دخل الأمير أندرو ، كانت الأميرتان اللتان لم تلتقيا إلا مرة واحدة من قبل ، في حفل زواجه ، متعانقتين ، تضغطان شفتيهما بحرارة ، حيثما وقعت الشفاه . ووقفت مدموازيل بوريين قريبة منهما ، تضغط بيدها قلبها ، بابتسامة غبطة ونشوة ، ومن الواضح أنها على استعداد للبكاء أو الضحك على قدرٍ سواء ؛ فهزّ الأمير أندرو كتفيه وعبس ، كما يفعل عشاق الموسيقى عندما يسمعون نغمة زائفة . وأفلتت المرأتان إحداهما الأخرى ، ثم بدا كأنهما تخشيان أن يفوت الوقت ، فأمسكت كل منهما يد الأخرى ، وجعلت تقبّلها وتجذبها ، ثم أخذتا تقبلان إحداهما الأخرى مرة أخرى على الوجه ، ولدهشة الأمير أندرو ، أخذتا تبكيان وتقبلان إحداهما الأخرى . وراحت مدموازيل بوريين تبكي أيضاً . وكان واضحاً أن الأمير أندرو لم يكن يستشعر الراحة إلى ذلك كله . وإن كان يبدو للمرأتين طبيعياً أن تبكيا ، ولم يخطر لهما ببال ، فيما يبدو ، أن الأمور كانت لتجري غير هذا المجرى في هذا اللقاء .

وهتفتا فجأة :

— آه يا عزيزتي ..! آه .. ماري ..!

ثم ضحكتا .

— حلمت الليلة الماضية.. — ألم تكوني تنتظريننا ؟... — آه ماري.. لقد نحلت ..!

— وأنتِ امتلأت ..!

وقالت مدموازيل بوريين :

— عرفت الأميرة فوراً .

وهتفت الأميرة :

— لم يكن عندي أقل فكرة ..! آه أندرو .. لم أرك ..

وقبّل الأمير أندرو وأخته أحدهما الآخر ، وبداهما متماسكتان ، وقال لها إنها مازالت الطفلة البكاءة ، شأنها دائماً . كانت الأميرة ماري قد التفتت إلى أخيها ، ومن خلال دموعها ، كانت نظرتها المُحبة الحارّة الرقيقة ، من عينيها الوضيئتين الواسعتين ، وقد كانتا في تلك اللحظة جميلتين جداً ، تستقر على وجه الأمير أندرو .

ولم تكفّ الأميرة الصغيرة عن الكلام ، وشفتها العلوية القصيرة المكسوة بالزغب ترتفع باستمرار . فتمس شفتها السفلى الوردية ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، وتعود ترتفع في اللحظة التالية ، إذ يفترّ وجهها عن ابتسامة من الأسنان المتألقة والعينين اللامعتين بالوميض ، وكانت تحكي عن حادثة عرضت لهما على تل سباسكي ، عساها كانت لتؤدي نتائج خطيرة عليها في مثل حالتها ، وأخبرتهم فور ذلك أنها تركت كل ملابسها في بطرسبرج ، وأن الله يعلم ماذا سوف ترتدي هنا ، وأن الأمير أندرو قد تغيّر كل التغيّر ، وأن كيتي أودينتسوفا تزوجت رجلا عجوزاً ، وأن هناك خطيباً لماري ، خطيباً حقيقياً ، ولكنهم سيتكلمون عن ذلك فيما بعد . وكانت الأميرة ماري ماتزال تنظر صامتة إلى أخيها ، وكانت عيناها الجميلتان مليئتين بالحب والحزن . كان واضحاً أنها تقتفي أفكاراً بعيدة عن كلمات زوجة أخيها . وقالت لأخيها ، في وسط وصف لإحدى حفلات بطرسبرج ، وهي تتنهد :

— فأنت إذن ذاهب للحرب حقاً يا أندرو ؟

وتنهدت ليز أيضاً .

وأجاب أخوها :

— نعم . بل من الغد .

— إنه يتركني هنا ، والله أعلم لماذا ، بينما عساه يحصل على ترقية . .

لم تصغ الأميرة ماري إلى نهاية حديثها ، بل واصلت السير في مجرى

أفكارها ، والتفتت امرأة أخيها ، وسألتها ، وهى تنظر إليها ، نظرة رقيقة حانيـة :

ـــ أهذا مؤكد ...؟

فتغيّر وجه الأميرة الصغيرة ، ونهدت وقالت :

ـــ نعم ، مؤكد كل التأكيد . آه ..! هذا فظيع جداً ...

وهبطت شفتها ، وأدنت وجهها من وجه أخت زوجها ، وأخذت تبكى ، على غير انتظار ، مرة أخرى .

قال الأمير أندرو عابساً :

ـــ إنها بحاجة إلى الراحة . أليس كذلك ياليز ؟ خذيها إلى غرفتها ، وسأذهب إلى أبى . كيف حاله ؟ كما هو لم يتغير ؟

فأجابت الأميرة بفرح :

ـــ نعم ، كما هو لم يتغيّر . لست أدرى ماذا سيكون رأيك .

وقال الأمير أندرو ، بابتسامة توشك ألا تستبين ، وتنمّ عن أنه يدرك أوجه ضعف أبيه ، على كل حبه واحترامه له :

ـــ والمواعيد كما هى ؟ والنزهات فى الطُرق ؟ والمخرطة ؟

وأجابت الأميرة مارى فى نشوة من المرح والبهجة :

ـــ المواعيـد كما هى ، والمخرطة ، والرياضيات كذلك ودروسى فى الهندسة .

كما لو أن دروسها فى الهندسة كانت من أعظم مباهج حياتها .

فلما مضت الدقائق العشرون وأزف وقت يقظة الأمير الشيخ ، جاء تيخون يدعو الأمير الشاب إلى أبيه . خرج الشيخ عن نظامه المألوف ، احتفاءً بمقدم ابنه : فقد أعطى أوامره بأن يُدخل إلى جناحه بينما هو يرتدى ملابسه استعداداً للغداء . كان الأمير الشيخ يرتدى دائماً ملابس من الطراز القديم ، فيلبس جاكتة عتيقة عريقة ، ويضع شعراً مذروراً

بالبودرة ، ولما دخل الأمير أندرو غرفة ملابس أبيه — لا بذلك التعبير والأسلوب الذى ينمّ عن الإزدراء ، والذى يتخذه فى غرف الاستقبال ، وإنما بوجه متوفز بالحياة . شأنه عندما يحدث پير — كان الشيخ جالساً فى كرسى كبير مكسوّ بالجلد ، وقد التف بالعباءة التى تتخذ عند ما تذرّ البودرة على شعره ، وأسلم رأسه لتيخون .

وقال الشيخ وهو يهز رأسه المذرور بالبودرة ، بقدر ما يُتيح له ذلك ذيل الضفيرة التى كان تيخون يحكم الإمساك بها .

— آه .. هوّ ذا المحارب ..! تريد أن تقهر بوناپرت ؟ فعليك إذن على الأقل أن تغمزه كما يقتضى الأمر ، وإلا أصبحنا سريعاً رعاياه لو أنه استمر على هذا الحال ..! كيف أنت ..؟

ومدّ له خدّه .

كان الشيخ حسن المزاج بعد إغفاءته ، قبل العشاء — كان من دأبه أن يقول : إن إغفاءة بعد الغداء من الفضة ، أما قبل الغداء فمن ذهب . وألقى إلى ابنه بنظرات سعيدة جانبية ، من تحت حاجبيه الكثيفين . فأقبل الأمير أندرو على أبيه وقبّله فى البقعة التى قدمها له . ولم يجب بشىء على الموضوع الأثير إلى أبيه : أن يسخر من رجال الحرب فى هذه الأيام ، ومن بوناپرت على الأخص .

وقال الأمير أندرو ، وهو يتبع كل حركة من وجه أبيه ، بنظرة شغف واحترام :

— نعم يا أبى . جئت إليك ، وأحضرت زوجتى ، وهى حامل . كيف صحتك ؟

— لا يسقط فريسة للمرض إلا الحمقى والمستهترون يا بنىّ ، وأنت تعرفنى : إننى مشغول من الصباح حتى المساء ، وزاهد ، ومن ثمَّ فإننى بالطبع فى صحة جيدة .

فقال ابنه باسماً :

— الحمد لله .

— ليس لله شأن بهذا ..!

ثم واصل حديثه ، وقد عاد إلى هوايته :

— حسناً ، قل لى .. قل لى كيف علمكم الألمان أن تحاربوا بونابرت بهذا العلم الجديد ، الذى تسمونه « الاستراتيجية » ؟

فابتسم الأمير أندرو .

وقال بابتسامة تومىء إلى أن حيل أبيه لم تكن لتحول دون الابن وأن يحبه ويوقره :

— اعطنى وقتاً أجمع فيه شتات أفكارى . يا أبى . لم يتح لى الوقت أن أستقر بعد ..!

فهتف الشيخ وهو يهز ضفيرته ، ليتحقق ما إذا كانت مثبتة وثيقة . ويمسك ابنه من يده :

— هراء ، هراء . . ! فالبيت على استعداد لاستقبال زوجتك . وسوف تأخذها الأميرة مارى هناك وتطوف بها ، وسوف تشبعان ثرثرة . هذا أسلوبهن النسائى ..! إننى مسرور بأن تكون عندى . إجلس وتكلم . إننى سمعت عن جيش ميشيلسين ، وجيش تولستوى أيضاً ... حملة مزدوجة فى نفس الوقت ... ولكن ماذا يفعل جيش الجنوب ؟ بروسيا محايدة . . هذا أعرفه . . ولكن النمسا ؟

ونهض من كرسيه ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، يتبعه تيخون يجرى وراءه ويناوله أشياء منوعة مما يلبس .

— وماذا عن السويد ؟ وكيف سيعبرون بوميرانيا ؟

ولما رأى الأمير أندرو أن أباه مصر على الحديث ، أخذ يشرح خطة عمليات الحملة القادمة — بشىء من الإحجام والتمنع بادىء الأمر ، ثم

بحيوية مطردة بالتدريج ، وهو ينتقل ، بالعادة ، من اللغة الروسية إلى اللغة الفرنسية إذ يمضى به الحديث . فشرح كيف أن جيشاً قوامه تسعون ألفاً سوف يكون عليه أن يهدد بروسيا حتى يخرج بها عن حيادها ، ويدفع بها إلى الحرب ، وكيف أن جانباً من ذلك الجيش سينضم إلى بعض القوات السويدية فى سترالسوند ، وكيف أن مائتى وعشرين ألف جندى سويدىّ ، ومائة ألف جندى روسىّ عليهم أن يقوموا بعملياتهم الحربية فى إيطاليا ، وعلى الراين ، وكيف أن خمسين ألف جندىّ روسىّ ومثلهم من الانجليز عليهم أن ينزلوا فى نابولى ، وكيف أن قوة إجمالية من خمسمائة ألف رجل عليها أن تهاجم الفرنسيين من جوانب متعددة . ولم يُبد الأمير الشيخ أدنى اهتمام بذلك الشرح ، بل استمر يرتدى ملابسه ، وهو يتمشى كما لو لم يكن يصغى إلى شىء ، وقاطع الحديث ثلاث مرات على غير انتظار . وفى إحدى هذه المرات قطع الحديث وهو يهتف :

— البيضاء . . ! البيضاء . . !

وكان معنى ذلك أن تيخون لم يناوله الصديرية التى يريدها . وقطعه مرة أخرى قائلا :

— وهل ستلد قريباً ؟

ثم هز رأسه فى لوم ، وقال :

— هذا سىء . . ! استمر . . استمر . . .

وجاءت المقاطعة الثالثة عند ما كان الأمير أندرو ينهى وصفه . فقد أخذ الشيخ يغنّى ، فى صوت الشيخوخة الشقق المشروخ « ما لبروك ذاهب للقتال . . والله يدرى متى يعود » . .

فلم يفعل ابنه إلا أن ابتسم .

وقال الابن :

— لست أقول أن هذه خطة أؤيدها . وإنما أقول لك ما الخطة .

ونابليون قد وضع خطته أيضاً الآن ، ولن تـكون أسوأ من هذه
فقال الشيخ :
— إذن فأنت لم تخبرنى بجديد .
ثم ردّد ، متأملا ، وبسرعة :
— الله يدرى متى يعود . إذهب إلى غرفة الطعام .

الفصل السابع والعشرون

وفى الميعاد المحدد ، دخل الأمير . حليقاً مذروراً بالبودرة ، فى غرفة الطعام، حيث كانت تنتظره امرأة ابنه، والأميرة مارى، ومدموازيل بوريين، ينتظرنه مع المهندس المعمارى ، وقد كان يسمح له بالجلوس إلى المائدة ، لنزوة غريبة من صاحب الدار ، على أن مركز هذا الشخص التافه لم يكن ليسمح له قطعاً بأن ينتظر مثل هذا الشرف . وكان الأمير ، عامة ، يلتزم الفروق الاجتماعية التزاما صارما ، ولم يكن يدعو الناس إلى مائدته إلا فى النادر القليل ، حتى كبار موظفى الحكومة ، لكنه كان قد اصطفى ، على غير انتظار ، ميشال إيڤانوفيتش — وكان هذا الأخير يمضى دائما إلى ركن فى الغرفة يتمخط فيه ، فى منديله المخطط — حتى يعطى مثالا لنظرية المساواة بين الناس جميعاً ، وكان يقول لابنته كثيراً أن ميشال إيڤانوفيتش « ليس أسوأ منك أو منى ذرةً واحدة » . وكان الأمير ، عادة ، يحدث ميشال إيڤانوفيتش ، على إيثار هذا الأخير للصمت ، أكثر مما يوجه الحديث لأى شخص آخر .

وكان أعضاء العائلة ، والخدم — خادما خلف كل كرسى — يقفون فى انتظار دخول الأمير، فى غرفة الطعام التى كانت سامقة الارتفاع ، شأن كل غرفات الدار . وكان رئيس السعاة ، والفوطة على ذراعه ، يفحص بعينيه ترتيب المائدة ويومىء للخدم بالإشارات . ويرمق الساعة ثم الباب

الذى سوف يدخل منه الأمير ، بقلق . وكان الأمير أندرو ينظر إلى إطار كبير مذهب ، جديد عليه ، يحيط بشجرة نسب أمراء بولكونسكى ، وقد عُلّق فى مواجهة إطار آخر بشا كله يحيط بصورة رديئة الرسم — واضحٌ أنها بريشة فنان من الضيعة نفسها[1] — لأمير حاكم متوّج ، من نسل روبرك فيما يفترض ، وهو رأس أسرة بولكونسكى . ونظر الأمير أندرو ثانية إلى شجرة النسب ، وهز رأسه ، وضحك كما يضحك المرء حينما ينظر إلى صورة تماثل الأصل حتى لتثير الضحك .

وقال للأميرة مارى ، حين أقبلت عليه :

— ما أشبه ذلك به ... !

فنظرت الأميرة مارى إلى أخيها بدهشة ، ولم تفهم علام يضحك . كان كل ما يفعل أبوها يلهمها بالتوقير والاجلال ، ويتجاوز كل تساؤل .

واستطرد الأمير أندرو :

— لكل عقب أخيل . تصورى أنه ، بعقله القوىّ ، يستسلم لمثل هذا الهراء ... !

لم تستطع الأميرة مارى أن تفهم جسارة نقد أخيها ، وكانت توشك أن تجيب ، حينما سمع وقع الخطى المنتظر ، آتيا من غرفة المكتب . ودخل الأمير مسرعا متوفز الخطوة ، دأبه ، كما لوكان يقيم مقابلة متعمدة بين سلوكه النشيط وصرامة الشكليات فى داره . وفى تلك اللحظة دقت الساعة الضخمة دقتين ، ولحقتها دقة أخرى ، حادة النغم ، من غرفة الاستقبال . وقف الأمير ساكناً ، وأخذت عيناه المتألقتان المتوهجتان بالحياة ، من تحت حاجبيه الكثيفين الأشعرين ، تتفحصان الحضور جميعاً فى صرامة ، ثم استقرتا على الأميرة الصغيرة . فأحست ، كما يحس أعضاء البلاط عند ما

---

(١) لم يكن غريباً فى الضيعات الكبيرة أن يكون للمالك مصورون وموسيقيون . . . الخ من بين أفنان الضيعة نفسها .

يدخل القيصر ، بالخوف والاحترام اللذين يلهم الشيخ بهما كل من يحيط به . وربت شعرها . ثم ربت مؤخرة عنقها بحركة مرتبكة .

وقال ، وهو ينظر فى عينيها بانتباه :

— إننى مسرور ، مسرور ، برؤيتك

ثم مضى إلى مكانه مسرعاً ، وجلس :

— اجلسوا ، اجلسوا . . ! اجلس يا ميشال إيڤانوڤيتش . .

وأومأ لامرأة ابنه ، مشيراً إلى مكانٍ بجانبه . فحرك أحد الخدم كرسياً لها .

وقال الشيخ ، وقد ألقى نظرة إلى جسمها المدوّر :

— هوُ . . هوُ . . ! كنتما متعجلين . . هذا سىء . . !

وضحك ضحكته المألوفة الجافة الباردة التى لا لطف فيها ، بشفتيه فحسب ، دون عينيه . وقال :

— يجب أن تمشى ، تمشى أكثر ماتستطيعين ، أكثر ما تستطيعين .

فلم تسمع الأميرة الصغيرة كلماته ، أو لم تشأ أن تسمعها . صمتت ، وبدا عليها الاضطراب . وسألها الأمير عن أبيها ، فبدأت تبتسم وتتكلم . وسأل عن معارفٍ مشتركين ، فزادت حيويتها وأخذت تثرثر ، وتنقل إليه تحيات أناسٍ مختلفين ، وتحكى إشاعات العاصمة .

وقالت وقد اطردت حيويتها :

— أما الكونتيسة أبراكسين ، مسكينة ، فقد فقدتْ زوجها ، وظلت تبكى حتى أدمت عينيها .

وبقدر ما تزايد انفعالها وحيويتها أخذ الأمير يرمقها بصرامة متزايدة وبدا كأنه قد دَرَسَ خصالها بما يكفيه ، وكوّن فكرة محددة عنها ، فاستدار عنها بغتة ، ووجه الحديث إلى ميشال إيڤانوڤيتش :

— أرأيت يا ميشال إيڤانوڤيتش ، سوف يلقى صاحبنا بونابرت محنة .

فالأمير أندرو . (كان دائماً يتكلم عن ابنه بلقبه هذا)، كان يقول لى عن القوات التى تحشد له .. ! بينما أنا وأنت لم نكن أبداً نعطيه كبير وزن .

لم يكن ميشال ايفانوفيتش يعرف ، بالمرة ، متى قالا «أنا وأنت» ، مثل هذا عن بونابرت ، ولكنه أدرك أنه مطلوب بوصفه مشجباً يُملق عليه موضوع الأمير المحبب ، ونظر إلى الأمير الشاب متسائلا ، لايدرى ماذا سوف يأتى بعد ذلك .

وقال الأمير لابنه ، مشيراً إلى المهندس :

— إنه عظيم فى التكتيك .. !

فدار الحديث ثانية عن الحرب، وبونابرت، والقادة، ورجال الدولة . وكان يبدو أن الأمير الشيخ على يقين ، لا من أن كل رجال تلك الفترة ليسوا إلا مجرد أطفال لايعرفون ألفباء الحرب أوالسياسة، وأن بونابرت ليس إلا فرنسياً صغيراً، قليل الخطر ، لم ينجح إلا لأنه لم يبق أحد من أمثال بوتمكين أو سوفوروف يواجهونه ، بل كان على يقين أيضاً من أنه ليس ثمة مصاعب سياسية فى أوربا ، ولا ثمة حرب حقيقية ، بل هو نوع من الأراجوز ، يلعب فيه رجال العصر ، زاعمين أنهم يصنعون شيئاً حقيقياً . واحتمل الأمير أندرو سخرية أبيه بالرجال الجدد ، فى مرح وبهجة ، بل كان يستحثه ويصغى إليه فى سرور واضح . فقال :

— أن الماضى يبدو ، دائماً ، شيئاً طيباً . ولكنْ ألم يقع سوفوروف نفسه فى الفخ الذى نصبه له مورو ، فلم يعرف كيف يفلت منه ؟

فهتف الأمير :

— مَنْ قال لك ذلك ؟ مَنْ ؟ سوفوروف .. !

ونثر صحفته بعيداً ، فالتقطتها تيخون فى يقظة .

— سوفوروف ..! فكّر أيها الأمير أندرو .. ! إثنان : فردريك وسوفوروف .. مورو .. ! كان مورو ليقع فى الأسر لو أن سوفوروف

أطلقت يده ، ولكن يديه كانتا مثقلتين بمجلس بلاط حرب السجق والشنابس[١] ..! وكان ذلك ليحيّر الشيطان نفسه ..! وعندما تذهب هناك، ستعرف ماهذه : مجالس بلاط حرب السجق والشنابس ..! لم يستطع سوفوروف أن يعالجها . فما حيلة ميشيل كوتوزوف إزاءها ؟ لايا بنى العزيز ، لن تستطيعوا شيئا ، أنت وقادتك ، أمام بونابرت . وستضطرون للالتجاء للفرنسيين ، حتى تقاتل الطيور أشكالها . لقد أرسل باهلين الألمانى إلى نيويورك فى أمريكا ، ليستدعى الفرنسى مورو[٢] ..

مشيراً بذلك إلى الدعوة التى وجهت إلى مورو فى ذلك العام للالتحاق بالجيش الروسى .

— مدهش ..! أكان بوتمكين ، وسوفوروف ، وأورلوف ، من الألمان ؟ لا يا فتى ، إما أنكم ، يا صحاب ، فقدتم العقل جميعاً ، أو أننى عشت حتى تجاوزت العقل . ساعدكم الله ، سوف نرى ماذا يحدث . أصبح بونابرت ، بينهم ، قائداً عظيماً .. ! هم م ..!

فقال الأمير أندرو :

— لست أقول أبداً أن كل الخطط جيدة ، ولكنى مندهش ، لحسب من رأيك فى بونابرت . فلك أن تضحك ما شئت ، ولكن بونابرت . مع ذلك قائد عظيم .. !

فهتف الأمير بالمهندس المعمارى ، الذى كان مشغولا بشوائه ، عاكفا عليه ، وقد راوده الأمل أنه قد نُسى الآن :

— ميشال ايفانوفيتش .. ! ألم أقل لك أن بونابرت كان عظيماً فى

---

(١) بالألمانية، اسم للزراية ، يطلقه الأمير بولكونسكى على المجلس الحربى النمسوى.
(٢) إشارة ساخرة إلى ب . أ . باهلين ، وقد كان الحاكم العسكرى لمدينة بطرسبرج فى عهد بول ، واشترك فى اغتياله .

التكتيك ..؟ هاكَ ، إنه يقول نفس الشيء .

فأجاب المهندس :

— بالتأكيد ، ياصاحب السعادة .

فضحك الأمير ثانية ضحكته الثلوجة .

— وُلد بونابرت وفي فمه ملعقة من فضة . كان لديه جنود ممتازون . ثم أنه بدأ بمهاجمة الألمان . ولم يفشل في قهر الألمان إلا الكسالى. منذ بدأ العالم انتصر كل الناس على الألمان . ولم ينتصروا على أحد — اللهم بين بعضهم البعض . لقد ذاع صيته ، لأنه حاربهم .

وأخذ الأمير يشرح كل ما اقترف بونابرت ، في رأيه ، من عثرات في حملاته. بل وفي سياسته ولم يجب ابنه ، وإن كان واضحاً أنه مهما أبديت الحجج فلم يكن ليسعه ، شأنه في ذلك شأن أبيه ، أن يحول عن رأيه . فأخذ يصغي ، وتنكتب الرد ، وأخذ يتساءل ، عن غير إرادة منه، كيف استطاع هذا الشيخ الذي عاش في الريف طيلة هذه السنوات ، أن يعرف كل أحداث أوربا العسكرية والسياسية الأخيرة ، وأن يناقشها بهذه الدقة والحدة .

واختتم أبوه الحديث :

— أتظن أنني شيخ لا أفهم الشئون المعاصرة ؟ إنها تقلقني، وتؤرقني. قل لي الآن ، أين أبدَى صاحبك هذا ، القائد العظيم ، حنكته ؟

فأجاب الابن :

— تلك حكاية طويلة .

— حسناً ، فاذهب إذن إلى صاحبك بونابرت ..!

ثم هتف بالفرنسية التي لاتشوبها شائبة :

— مدموازيل بوريين . هاكِ معجباً آخر بامبراطوركم . ذاك البهلوان .. !

— أنت تعرف أيها الأمير ، أنى لستُ من أنصار بونابرت .. !

فدندن الأمير مغنياً فى نغمة ناشزة ،وضحك ضحكة أشد نشوزاً :

— الله يدرى متى يعود ...

ثم بارح المائدة .

كانت الأميرة الصغيرة ، طيلة المناقشة، وأثناء مابقى من الغداء ، تجلس صامتة . ترمق حماها حيناً ، والأميرة مارى حيناً آخر ، بنظرة خائفة . فلما نهضوا من المائدة أخذت ذراع أخت زوجها ، ومضت بها إلى غرفة أخرى . وقالت :

— يا له من رجل ذكى أبوكِ . لعلّنى ، لذلك ، خائفة منه .

فأجابت الأميرة مارى :

— أوه .. ما أشد طيبة قلبه .. !

الفصل الثامن والعشرون

كان على الأمير أندرو أن يسافر فى المساء التالى . ولم يغيّر الأمير الشيخ من نظام حياته ، فاعتكف ، كالمعتاد ، بعد الغداء . وكانت الأميرة الصغيرة فى غرفة ﺳِﻠﻔﺘها . أما الأمير أندرو ، فكان يعد حقائبه ، مع وصيفه ، فى الجناح الذى خُصص له . وقد ارتدى جاكتة للسفر ، عارية من شرائط الكتف . وبعد أن فحص العربة بنفسه ، ورأى الحقائب توضع فيها ، أمر بالجياد أن تُربط بها . ولم يبق فى غرفته إلا ما كان يبقيه معه دائما من أشياء : صندوق صغير ، وعمود الأكل الكبير وبه صحفة من الفضة ، ومسدسان تركيان ، وسيف — هدية من أبيه ، كان قد أتى به معه من حصار أوشاكوف . وكانت كل معدات السفر هذه فى خير حال : جديدة ، نظيفة . وفى أكسية من القماش مربوطة فى عناية بشرائط .

عند ما يبدأ الرجال القادرون على التفكير . فى رحلة ، أو يغيّرون أسلوب

حياتهم ، يكونون عادة فى حال من الفكر تمتاز بالجدية وفى مثل تلك اللحظات يسترجع المرء الماضى ، ويعد الخطط للمستقبل . وكان وجه الأمير أندرو يبدو عليه التفكير العميق والرقة البالغة . كانت يداه خلف ظهره ، وهو يذرع غرفته من ركن إلى ركن ، فى خطو نشط ، ينظر أمامه مواجهة ، ويهز رأسه فى تأمل . أكان يخاف الذهاب للحرب ، أوكان يحزنه فراق زوجته ؟ — عسى أن يكون كلاهما صحيحاً . وإن كان واضحاً أنه لايريد أن يُشاهَد فى تلك الحال ، فلما سمع وقع خطى فى الممر ، بسط يديه متعجلا . ووقف إلى مائدة ، كما لوكان يجرّب غطاء الصندوق الصغير ، واتخذ لنفسه تعبيره المألوف العادى ، الذى لا يُيسِّر له غور . كان ما سمعه هو خطو الأميرة مارى الثقيل .

هتفت وهى تهيج — كانت تجرى . فيما هو ظاهر العيان :

— سمعت أنك أمرت بإعداد الجياد . وكم كنت أريد أن أحدثك ، وحدك ، مرة أخرى ..! والله يعلم كم عساه يطول فراقنا . لستَ حانقاً علىّ لأنى أتيت ؟ فكم تغيّرتَ يا أندروشا ..!

كما لو كانت تفسر سؤالها ذلك .

وابتسمت ، وهى تدعوه باسم الإعزاز والتدليل « أندروشا » . كان من الواضح أنها تستغرب أن يكون ذلك الرجل الصارم الوسيم ، هو أندروشا — الصبى الرقيق العابث ، الذى كان رفيق لعبها فى الطفولة .

فسألها ، مجيباً على سؤالها بابتسامة :

— وأين ليز ؟

— كانت متعبة حتى غلبها النوم على الأريكة فى غرفتى . أوه ياأندرو ! ياله من كنز اتخذته لك زوجة .

وجلست على الأريكة فى مواجهة أخيها :

— إنها طفلة حقاً ، كم هى طفلة مرحة حبيبة . . . وقد أغرمت بها جداً .

صمت الأمير أندرو ، ولكن الأميرة لحظت النظرة الساخرة المزدرية التى بدت على وجهه .

يجب على المرء أن يعفو عن الهنات الصغيرة ، فمن ذا الذى يخلص منها يا أندرو ! لا تنسى أنها نشأت وتربت فى المجتمع ، ومن ثم فليس موقفها الآن وردياً . ينبغى أن ندرك موقف كل امرىء على حدة ، أن تفهم كل شيء ، هو أن تغفر كل شيء . تأمل ما تواجهه لا شك ، هذه المسكينة ، بعد ما كانت قد اعتادت عليه ، إذ تفترق عن زوجها وتُترك وحدها فى الريف ، فى مثل حالتها ..! هذا شاق جداً .

فابتسم الأمير أندرو ، وهو ينظر إلى أخته ، كما نبتسم لمن نظن أننا نفهمهم حق الفهم . وأجاب :

— أنتِ تعيشين فى الريف ، ولا تعتقدين أن الحياة فظيعة .

— أنا . . هذا شيء آخر . لماذا تتكلم عنى ؟ لست أريد نوعاً آخر من الحياة ، فلستُ أعرف غير هذه . ولكن فكِّر يا أندرو : امرأة شابة ، من سيدات المجتمع . تدفن فى الريف . فى زهرة سنوات حياتها ، وحدها كل الوحدة — بابا دائما مشغول ، وأنا . . . أنتَ تعرف مدى ضعف مقدرتى على تسلية امرأة ألِفَت أرقى المجتمعات وليس هناك إلا مدموازيل بوريين .

قال الأمير أندرو :

— لستُ أحبُّ صاحبتك هذه ، مدموازيل بوريين ، على الإطلاق .

— صحيح ؟ إنها ظريفة جداً ، وعطوفة ، ثم إنها يُرثى لها كثيراً فوق كل شيء . فليس لها أحد ، لا أحد . والحقيقة أنى لست بحاجة إليها ، بل هى عقبَة فى وجهى . وأنتَ تعرف أنى كنتُ دائما غير أليفة ، وقد ازداد بى ذلك

الآن . فأنا أحبُّ أن أبقى وحدى . . . أبى يحبها كثيراً . فهى وميشال إيڤانوڤيتش هما الاثنان اللذان يبدى لهما دائما لطفا وعطفاً ، فهو ونعمتهما كليهما، كما يقول ستيرن: «نحن لا نحب الناس لما أسدوه لنا من معروف ، بل لما أسديناه لهم من معروف . » وقد آواها أبى ، حين كانت شريدة ، بعد أن فقدت أباها . وهى طيبة الطبع جداً ، وأبى يحب طريقتها فى القراءة . فهى تقرأ له فى المساء ، وتقرأ بطريقة ممتازة .

سألها الأمير أندرو بغتة :

— بصراحة تامة . يا مارى ، أظن طبع أبى يجعل الأمور تشقّ عليكِ . أليس كذلك ؟

فدهشت الأميرة مارى ، بداءة ، ثم رُوعت ، لهذا السؤال .

وقالت :

— علىَّ . . ؟ علىَّ . . ؟ تشقّ علىَّ أنا . ؟

فقال الأمير أندرو ، وواضحٌ أنه إنما يتكلم بخفة عن أبيهما ، حتى يحيّر أخته ، أو يمتحنها :

— كان دائما يميل للخشونة . وأظنه أصبح شاقاً جداً .

قالت الأميرة ، وهى تنتهج نهج أفكارها الخاصة ، بدلا من أن تتبع سير الحديث :

— أنت خيّر فى كل شىء يا أندرو . لكن لديك نوعاً من الكبرياء العقلى ، وتلك خطيئة كبرى . كيف يمكن للمرء أن يصدر حكماً على أبى ؟ بل إذا أمكن للمرء أن يفعل ، أى شعور يمكن أن يُثير رجل مثل أبى . إلا شعور الإجلال ؟ وأنا معه راضية، جداً وسعيدة . كل ما أريد أن تكونوا فى مثل سعادتى .

فهز أخوها رأسه فى غير اقتناع .

— إن الشىء الوحيد الذى يشق علىَّ . . سأقول لك الحق يا أندرو

ـ هو طريقة أبى فى تنـاول الموضوعات الدينية . لست أفهم كيف أن رجلا فى مثل ذكائه الهائل يعوزه أن يرى ماهو فى وضوح النهار ، ويسمه أن ينحرف هذا الانحراف البعيد . هذا هو الشيء الوحيد الذى يجعلنى غيرسعيدة . ولـكنى ، حتى فى هذا، أستطيع أن أرى ظلا من تحسّـن . فقد قلّت مرارة سخريته أخيرا . وكان هناك راهب استقبله وتحدث معه حديثا طويلا .

فقال الأمير أندرو معابثاً ، ولكن برقة :

ـ آه يا عزيزتى ، أخشى أن تكونى أنتِ وصاحبك الراهب تضيعان جهدكما عبثاً .

ـ آه يا صديقى إننى أرجو ، وأدعو الله أن يسمعنى .

ثم قالت بعد لحظة صمت ، على استحياء :

ـ أندرو ... لى عندك معروف كبير أسأله منك ...

ـ وما هو ياعزيزتى ؟

ـ لا .. عدنى أنك لن ترفض ...! لن يكلفك شيئا ، وليس شيئاً غير خليق بك ، لـكنه سيريح قلبى . عدنى يا أندروشا . !

ووضعت يدها فى حقيبتها ، وإن لم تخرج بعد ، ما كانت تمسك به فى داخلها، كما لو كان ذلك موضع طلبها ، ولا يجوز أن تظهره مالم يُلبَّ طلبها. ونظرت إلى أخيها خجلة .

فقال الأمير أندرو ، كما لو كان قد حدس الموضوع :

ـ حتى لو كلفنى الـكثير ...

ـ فـكّر كما طاب لك ..! إننى أعرف أنك مثل أبى تماماً. فـكّر ماطاب لك ، ولـكن افعل ما أطلبه منك ، من أجلى ..! أرجوك ..! كان والد أبى، جدّنا ، يحتفظ بها فى كل حروبه، (ولم تخرج بعد ما كانت تمسك به فى حقيبتها) ، فهل تعدنى إذن ؟

— بالطبع . ما هي ؟

— أندرو ، إنني أباركك بهذه الأيقونة . ويجب أن تعدني ألا تخلعها أبداً . هل تعد ؟

قال الأمير أندرو :

— إذا لم تكن تزن مائة رطل ولا تكسر عنق ... ومن أجلك ...

ولكنه لحظ الألم الذي أثارته دعابته عند أخته على الفور ، فندم وأضاف :

— يسرني هذا . حقاً يا عزيزتي . يسرني جداً ..!

قالت في صوت يرتجف بالانفعال ، وهي تمسك أمام أخيها ، بكلتي يديها ، في جدٍّ ورصانة ، بأيقونة صغيرة ، بيضاوية ، عتيقة ، قاتمة الوجه ، ليسوع المخلِّص ، في أرضية ذهبية ، لها سلسلة من الفضة دقيقة الصياغة :

— بالرغم من إرادتك سيخلصك ، ويشملك برحمته ، ويأتي بك إليه ، لأن فيه وحده الحق والسلام .

ورسمت علامة الصليب ، وقبّلت الأيقونة ، وأعطتها أندرو .

— أرجوك يا أندرو . . من أجلي ..!

وفاضت أشعة من النور الرقيق الحاني من عينيها الواسعتين الخجلتين . هاتان العينان أضاءتا وجهها النحوف السقيم كله ، وأكسبته جمالا . وهمَّ أخوها أن يأخذ الأيقونة ، لكنها كفّته ، ففهم أندرو ، ورسم علامة الصليب وقبل الأيقونة ، وكانت في عينيه نظرة حنو ورقة ، فقد مسّه هذا ، وإن كان في وجهه مع ذلك وميض سخرية .

— أشكرك ياعزيزتي .

وقبّلته على جبينه ، وجلست ثانية على الأريكة ، وصمتا لحظة .

وقالت :

— كنتُ أقول لك ياأندرو ، كُن عطوفا وكريماً كما كنت دائما ولا تكن قاسياً ، في حكمك على ليز . فما أشد عذوبتها ، وطيبة سجاياها

وموقفها الآن موقف شاق جداً .

— لستُ أظن أنني شكوتُ زوجي إليكِ ياماشا ، أو وجهت إليه لوماً . فلماذا تقولين لي ذلك كله ؟ .

فظهرت بقعٌ حمراء على وجه الأميرة ماري ، وصمتت ، كما لو كانت تستشعر إثماً .

واستطرد :

— لم أقل لكِ شيئاً ولكن شيئ قال لك بالعمل . وأنا آسف لذلك .

فضرحت ، وعمقت البقع الحمراء على جبينها وعنقها . وخديها ، وعالجت أن تقول شيئاً فلم تستطع . كان أخوها قد صدق حدسه : كانت الأميرة الصغيرة قد بكت بعد الغداء ، وتكلمت عن هواجسها عن الحمل والولادة ، وكيف كانت تخشى ذلك كله ، وتشكت من قسمتها ، ومن حميها ، ومن زوجها . وبعد أن بكت غلبها النوم . وخامر الأمير أندرو أسفٌ لأخته .

— فلتعرفي ياماشا هذا : إنني لا أستطيع أن ألوم زوجتي على شيء ، ولم ألمها ، ولن ألومها أبداً . ولا أستطيع أن ألوم نفسي على شيء بإزائها . ذلك ما سوف يكون دائماً ، مهما كانت الظروف التي أجد نفسي فيها . ولكنكِ إذا كنت تريدين أن تعرفي الحقيقة . . . إذا كنتِ تريدين أن تعرفي ما إذا كنت سعيداً ؟ لا . . ! أهي سعيدة ؟ لا . . ! ولكن لِمَ ؟ لست أدري . . .

ونهض ، إذ كان يقول هذا ، وأقبل على أخته ، فانحنى وقبل جبينها . واستضاءت عيناه بنصاعة مفكرة عطوفة ، غير مألوفة ، لكنه لم يكن ينظر إلى أخته ، بل من فوق رأسها ، صوب عتمة الباب المفتوح .

— فلنذهب إليها . يجب أن أودعها — أو اذهبي فأيقظيها ، وسآتي بعد لحظة .

ونادى وصيفه :

— بيتروشكا ..! تعال هنا ، خذ هذه الأشياء ضع هذا على الكرسى ، وهذا إلى اليمين .

نهضت الأميرة مارى واتجهت إلى الباب ، ثم أقصرت ، وقالت :

— أندرو ، لو كان لديك الإيمان ، لاتجهت إلى الله ، وسألته أن يعطيك الحب الذى لا تشعر به ، ولاستجيب إلى دعائك .

فقال الأمير أندرو :

— يجوز ..! اذهبى يا ماشا ، سآتى على الفور .

وفى طريقه إلى غرفة أخته ، فى الممر الذى يصل أحد الجناحين بالآخر ، التقى الأمير أندرو بمدموزيل بوريين ، التى كانت تبتسم إبتسامة حلوة . كانت تلك المرة الثالثة التى نلتقى به ، فى ممرات منعزلة ، بابتسامة فيها نشوة وبراءة .

وقالت . وهى تسبل عينيها ، لسبب ما ، وتتضرج خجلا :

— أوه ..! ظننتك فى غرفتك .

فنظر إليها الأمير أندرو نظرة صارمة ، وخيم على وجهه بغتة تعبير عن الغضب . ولم يقل لها شيئاً ، لكنه نظر إلى جبينها وشعرها ، دون أن ينظر إلى عينيها ، بازدراء بلغ منه أن تضرجت الفرنسية خزياً ، ومضت دون أن تنبس بكلمة . فلما وصل إلى غرفة أخته ، كانت زوجته قد استيقظت ، وجاء صوتها المرح ، تتسارع الكلمات فيه دراكا ، من الباب المفتوح . وكانت تتكلم ، كالمعتاد ، بالفرنسية ، وكما لو كانت تروغ أن تستعيض الوقت الضائع ، بعد أن طال بها ضبط النفس :

— لا ، تصورى الكونتيسة زوبوفا [1] العجوز ، بشعرها المستعار ، وفمها الملىء بأسنان صناعية ، كما لو كانت تحاول أن تصلح ما أفسده الدهر

---

(١) كلمة « زوب » ، تعنى سناً ، والمقصود هنا تورية بهذه الكلمة .

الطويل . ها ها ها ، تصوري ياماري ..!

كانت هذه الجملة نفسها عن الكونتيسة زوبوفا ، وهذه الضحكة نفسها ، قد سمعهما الأمير أندرو من زوجته . في حضور الآخرين ، نحو خمس مرات من قبل . دخل الغرفة هادئاً . كانت الأميرة الصغيرة ، بضة موردة ، جالسة في مقعد مريح . وفي يديها شغلها . تتكلم بلا انقطاع ، تستعيد ذكريات بطرسبرج ، بل العبارات التي قيلت فيها . وأقبل الأمير أندرو ، فربت شعرها ، وسألها ما إذا كانت تحس أنها استراحت ، بعد الرحلة : فأجابته . واستأنفت ثرثرتها .

كانت العربة بجيادها الستة تنتظر عند الشرفة ، وكانت تلك ليلة خريفية ، مظلمة ، حتى لم يكن الحوذي يستطيع أن يرى قضيب العربة أمامه . وكان الخدم ، يحملون الفوانيس ، يهرولون ويلغطون في الشرفة ، وكان البيت الضخم ساطعاً بالأنوار التي تومض في نوافذه السامقة . وأقنان البيت يتزاحمون في البهو . في انتظار توديع الأمير الشاب . وقد تجمّع كل أفراد الدار في بهو الاستقبال : ميشال إيفانوفيتش ، ومدموازيل بوريين والأميرة ماري ، والأميرة الصغيرة . كان الأمير أندرو قد استدعى إلى مكتب ابيه ، فقد كان الأخير يريد أن يودّعه ، وحده ، وكان الجميع ينتظرون خروجه .

وعندما دخل الأمير أندرو غرفة المكتب ، كان الشيخ ، في نظارته التي لبسها في شيخوخته ، وعباءته البيضاء ، التي لم يكن ليستقبل بها أحداً ، مما عدا ولده ، جالساً إلى مائدة الكتابة . فألقى نظرة حواليه ، وقال :

— ذاهب أنت ؟

وواصل الكتابة .

— جئت أودّعك .

— قبلني هنا .

ومسّ خدّه .

— شكراً ، شكراً ..!

— لِمَ تشكرنى ؟

— لأنك لم تتأخر وتتمهل . وتتعلق بأذيال امرأة . الواجب قبل كل شيء . شكراً ، شكراً .. !

وواصل الكتابة ، حتى كانت ريشته تصر . ويتناثر منها رذاذ الحبر . وقال :

— لو كان عندك ما يقال فقله . يمكن أن يتم هذان الشيئان معاً .

— زوجتى .. يخجلنى ، فى الحقيقة ، أن أتركها عبئاً عليك .

— لماذا تقول هراء ؟ قل ما تريد .

— عندما يأتى ميعادها ، أرسل إلى موسكو فى طلب مُوَلِّد .. دعه يبقى هنا ..

فكفّ الأمير الشيخ عن الكتابة ، كما لو لم يكن يفهم ، وثبّت عينيه الصارمتين على ولده .

فقال الأمير أندرو ، وقد بدا عليه الحرج والاضطراب :

— إننى أعرف أنه ما بوسع أحد شيء ، إن لم تفعل الطبيعة ما عليها . وأعرف أنه من بين مليون حالة ، لا تفسد الأمور إلا فى حالة واحدة ، لكن تلك رغبتها . ورغبتى . فقد حشا الناس ذهنها بالهراء . وحلمت حُلماً ، وهى خائفة .

فتمتم الشيخ لنفسه . وهو يكمل ما كان يكتب :

— هم م . هم م .. سأفعل ذلك .

ووقّع ما يكتب ، توقيعاً أنيقاً باهراً ، واستدار إلى ابنه فجأة ، وأخذ يضحك :

— حكاية لم تأت على خير . هه ؟

— ما هذا يا أبى ؟

فقال الأمير الشيخ ، بإيجاز ، وهو يضغط مغزى ما يقول :

— الزوجة .. !

فقال الأمير أندرو :

— لا أفهم ..!

قال الأمير :

— نعم ، لا حيلة فى ذلك يا بنىّ . كلهن على هـذه الشاكلة . ولا يستطيع المرء أن يعود ، فاذا به غير متزوج . لا تخش شيئاً ، لن أقول لأحد ، لكنك تعرف ذلك أنت نفسك .

وأمسك بيد ابنه ، بأصابع صغيرة ناتئة العظام ، وهزها ، ونظر مباشرة إلى وجه ابنه بعينين حادتين تبدوان كأنهما تنفذان إلى سريرته ، وضحك مرة أخرى ضحكته المثلوجة .

تنهد الابن ، فسلَّمَ بذلك ؛ بأن أباه يفهمه ، واستمر الشيخ يطوى خطابه ، ويختمه ، وهو يلتقط ، ثم يرمى الشمع ، والخاتم ، والورق ، بسرعته المألوفة .

وقال بعبارات مفاجئة مقطوعة . وهو يختم خطابه :

— ما العمل ؟ إنها حلوة ..! سأفعل كل شيء . فاسترح بالا .

لم يتكلم أندرو . كان مسروراً ، وغير راضٍ فى الوقت نفسه عن أن أباه قد فهمه . ونهض الشيخ وأعطى ابنه الخطاب . وقال :

— اسمع .. ! لا يكربك أمر زوجتك : سيُصنع كل ما فى الوسع . اسمع الآن ..! أعط ميشيل إيلاريو نوفيتش[1] هذا . كتبت له أنه ينبغى أن يفيد منك فى المركز الصحيح ، ولا يبقيك طويلا مجرد ملازم : فهذا مركز

---

(١) كوتوزوف .

سيء . ! قل له أنني أذكره وأحبه . أكتب لي كيف استقبلك . فإذا كان على مايرام فاخدمه . إن ابن نيكولاس بولكونسكي لا حاجة به أن يعمل تحت رئاسة أحد . إن لم يكن مرضياً عنه . تعال هنا الآن .

كان يتكلم بسرعة ، حتى لم يكن يكمل الشطر الأكبر من كلماته ، لكن ولده كان قد ألِفَ أن يفهم عنه . فأفضى به إلى المكتب . ورفع الغطاء ، وسحب درجاً . وأخرج كراسة كان قد ملأها بخطه الجسور المرتفع الحروف ، الوثيق التقارب بين الكلمات :

— سأموت قبلك على الأرجح ، فتذكَّر . هذه مذكراتي ، اعطها للامبراطور بعد موتي . وهذا سند لومباردي[1] وخطاب . إنها جائزة للرجل الذي يكتب تاريخاً لحروب سوفوروف . ارسلها للأكاديمية . وهناك بضع كلمات خططتها على عجل ، اقرأها عندما أمضي أنا . فسوف تجدها مفيدة .

لم يقل أندرو لأبيه أنه ، لا شك ، سيعيش طويلا بعده . فقد أحسَّ أنه لا ينبغي أن يقولها .

وقال :

— سأفعل ذلك كله ، يا أبي .

— حسناً ، فالى اللقاء إذن !

ومد يده لابنه يقبلها ، وعانقه .

— تذكر هذا أيها الأمير أندرو ، لو أنهم قتلوك ، فسوف يوجعني هذا ، أنا أبوك الشيخ . .

وكفَّ على غير انتظار . ثم صرخ فجأة ، في صوت به رنة المغاضبة والعراك :

---

(١) كانت مؤسسات (لومبارد) ، وهي محلات رهن ، مؤسسات تابعة للدولة في ذلك العهد ، وكانت تصدر سندات بفوائد : « سندات لومباردية » .

- لكني لو سمعت أنك لم تسلك سلوك ابن نيكولاس بولكونسكي. فسوف يحزنني ذلك..!

فقال ابنه بابتسامة:

— لم يكن بك حاجة لأن تقول لي ذلك، يا أبي.

فصمت الشيخ.

واستطرد الأمير أندرو:

— وأريد أيضاً أن أسألك، أني إذا قُتلت، وكان لي ابن، فلا تتركه يؤخذ بعيداً عنك — كما قلت بالأمس.. ربّه معك.. من فضلك

فقال الشيخ.

— لا أدع الزوجة تأخذه..؟

وضحك.

وقفا صامتين، يواجهان أحدهما الآخر. كانت عينا الشيخ الحادتين مثبتتين على ابنه مواجهة. وارتجف شيء، في الجانب السفلي من وجه الأمير الشيخ.

وهتف فجأة، بصوت مرتفع غضوب، وهو يفتح الباب:

— قلنا إلى اللقاء. اذهب!

سألت الأميرتان:

— ماذا حدث؟ ماذا؟

عندما رأيا. لحظة عند الباب، الأمير أندرو، والشيخ في عباءته البيضاء، بنظارته، ومن غير شعره المستعار، وهو يهتف بصوته الحانق.

فتنهد الأمير أندرو ولم يجب.

وقال ملتفتاً إلى زوجته:

— حسناً..!

ورنت «حسناً» هذه، ساخرةً، باردة، كما لو كان يقول: «هيا

الآن قومى بالدور . . ! »

فقالت الأميرة الصغيرة :

— أندرو . . الآن ؟

وشحب وجهها ، وهى تنظر إلى زوجها فى قنوط واستنكار .

فعانقها . وصرخت . وسقطت ، مغشياً عليها ، على كتفه .

خلّص كتفه التى كانت مستندة إليه ، بحرص ، ونظر فى وجهها ، ووضعها ، بعناية ، فى كرسى مريح .

وقال لأخته برقة :

— إلى اللقاء يا مارى .

وأخذها من يدها وقبّلها . ثم ترك الغرفة بخطوات سريعة .

رقدت الأميرة الصغيرة فى الكرسى المريح ، وأخذت مدموازيل بوريين تفرك صدغيها ، وكانت الأميرة مارى ، وهى تسند امرأة أخيها ، ماتزال تنظر بعينيها الجميلتين المليئتين بالدموع ، إلى الباب الذى خرج منه الأمير أندرو ، ورسمت علامة الصليب فى اتجاهه . ومن غرفة المكتب ، كطلقات الرصاص ، تردد طويلا صوت الشيخ يتمخط بغضب . وما كاد الأمير أندرو يمضى . حتى انفتح باب غرفة المكتب بسرعة ، وأطلّ منه الشيخ الصارم فى عباءته البيضاء . وقال :

— مضى ؟ هذا حسن . . !

وهو ينظر بغضب إلى الأميرة الصغيرة المغمى عليها ، وهز رأسه ، فى لوم ، وصفق الباب .

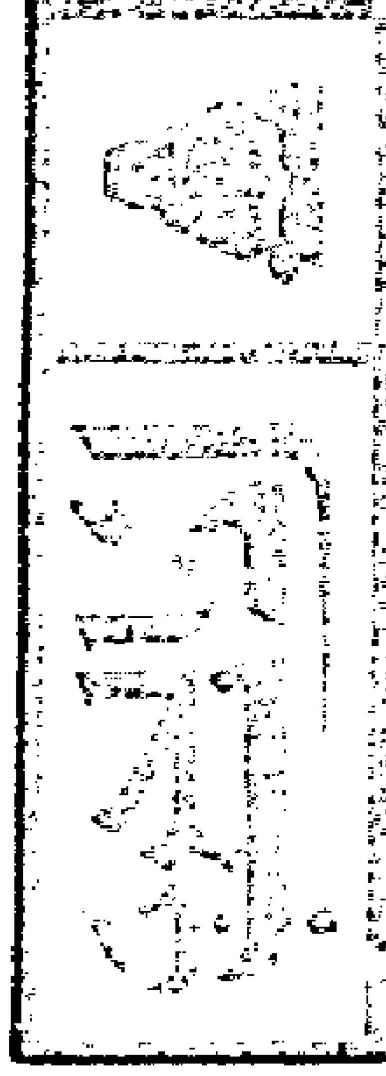


General Org...

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٤٤ / ١٩٩١

I. S. B. N. 977 - 01 - 2703 - 5



يصدر :

الحرب والسلام

الجزء الثاني

السمان يهاجر شرقاً

رفاق السلاح

الحرب والسلام

« الحرب والسلام » ، إلياذة العصور الحديثة ، أساس الرواية الحديثة فى العالم ، عوالم بأكملها ؛ الحب ، البغض ، الصراعات السياسية ، الفكرية ، القتال ، عالم الحرب بما يحويه من شجاعة وخوف ، من أمل وألم ، جسد ليونولستوى هذا العمل الفذ ليصبح علامة ثابتة على مر الأزمنة والدهور ، وفى ترجمة دقيقة ، أدبية ، قدم الروائى الكبير « ادوار الخراط » نموذجا عظيما لكيفية ترجمة العمل الادبى من لغة الى لغة ، بحيث يمكن القول أن الخلق فى ترجمة الحرب والسلام إلى العربية يقف بمحاذاة الخلق فى إبداعها ، مما جعل المراجع الأدبية فى العالم تعتمد هذه الترجمة لتلك الرائعة الأدبية والإنسانية التى نقدمها كاملة فى سلسلة « أدب الحرب »

جمال الغيطانى



٣٧٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب